المشرق

السنة الخامسة والاربعون		كانون الثاني – اذار ١٩٥١

تمهيد

محتوم

على كل مجلة ان تجاوب بقدر الامكان على متطلبات العصر الذي تعيش فيه . ولزام علينا ان نسعى جهدنا لتوجيه عقلية ذلك العصر التي كثيراً ما تكون عرضة للتخبط في ظلمة الافكار والفلسفات والاكتشافات والعقائد . وان تسعف هذه العقلية على الاستقرار والثبات امام زحمة المبادئ المدمّرة ، وعلينا ان نكون ، في المحيط الذي نرمي الى خدمته ، شاهدة الفكر ونقطة اشعاع للعقل .

تأسست المشرق عام ١٨٩٨ وما برحت منذ ذلك الحين تثير اهتمام العالم الشرقي والمستشرق بشاكل الحياة المختلفة من عملية يومية ومن عقلية بحتة . وما فتئت تبعث من غبار القديم الدارس عدداً وافراً من الآثار المهمة من حياة الامم الشرقية وتاريخها ودياناتها وتنوع مظاهرها العديدة . وهكذا كانت

تقدم الخدمة الجلى للعقل الانساني، اذ تظهر له، بنضالها المستمر العنيد، عن الحقيقة، وجهة العقل الحقيقية. وذلك ما ذكره الاب لويس شيخو عندما طلع بعدد المجلة الاول، اذ قال: «وقد اتخذنا لنا شعاراً قوله تعالى في رسالة يوحنا الاولى (ف ١ : ٥) « ان الله نور وليس فيه ظلمة البتة » اشارة الى انه عز وجل هو مصدر العلوم والمعارف وان كل علم لا يستند منه ولا يعود اليه انما هو ضلال بحت » .

فقد بات من المحتم اذاً ان نتابع هذا السعي المستمر وان نذكي ذلك الجهاد قدر ما تفسح لنا المكنة .

●

في السنوات الاخيرة اكرهت ضرورة الحال مجلة المشرق على ان تحصر اهتمامها على التنقيب العلمي الخالص الذي كان يلفت انظار القراء المرموقين من شرقيين حاذقين ومن مستشرقين . فكان مجالها اذاً محصوراً على الفئة المثقفة . ونحن وان وددنا السير على التقليد الموروث ، فاننا نريد ايضا ان نثير اهتمام قرائنا بمشاكل حيوية في امة علينا ان نكونها ، فيكون للمشرق يد مشرفة في هذا العمل البناء . واذا كنا نفسح على صفحاتها مجالاً واسعا للبحوث العلمية ، واذا كنا ننهد الى الماضي نخلّص من غيابات السنين المندثرة رسوم المدنيات الغابرة ، فاننا لن نتوقف عند هذا الاهتمام الواحد بل سنعداه فننعكف على حاضرنا نعمل فيه الفكرة لنتخذ منه زاداً نخوض غمرة المستقبل المجهول . وستساعفنا في هذا العمل الخطير اقلام كتبة هم فوق كل مدح وتقريظ . وهكذا تحتفظ المشرق بطابعها العلمي ، بميزتها الاصيلة ، ومعاً تصبح اكثر شمولاً فتتناولها ايدي مجموع اوفر عدداً . فانها وان حافظت على جو الثقافة العالية لن تهمل العناية بهموم الساعة وشؤون اليوم . وعلى هذا النحو الخاص تساهم في اشاعة المعرفة بين الاوساط المثقفة وتعين الباحثين على اكتشاف وجهة لهم في التفكير والحياة .

وسيكون لنا من الشرق كتبة يهتمون بمشاكلنا . ويكرس مستشرقون معروفون صفحات من المجلة للثقافات العربية البائدة كتلك التي سطعت يوماً في الاندلس او في بلدان اخرى .

ستظل المشرق اذًا شرقية تستوحي مواضيعها من كل ما له علاقة بالشرق.
ولكنّ هذا التوجيه لن يمنع القرّاء من ان يجدوا فيها عرض التوجهات الكبرى التي تمشي في العالم والتي ستقرر مصير الفكر العالمي العتيد وترسم خطوط العلاقات الممكنة بين الامم من حركات فكرية واكتشافات في كل شعبات المعرفة البشرية. وهكذا ستبقى المشرق غداء لكل هواة الشرق فتكون مصدر نور وحياة. ولا شك ان العودة الى هذا المصدر محمودة مشتهاة.

ونأمل من القرّاء والمشتركين ان يؤازرونا بتفهمهم وعددهم لكي نواصل الجهود ونستمر في الثبات عليها حتى النهاية.

والى الله نضرع لكي يرسل الينا بالعضد والقوة لنقوم بهذا العمل الذي نشاؤه خيرًا مثمرًا. انه تعالى المفزع الاوحد الذي اليه نقبل وعليه نتكل لنتقي الضلال ونساهم في مشروع تحسين الامة وتجميل عمارة الانسان حتى يكمل الانسان فيشابه ربه.

الاب اغناطيوس عبده خليفه
اليسوعي

من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

لغة الحضارة (تابع)

الالفاظ الواردة بمعنى ڤيلا

اي البيت الذي تطيف به حديقة او بستان

اختار المجمع الملكي بمصر لفظة طَزَر لتعريب لفظة ڤيلا[١] وهي من الفارسية تَزَر وفسروها بانها البيت الصيفي وفي غير واحد من معجمات اللغة « النبت الصيفي » بتقديم النون على الباء. ولا يشذ على احد قبح لفظ الطزر وهجنته للتعبير عن هذا المنزل الانيق فضلًا عن التباس معناه لانه في عرف اهل الشام اليوم يراد به المقعد الذي يجلس عليه في القاعات ومع ذلك فقد قال الاب المرحوم انستاس الكرملي في الرد على من اراد اطلاق الدسكرة على معنى ڤيلا بدلًا من طزر « اما الطزر فمن الكلام الذي لا ينال لمتانته وفصاحته »[٢].

ومثل هذه المنازل المتخذة بين الرياض والمنازه كانت شائعة في دولة الروم البيزنطيين وكان يقال لها احياناً « غرفة وغرف » ومنها غرفة موكل اسم قصر باليمن ذكرها لبيد في شعره فقال يصف الليالي والدهر :

وغلبن ابرهة الذي الفينه   قد كان خلّد فوق غرفة موكل[٣]

ولعمر بن ابي ربيعة :

واعجبها من عيشها ظل غرفة   وريّان ملتفّ الحدائق اخضر[٤]

وللسري الرفا. يدعو صديقاً له ويصف غرفة له بالموصل مشرفة على الربض الاسفل والنهر :

---

١) مجلة مجمع اللغة العربية الملكي الجزء الثاني ص ٦٧

٢) مجلة المجمع العربي بدمشق ١٦ : ٥٤

٣) معجم البلدان ٣ : ٧٨٦ و٤ : ٦٨٨

٤) الاغاني طبعة الدار ١ : ٨٣

لنا غرفة حسنت منظرا ودابت لساكنها مخبرا
ترى الدين من تحتها روضة ومن فوقها عارضاً ممطرا
وينساب قدامها جدول كما زُعر الايم او نُثرا(١

وللحاسن الشوا في وصف غرفة بدمشق :

بين ثورا ويزيد غُرف ود طرفي لو وقاها بالجفون
بنيت فوق قطوف قد دنت فوق انهار جوار وعيون

وله ايضاً :

ولكم بين دومة وحرستا غرفاً توقف النواظر حسرى(٢

وللفقيه ابي عبدالله المغيلي في وصف فاس :

يا جنة الدنيا التي اربت على حمص بمنظرها البهي الاجمل
غرف على غرف ويجري تحتها ماء الذ من الرحيق السلسل(٣

وقد اشتهرت هذه الغرف في دمشق لتوفر حدائقها والتفاف اشجارها وتفرع انهارها قال العمري :« عناية اهل دمشق بالمباني كبيرة ولهم في بساتينهم منها ما تفوق به وتحسن اوضاعه»(٤ وكانوا يطلقون عليها اسم الجواسق جمع جوسق اي القصر الصغير ولذلك قال العماد الكاتب في وصف المدينة :

ترى جواسقها في الجو شاهقة كأنهن قصور للسلاطين(٤

وللناصر داود بن الملك المعظم عيسى :

يا حسنها حين زانتها جواسقها وانيمت في اعالي الدوح اثمار(٥

ومثله لشهاب الدين فتيان من الشاغوري :

بها الجواسق امثال المراكب في بحر البساتين يعلوها صواريه

ولمحمد بن طاهر في وادي دمشق :

لله ايامي بوادي جلق والروض بين ازاهر وشقائق
في مجلس يحيى القلوب بمنظر منه اناف على فنون جواسق

١) يتيمة الدهر للثعالبي طبعة دمشق ١ : ٨٣
٢) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ خزانة باريس
٣) روض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس طبعة باريس سنة ١٨٦٩ ص ١٢
٤) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ خزانة باريس
٥) نفح الطيب ١ : ٥٢٠

ولشمس الدين بن سباع الصائغ :

اني انجهت رأيت دوحاً ناوة متسلسل يعلو عليه جوسق

ولابن ظهير الاربلي :

وكم جدول جارٍ يطارد جدولاً وكم جوسق عال يؤازيه جوسق

ولمحيي الدين العربي :

في كل قطر روضة منترة عن جدول يجري بساحة جوسق

ولشهاب الدين التلعفري :

ظل ظليل وماء بارد شبم وجوسق مشرف عال وبستان

ولابن زبلاق الموصلي :

اني التفتَّ فجدول متسلسل او جنة مرضية او جوسق

ولامين الدين علي السليماني :

وجواسق مثل القصور يجوّها ما شئت من حور ومن ولدان

ومن الجواسق المشهورة بدمشق جوسق « قصر هرقل » قال العمري : « هو بالشرف الاعلى الشمالي ويعرف في زماننا « بقصر الملوك » ولم يبق منه الا الجوسق والحمام والجوسق الآن خانقاه للفقراء. ولم يزل منزلاً للملوك ومنتزهاً لاهل البلد لاشرافه على نهر بردى والوادي ونزله صلاح الدين[1] واشتهر بها ايضا جوسق النيرب والربين وصفه ابن سلامة المصري بقوله .

تأمل جنة زينت بقصر على نهر غير الماء جاري

وفيه للبهاء اسعد السنجاري :

يا حبذا جوسق بالنيربين وقد قضيت عمر الصبا فيه هوى وصبا

ومثله لمهذب الدين سالم بن سعادة الحمصي :

وحيا الحيا بالنيربين جواسقا قضيت بها حاجي من اللهو والدَدِ

ولابن نقادة في وصف جواسق بساتين بيت لهيا :

جنان جنوني في هواهن هاجه جوى ساقه تذكار تلك الجواسق

وكان جبل قاسيون حافلاً بالجواسق لحسن موقعها وجمال مُطَّلها وفيه يقول محاسن الشوا الحلبي :

وتأمل منه الجواسق بيضا قد احاطت بها الحدائق خضرا[2]

1) مسالك الابصار ١ : ٣٤٩

2) كل هذه الابيات المتقدمة واردة في كتاب عيون التواريخ المشار اليه آنفاً

ولابن عبد الهادي في تاريخ الصالحية تلخيص محمد بن كنان « الباب الثامن في ذكر محلات الصالحية وما فيها من الجواسق اي القصور المعدة للنزهة »[١]

ومن الالفاظ التي اطلقت في زمن الامويين على المنزل القائم في الحديقة والجنة كلمة الحَير عرف بها بيت ابن سرجون بن منصور جد القديس يوحنا الدمشقي كان موضعه البستان الذي اشتهر فيما بعد ببستان القط وكثيرًا ما تصحفت هذه الكلمة بلفظة الجسر في تاريخي ابن عساكر وابن شداد ومن اخذ عنهما ونقلها الامويون الى الاندلس وكان في قرطبة خارج باب اليهود حير ذكره الوزير ابو الحسن بن سراج في قصيدة له قال فيها :

بالحير لاعبت هناك غمامة الا تضاحك ازهرًا وجليلا

قال ابن خاقان : « الحير الذي ذكره هنا هو حير الزجالي الذي يقول فيه ابو عامر بن شُهيد :

لقد اطلعوا عند باب اليهو د شمسًا ابى الحسن ان تكسفا
تراه اليهود على بابها أميرًا فتحسبه يوسفا

وهذا الحير من ابدع المواضع واجملها واتمها حسنًا واكملها صحة مرمر صافي البياض يخترقه جدول كالحية النضناض به جابية كل لجة فيها كابية وقد قرنت بالذهب واللازورد سماؤه وتأزرت بها جوانبه وارجاؤه والروض قد اعتدلت اسطاره وابتسمت من كمائها ازهاره ومنع الشمس ان ترمق ثراه وتعطر النسيم بهبوبه عليه ومسراه . . . »[٢]

ولما افتتح عمرو بن العاص مصر كانت الجواسق فيها كثيرة متفرقة في كل انحائها وكان يقال للواحد منها « مُنية » وهي لفظة رومية بمعنى المنزل والمقام وقد اطنبوا في عدد هذه المُنيات او المُنى كعادتهم في المجازفة بالارقام فزعم ابن عبد الحكم ان عمرو بن العاص كتب الى عمر بن الخطاب بعد استيلائه على الاسكندرية : « اما بعد فاني فتحت مدينة لا اصف ما فيها غير اني اصبت فيها اربعة آلاف منية باربعة آلاف حمام . . . »[٣] ولا تزال المواضع

١) خزانة برلين Wetzst. II n 117
٢) قلائد العقيان لابن خاقان ١٦٥
٣) فتوح مصر واخبارها ٨٣

والقرى المدعاة بالمنية وافرة جداً في مصر تشهد بقدم هذه الجواسق قال ياقوت: « المنية ثلاثة واربعون موضعاً وجميعها بمصر غير واحدة والمنى بمصر كثيرة تزيد على مائتي قرية »[١] وفي تاج العروس تعداد ما جاء من هذه المنى بلفظ الإفراد والتثنية والجمع مرتبة على الاقاليم (١٠: ٣٥٠–٣٥١).

ولا شك ان كل هذه المنى التي كان تعد بالآلاف قبل دخول العرب كانت منازل خاصة مبنية بين الحدائق والرياض قبل ان يتسع ما حولها وتتكاثر الابنية في جوارها وتصبح عامرة ومما يدل على ذلك ما حُفظ من نسبتها الى اربابها ومنشئيها قديماً نظير « منية الاصبغ » و« منية ابي الخصيب » و« منية القائد » و« منية بدر » و« منية الشماس » و « منية هاشم » و« منية يزيد » وهلم جرّا حدث القاسم بن الحسن بن راشد قال: « ان يحيى بن حنظلة مولى بني سهم نزّه عبدالله بن عبد الملك (امير مصر) الى منية له بالجيزة فما رأى طعاماً كان اكثر من طعامه »[٢].

وكانت هذه المنى شائعة في الاندلس تتخذ في المدن وارباضها وفحوصها والفحص عندهم كل موضع يسكن سهلاً كان او جبلاً بشرط ان يزرع[٣] فكانت مثل هذه المساكن الانيقة شبيهة بما يعرف اليوم في الغرب باسم maisons de campagne وهي لا تختلف كثيراً عن مُنى المدن سوى انها اوسع رقعة ومتزهاً وانأى في الضواحي والغياض.

واشتهر بقرطبة قاعدة الاندلس ودار الملك مُنىً كثيرة منها منية الناعورة خارج القصور ومنية عبدالله ومنية الزبير منسوبة الى الزبير ابن عم الملثم ملك قرطبة[٤] وافخمها « منية الرصافة اتخذها عبد الرحمن الداخل بشمال قرطبة منحرفة الى الغرب فاتخذ بها قصراً حسناً ودحا جناناً واسعة ونقل اليها غرائب الغروس

---

١) المشترك طبعة اروبة ٤٠٧

٢) تاريخ مصر وولاتها لابي عمر الكندي طبعة كست ٦٣

٣) معجم البلدان ٣: ٨٥٢

٤) نفح الطيب ١: ٢١٤ و٢١٧ و٢٧٠ و٢٧٣ – ٢٧٢ قال لسان الدين الخطيب: ا.١ ما حازه السهل من جوفيه في غرناطة مُنى عظيمة الخطر متناهية النيم . . . يختص منها بمستخلص السلطان ما يناهز ثلاثين منية (اللمحة البدرية في الدولة النصرية ١٦)

واكارم الشجر من كل ناحية واودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسولاه الى الشام من النوى المختارة والحبوب الغريبة ... وسماها باسم رصافة جده بارض الشام.»[١]

ومن المنى المشهورة في بلنسية منيـة منصور بن ابي عامر « وهي منتهى الجمال ومزهى الصبا والشمال »[٢] و« منية الوزير الاجل ابي بكر بن عبد العزيز وهي من ابدع منازل الدنيا »[٣] وفي عدوة اشبيلية المطلّة على النهر منية الوزير ابي مروان بن الدب المشتملة على بدائع الزهر »[٤] وغير ذلك من المنى التي كانت حلية الاندلس ومطمح الانفس كمنية عجب[٥] ومنية السرور ومنية المغيرة والمنية المصحفية منسوبة الى الحاجب ابي عثمان جعفر بن عثمان المصحفي[٦] والمنية المسماة بالبديع « وهي روض كان المتوكل يكلف بمواقاته ويبتهج بحسن صفاته ويقطف رياحينه وزهره ويقف عليه إغفاءه وسهره »[٧].

ومن هذه الاوصاف والشواهد يتضح ان المنية كانت تطلق على كل دار فيحاء او قصر فخم طافت بها الحدائق والرياض او تسلسلت بينها الجداول والانهار سواء كانت هذه المساكن قائمة في باطن المدن والارباض ام نائية في ظاهر الفحوص والفياض ولا نرتاب ان كل من خُيّر بين اسماء « الطزر والغرفة والجوسق والحير والمنية » لا يؤثر الا اسم «المنية» لتعريب « ڤيلّا » لرشاقة لفظها في مثل نالها العربي ودلالة معناها على متمنّى كل متديّر متحضّر باتّخاذ هذه المنازل والمنازه ولذلك صحت التورية للصفي الحلي بقوله في القاهرة :

قد قاهرة المعزّ فاخـرا بلد تخصّص بالمسرة والهنا
او ما ترى في كل قطر منية من جانبيها فهي مجتمع المُنى[٨]

١) نفح الطيب ١: ٢١٧
٢) قلائد العقيان ٦٨
٣) مطمح الانفس ٨٥
٤) مطمح الانفس ٢٨
٥) معجم البلدان ٤: ٦٧٥
٦) نفح الطيب ١: ٢١٩
٧) قلائد العقيان ١٥١
٨) ديوانه ١٩١ – ١٩٢

جمع مفعول على مفاعيل

للنحاة والصرفيين اقوال وضوابط لا تخلو من محل للنظر والاستدراك لقلة استقصائهم في البحث والمراجعة ولورود ما يخالفها في اللغة والسماع وقل من اشبع الكلام في هذا الباب وتتبع كل ما جاء في احكام النحويين من هذا القبيل وقد اشار الى شيء منها عَرَضًا ابو حيان التوحيدي فقال في بعض ما حكاه من مجالس الصاحب بن عبَّاد :

« قال الصاحب يوماً فَعْل وافعال قليل وزعم النحويون انه ما جاء الا زند وازناد وفرخ وافراخ وفرد وافراد فقلت انا احفظ ثلاثين حرفاً كلها فعل وافعال فقال : هاتِ يا مدّعي فسردت الحروف ودللت على مواضعها من الكتب ثم قلت : ليس للنحوي ان يلزم مثل هذا الحكم الا بعد التبحّر والسماع الواسع وليس للتقليد وجه اذا كانت الرواية شائعة والقياس مطردًا وهذا كقولهم فعيل على عشرة اوجه وقد وجدته انا على اكثر من عشرين وجهاً وما انتهيت في التتبّع الى اقصاه »[1]

ومن مسائل الخلاف بين النحاة والكتاب ما زعموه من ان صيغة مفعول لا تجمع جمع تكسير واستثنوا من ذلك بعض الفاظ اوصلها المكثر منهم الى سبعة عشر ولذلك انكرت مجلة المجمع العربي بدمشق جمع مشهور على مشاهير مع وروده في كلام الائمة واكابر الكتاب والشعراء. وقد عنّ لنا ان نتتبع كل ما ورد من جمع مفعول على مفاعيل في اثناء مطالعاتنا ومع اننا لم نبلغ الغاية من الاستقراء. فقد اجتمع لنا من هذه الجموع المكسرة مئة واربعة عشر حرفاً بين فصيح ومولّد رتبناها على حروف المعجم واطّرحنا منها ما كان عامياً بحتاً وعززنا كل لفظ منها حسب الحاجة بثَبَتِهِ من النثر والشعر مع الدلالة على مأخذه ومصدره ليكون حجة يستظهر بها ويرجع اليها في تاريخ لغة الحضارة :

---

١) ارشاد الاريب ٥: ٢٩٢

مأثور مآثير	للسيف القديم المتوارث كابرًا عن كابر وقيل الذي له اثر اي فرند (اساس البلاغة) وقد جمعه ابو تمام على مآثير بقوله : قد كانت البيض المآثير في الوغى بواتر فهي الآن من بعده بُتْر
مبسوط مباسيط	من الاقتاب ضد المفروق وهو الذي يفرق بين الحنوين حتى يكون بينهما قريب من ذراع والجمع مباسيط (التاج ٥:١٠٧ واللسان ٩:١٢٩)
مبهوت مباهيت	لابي نواس في وصف الخمرة : ترى لها في اعالي كأسها حدقا بلا جفون كأحداق المباهيت (قطب السرور الرقيق النديم لندرة Or. 3628 f° 183)
مبهور مبهورة مباهير	الجاحظ : مباهير كثيرات التعب ومباهير متاعيب قد علاهم البَهَر (البيان والتبيين المطبعة العامية ٧٥)
متعوب متاعيب	منع اهل اللغة ان يقال متعوب بدلًا من تَعِب ومع ذلك فقد اجازه الجاحظ. كما تقدم من كلامه آنفًا.
مثقوب مثاقيب	ازلزات مثاقيب واحدها مثقوب (تاج العروس ١:١٦١)
مجبوب مجابيب	لابن جبير في كلامه على جند العباسيين : رونق هذا الملك انما هو على الفتيان والاحابيش المجابيب (رحلته طبعة ليدن ٢٢٧) ولابن بسام : كان في ذلك الزمان بقرطبة جملة من الفتيان المجابيب (الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ٤ — ١:٢٢).
مجدول مجاديل	قال المقريزي في الكلام على بركة الفيل « كان

هناك قنطرة كبيرة فهدمت وعمل مكانها هذه المجاديل بالحجر » (الخطط ٢ : ١٦٢) .

مجذوب مجاذيب

مجموع ومجموعة مجاميع

مجنون مجانين

مجهود مجاهيد — في فتوح البلدان : اقمت بمصر فرأيت اهلها مجاهيد (طبعة اروبة ٢١٧) وقال القاضي الفاضل : اهل مصر على كثرة عددهم وما ينسب من وفور المال الى بلدهم مساكين يعملون في البحر ومجاهيد يدأبون في البر (حسن المحاضرة ٢٠٠) .

مجهول مجاهيل — ارض مجهولة واراض مجاهيل (لسان العرب ١٣ : ١٣٨) ولابن العديم في زبدة الحلب . صالح المسلمون الفرنج . . . على خمس مئة اسير مجاهيل الاحوال (خزانة باريس ١٦٦٦ ص ٢٠) .

محووج محاويج — لابي العلاء :

ما البدر كالعدم في الاحكام بل شحطت
حال المياسير عن حال المحاويج
(لزوميات طبعة الهند ٧٨)

محبوس محابيس — « كتب عمر بن عبد العزيز في المحابيس لا يُقيَّد احد بقيد يمنع من تمام الصلاة » (طبقات ابن سعد ٤ : ٢٧١) .

محجور محاجير — « كان لبعض المحاجير حصة في بستان » (رفع الاصر عن قضاة مصر للعسقلاني ٩٤٠٤٩ ٢٠١ باريس ٧٨) وفي الضوء اللامع للسخاوي « طالبه بدين لمحاجير له » (٧ : ١٦٢) .

محذور محاذير

محزور شمسي محازير Cycle Solaire الآثار الباقية للبيروني ١٨٥.

محروق محاريق قال العتبي :

ولي صاحب سرّي المكتّم عنده
محاريق نيران بليل تحرّق
(المحاسن والمساوئ ٢ :٥٩)

محسوب محاسيب مجلة الضياء ١ :٦٥٩

محسور محاسير من حسرت البعير حسْرًا اذا اتعبته وللفرزدق :

على عمائمنا يلقى وارحلنا على زواحف ترجيها محاسير
(خزانة الادب المطبعة السلفية ١ :٢٢١)

محصول محاصيل بمعنى الغلة والدخل

محفوظ محافيظ المحفوظ الولد الصغير (مكّية) والجمع محافيظ تفاؤلًا (التاج ٥ :٢٥١) وفي شذرات الذهب : النجيب السهروردي . كانت له محافيظ جيدة في التعبير (٤ :٢٠٩).

مختوم مخاتيم بمعنى الصاع عن ابي عبيد (المغرب للمطرّزي ١ : ١٤٩).

مخدوم مخاديم المخدوم الرئيس والجمع مخاديم (التاج ٨ :٢٧) .

مخذول مخاذيل (محيط المحيط) وللسالار ابي المعالي العقيلي من كتاب له في الفتوح : قامت الحرب مع المخاذيل على ساق (دومية القصر ٢٣٠).

مخزوم مخازيم لنوع من الاوراق والحسبانات في مصطلح الدواوين كانت تخزم وتشد ولابن الوردي :

يقول لي بوّابه اذ رأى بالباب مني وقفة الخائر
له مخازيم جما شغله فقلت مخازيم بلا آخر
(مطالع البدور لعلاء الدين البهائي ١ :٢٨)

مخصور مخاصير لدريد بن الصمة :

لن تسبقوني ولو امهلتكم شرعًا
عقبى اذا ابطأ الفحج المخاصير
(الاغاني طبعة الدار ١٠ : ١٤).

والمخصور الذي يشتكي خصره

مخضوب مخاضيب من شعر ابي حفص بن برد :

اياك والموعد الخوّان تقبله فلا امانة للُمس المخاضيب
(ذخيرة ابن بسام ١٠٩).

مخمور مخامير لابن سناء الملك :

تراهم أبدَ الدهر سكارى او مخامير
وان اعوزهم نقل فاعراض المشاهير
(ديوانه خزانة اكسفرد M. S. Sale 17).

مخموص مخاميص من قولهم خمص الجوع فلانًا فهو مخموص قال الزهير ابن سهم المرادي من ابيات :

وابن المنيح ومرداسًا واخوته
اذ فارقوا زهرة الدنيا مخاميصا
(انساب الاشراف للبلاذري ج ٨٨).

مدخول مداخيل

مذبوح مذابيح ثنيّة المذابيح من جبل شهلان في بلاد ثير (معجم البلدان ١ : ٩٣٦).

مذكور مذاكير لابي الشبل البرجي في رثاء سراجه :

وليس يقوى بروقه جبل صلد من الشّمخ المذاكير
(الاغاني ١٣ : ٢٨).

مرسوم مراسيم للكتب السلطانية

مزمور مزامير

مستور مساتير لابن سناء الملك

اذا ما استتر النا سُ فذا القوم مساتير
(ديوانه اكسفرد).

ولعبد اللطيف البغدادي في وصف مجاعة مصر : أكل بعضهم بعضاً حتى تفانى اكثرهم ودخل في ذلك جماعة من المياسير والمساتير (الافادة والاعتبار ٥٠).

مسجون مساجين — قال ابن الاثير في الكامل . جاءنا كتاب من الموصل يأمرون باطلاق المساجين (١١ : ١٣٤)

مسحوق مساحيق

مسطور مساطير — لابن سناء الملك :

ولا يدرون ما الكتب وتصنيف المساطير
(ديوانه اكسفورد)

وشاع هذا اللفظ في المغرب ايضاً قال عبد الواحد المراكشي : كتبوا بذلك مساطير خوفاً على انفسهم (المعجب في تلخيص اخبار المغرب ٢٠٤ — ٢٠٥).

مسطول مساطيل — لآكل الحشيش والبنج ولابن عفيف الدين التلمساني :

وقعت بالرشف على ثغره وقع المسطبطيل على الحلوى
(فوات الوفيات ٢ : ٢٦٥)

مسعود مساعيد — اسعده الله فهو مسعود والجمع مساعيد (التاج ٢ : ٣٧٦).

مسعور مساعير — لابي الشبل البرجمي في رثاء سراجه :

يلتهب الموت في ظباه كما تلتهب النار في المساعير
(الاغاني ١٣ : ٢٨)

مسلوب مساليب

مسلوخة مساليخ — زادها الرضي في شرح الكافية قال جبرئيل بن بختيشوع : ما استقرَّ بي الموضع حتى وافاني الخبز والمساليخ (عيون الانبا. ١ : ٧٨).

مسوح مساميح	لنوع من الكتب السلطانية في المسامحة بالبواقي من المكوس والضرائب قال المقريزي في ابطال الملك الظاهر بيبرس عدة مظالم بعد جلوسه على سرير الملك : كتب به مساميح قرئت على المنابر (الخطط ١ : ١٧).
مشؤوم مشائيم	رجل مشؤوم والجمع مشائيم وللاحوص اليربوعي : مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب الا بشؤم غرابها (التاج ٨ : ٣٥٤ واللسان ١٥ : ٢٠٧)
مشبوب مشابيب	في كتاب عمر لوائل بن حجر : « الى الاقيال العباهلة والارواع المشابيب » اي السادة الرؤوس الزهر الالوان الحسان المناظر واحدهم مشبوب كأنما أوقدت الوانهم بالنار (اللسان ١ : ٤٦١ والنهاية ٢ : ٢٠١).
مشروح مشاريح	لابن الساعاتي : يا أنشب الناس شصاً في محرّمة يصطادها بشباك من مشاريح (ديوانه ٢ : ١٥٦) وللمقريزي في الخطط : اصدروا الى الديوان المشاريح بما كتبوه (١ : ١٣٧).
مشطور مشاطير	للعجاج ارجوزة عينيّة وهي اثنا عشر مشطوراً . ولرؤبة عينية وهي مائتان وثمانية مشاطير (التاج ٥ : ٣٢٠).
مشغول مشاغيل	لعمارة بن عقيل في المأمون : اضحى امام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغيل (كتاب بغداد لابن طيفور ٣١٣) وللمسعودي : هم مشاغيل في حربهم (مروج الذهب بهامش نفح الطيب ١ : ١٥١).

مشنوق مشانيق	المقريزي: بمصر كوم المشانيق لانه كان يشنق باعلاه ارباب الجرائم (الخطط ٢ : ١٥١).
مشهور مشاهير	شاع هذا الجمع في المشرق والمغرب ولمحمد بن عبد الملك بن زهر الاشبيلي من موشح له : قصّرت عنه مشاهير الصفاح وانثنت بالذعر اغصان الرماح (ارشاد الاريب ٧ : ٢٤)
مصروف مصاريف	يعني النفقة عند المتأخرين ومنه قول البدري في كلامه على قبتي الجامع الاموي « اودع بينهما الوليد كتب اوقاف هذا الجامع ومصاريفه » (محاسن الشام ٤٢).
مصروع مصاريع	قضيب مصروع ساقط الى الارض والجمع مصاريع (اللسان ١٠ : ٦٧ والتاج ٥ : ٤١٣).
مصقول مصاقيل	لامية بن الاسكر الكناني : قومي اللذو بعكاظ طيّروا شررًا من روس قومك ضربًا بالمصاقيل جمع مصقول من الصقل وهو جلاء الحديد اراد كل آلة جديدة من السلاح (خزانة الادب ٤ : ٥٠٥).
مصنوع مصانيع	مصانيع جمع مصنوع ومصنوعة كمكسور ومكاسير (اللسان ١٠ : ٧٩٠ والتاج ٥ : ٤٢٣).
مضروب مضاريب	تقول في جمع مضروب مضاريب (اللسان ١٧ : ٣١٢).
مضمون مضامين	في كلام النحاة والمضامين في اللغة ما في بطون الحوامل من كل شيء. كأنهن تضمّنه قال ابو عبيدة : هي ما في اصلاب الفحول وهي جمع مضمون (اللسان ١٧ : ١٢٦ — ١٢٧).

مطبوع مطابع — للصفدي من قصيدة يخاطب بها الطبيب بدر الدين البلبيسي :

انتم اناس مطابيع بمصركم
اهدى الشآم كم من ارضه بقرة

(قطعة خطية من مراسلاته في الحان السواجع)

وفي بغية الوعاة للسيوطي : احد رجال اللغة والعربية المطابيع في اجناس القريض (ترجمة عبدالله بن ابي مالك القيسي الصقلي) وللصفدي ايضاً في ترجمة القاضي محمد بن محمود بن سلمان بن فهد: « جمع من انشاء والده مجاميع وعلق اشياء مطابيع » (اعيان العصر رقم ١٠٩١ دار الكتب المصرية ٧ : ٤).

مطحول مطاحيل — المطحول هو المصاب بداء الطحال وفي اساس البلاغة: اهل البحرين مطاحيل عظام البطون.

مطعوم مطاعيم — في اصطلاح الاطباء المادة التي يطعم بها لاتقاء الامراض .

مطعون مطاعين — من رسالة للقاضي الفاضل للخليفة الناصر: كم انجم تنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين (وفيات الاعيان ٢ : ٥١٩)

مطلوب مطاليب

مطمورة مطامير

مظرور مظارير — وهو الحجر المحدَّد وجمعه مظارير (القاموس ٢ : ٨٠)

معجون معاجين — هو في عرف الاطباء كل دواء مركب مدقوق وفي عيون الانباء : كان الطبيب التميمي

مختصاً بالحسن بن عبدالله بن طغج... وعمل له عدة معاجين (٢ : ٨٧)

معروض معاريض

معروف معاريف — في العقود اللؤلؤية للخزرجي : وصل كتابه الى بعض معاريفه من اهل تعز (٢ : ٢٩٣)

معشوق معاشيق — محمد ابن الشريفة جمع كتاباً في تراجم احرار العشاق. ومراسلات بينه وبين بعض المعاشيق. (الضوء اللامع للسخاوي ٧ : ٢٧٨)

معلوم معاليم — بمعنى الجاري والرزق والراتب عند المولدين قال تاج الدين السبكي في طبقاته الكبرى : غلب على ظني ان نظام الملك اول من رتب في مدرسة نيسابور المعاليم للطلبة فانه لم يصح لي هل كان للمدارس قبله معاليم ام لا (حسن المحاضرة ٢ : ١٥٦) وهو يرد كثيراً في كلام مؤرخي الدول المصرية وكتابها.

منضور مناضير — رجل مغضور من قوم مغاضير اذا كانوا في غضارة من العيش (التاج ٣ : ٤٥٠)

مفروق مفاريق — المفروق من الاقتاب ضد المبسوط (اللسان ٩ : ١٢٩ والتاج ٥ : ١٠٧)

مفضوح مفاضيح — لابن الساعاتي في مدح الملك المعز :

هو المفتر المغني بعادات جوده
تزين وعادات الغوادي مفاضيح
(ديوانه ٢ : ٣٤٢)

مفعول مفاعيل — في كلام النحاة والعروضيين والمولدين.

مفلوج مفاليج — للمصاب بداء الفالج وللقاضي ابي القاسم علي التنوخي في البرد من ابيات :

فنحن منه ولم نخرس ذوو خرس
ونحن منه ولم نفلج مفاليج
(يتيمة الثعالبي طبعة مصر ٣ :٢١٣)

مفلول مفاليل — للوزير ابي عبدالله محمد بن غالب البلنسي الرصافي :
لا ينكر القوم مما في اكفهم
بيض مفاليل او سمر مكاسير
المعجب في تلخيص اخبار المغرب ١٥٧)

مقتول مقاتيل — حملت رؤوس المقاتيل الى السلطان (العقود اللؤلؤية للخزرجي ٢ : ١٥٠)

مقحوط مقاحيط — بلد مقحوط وبلاد مقاحيط (المصباح ٦٥) لم يصبها المطر .

مقدور مقادير — في مجلة المجمع العربي بدمشق : لم ترد كلمة مقدور في اللغة ولم يذكرها صاحب التاج (١٣ : ١٤٤) ولابي العلاء صاعد بن ثابت يخاطب عضد الدولة :

مقصورة مقاصير — اذا صح لي من حسن رأيك لمحة
فليس لمقدور الي سبيل
(نشوار المحاضرة مجلة المجمع ١٣ : ٢٧٢)

مقطوع ومقطوعة مقاطيع — مقاطيع الشعر الابيات المفردة منه قال في لسان العرب سواء كان النصل مركباً في السهم او لم يكن مركباً سُمّي قطعاً لانه مقطوع من الحديد وربما سموه مقطوعاً والجمع مقاطيع(١٠ : ١٥٠) ولاشجع السلمي :
ودوية بين اقطارها مقاطيع ارضين لا تقطع
(الاغاني ١٧ : ٣٧)

مقول مقاويل — في زهر الآداب للحصري : قال عمرو بن سعيد للاخطل : أيسرك ان لك بشعرك شعراً

قال : لا ما يسرني ان لي بقولي مقولًا من مقاويل العرب (بهامش العقد الفريد ٢ : ٢٢١)

مقروف مقاريف — مقروف بمعنى الضامر ولابي نواس من قصيدة في وصف النحل :

قطس الانوف مقاريف مشمرة
خوص العيون بريئات من الداء

مقصوص مقاصيص — عن ابن عباس قال رسول الله : اتخذوا هذا الحمام المقاصيص فانها تلهو عن صبيانكم الشياطين (تاريخ ابن عساكر ١٧ : ٢٢٥)

مكبون ومكبونة مكابين — قال ابو عبيدة : فرس مكبون والانثى مكبونة والجمع المكابين وهو القصير القوائم الرحيب الجوف الشخت العظام (اللسان ١٧ : ٢٣٤)

مكتوب مكاتيب

مكسور ومكسور مكاسير — لابي الشبل البرجمي في رثاء مسرجته :

وكأنها كنتُ نا لبثت ان وردت عسكر المكاسير
(الاغاني ١٣ : ٢٨)

مكفوف مكافيف — للضرير وفي كتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته تعداد المكافيف من الاشراف (٢٢٤—٢٢٥)

ملبوس ملابيس — لابن التبان الاندلسي :

مثل العروس تجلت يوم زينتها
حمراء تُجلى على خضر الملابيس
(ارشاد الاريب ٢ : ٢٩٥)

ملعوب ملاعيب — وردت كثيرًا لتعيين بابات الخفاء والشعوذة والمصارعة والملاكمة .

ملعون ملاعين

ملقوحة ملاقيح	هي الامهات وفي بطونها من الاجنة قال ابو عبيدة : واحدة الملاقيح ملقوحة من قولهم لُقِحت كالمحموم من حُمّ والمجنون من جُنّ (التاج ٢ : ٢١٧)
ملقوط ملاقيط	قال عيسى بن ابان بن صدقة للمنصور العباسي اشترِ قوماً من اليمامة فانهم يربّون الملاقيط (الفهرست طبعة مصر ٢٨٩)
مملوك مماليك	
منحوس مناحيس	يوم منحوس ورجل منحوس من مناحيس (التاج ٤ : ٢٥٥)
مندوحة مناديح	بمعنى السعة والفسحة وفي التاج : جمع المندوحة مناديح (٢ : ٢٣٥) ولابن الساعاتي : ففي الناس الا ان تراهم مشابه وفي الارض الا عن ندامٍ مناديح (ديوانه ٢ : ٣٤٤)
منسوب مناسيب	يقال خط منسوب ذو قاعدة وشعر منسوب اي فيه نسيب وتغزل والجمع مناسيد وانشد شمر : هل في التملل من اسماء من حوب ام في السلام واهداء المناسيب (التاج ١ : ٤٨٤) والمنسوب ما كان معروف النسب من الخيل والطير وذوي الشرف من الرجال قال ابو العلاء : فكم طوى الدهر اقيالًا مناسيبا (اللزوميات ٦١)
منشور مناشير	المنشور ما كان غير مختوم من كتب السلطان والجمع مناشير (التاج ٣ : ٥٦٦)

منصوبة مناصيب: المنصوبة الحيلة ومنه المنصوبة في لعب الشطرنج (التاج ١ : ٤٨٨) قال العماد الاصبهاني :
جرى من مناصيبه على سعد الملك انه حقق في اعتقاد السلطان انه صديقه الصادق (زبدة النصرة ٩١) ولتاج الدين بن الدريهم « ايقاظ المصيب في ما بالشطرنج من المناصيب » (الدرر الكامنة طبعة حيدر اباد ٣ : ١٠٨)

منصوص مناصيص: لابي المحاسن الروياني كتاب مناصيص الامام الشافعي (وفيات الاعيان ١ : ٣٧٤)

منكود مناكيد: نُكد الرجل كعُني فهو منكود (التاج ٢ : ٥١٨) والمتنبي :
لا تشتر العبد الا والعصا معه   ان العبيد لانجاس مناكيد

منكور مناكير: في اللسان (٧ : ٩٢) نكره ينكُره نكرًا فهو منكور والجمع مناكير عن سيبويه (التاج ٣ : ٥٨٤)

منكوس مناكيس: لابن قلاقس :
مالي وما للتواني لا ابرّها   الا واقعد محرومًا ومسمودا
وكم اقوّم منها كل نافذة   واستجيش مناكيسا رعاديدا
(ديوانه ١٣٣ باريس ٣٥)

منكول مناكيل: لابن الجندي الشاعر الحمصي :
فكيف يرجون عهدًا للذين هم
نُجت شحاح مشائيم مناكيل
(مجلة المجمع العربي بدمشق ١٩٣٩ – ١٠ – ٦٥٠)

مهتوك مهاتيك: لابن الفراء :
فحرّك رأسًا الينا وقال دَعوا يامهاتيك هذا الصلف
(نفح الطيب ٢ : ٣٢٦)

مهزول مهازيل: للمصاب بالهزال وفي الأغاني: ما لي ارى بني معدان مهازيل وارى بني سماناً ؟ (٢١ : ١٥)

موصول مواصيل: للقاضي محب الدين ناظر الجيش:

مواصيل المقاطع التي لي لها طرب غريب الاتفاق
(مجلة في التاريخ خزانة اكسفرد marsh. Or. 36f 117

ولسان الدين الخطيب في ديوان الصبابة لابن ابي حجلة:

مقاطيعه مثل المواصيل لم تزل يُشبَّب فيها بالرباب وزينب
(مطالع البدور للغزولي ٢ : ٧٣)

وفي شذرات الذهب: كان متستراً بالخلاعة والنفخ في المواصيل (٨ : ٧٠)

موسومة مواسيم: المواسيم الابل الموسومة (التاج ٩ : ٩٤)

موضوع مواضيع

موعود مواعيد: لابي نواس:

يا حسن المقلتين والجيد وقاتلي منك بالمواعيد
توعدني اليوم ثم تخلفه فيابلائي من خلف موعودي
(اخبار ابي نواس ١٥٣)

مولود مواليد

ميسور مياسير

ميمون ميامين: لابن سيحان بن ارطاة:

ميامين يرضون الكفاية ان رضوا
ويكفون ما دُلّوا بغير تكلف
(الاغاني طبعة الدار ٢ : ٢٤٩)

ولهذه الشواهد نظائر يقف عليها من اراد متابعة الاستقراء. وهي على كثرتها وشيوعها على الالسنة والاقلام كافية لاثبات ان جمع مفعول على مفاعيل ليس بالنادر ولا الشاذ خلافاً لقول النحاة فلا مانع من عدّه قياسياً واقراره كلما دعت الحاجة اليه . .

تاريخ الدول السرياني

تأليف ابي الفرج الملطي (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

بعد الامين المأمون أخوه

تولّى عشرين سنةً ونصف سنة . وارسل فأحضر الى خراسان هرثمة القائد وأمر بقتله بسبب مخالفته للامين . فسخط اصحاب هرثمة وقصدوا الحمّام وفتكوا بالقاتل فاغتاظ المأمون وأمر بشنقهم . امّا ناصر الخارجيّ فحشد القيسيّين وزحف بهم يريد التنوخيّين المخيّمين عند نهر قويق بحلب وقاتلهم عشرة ايام . فخارت قواهم وارتحلوا رجالًا ونساء الى قنسرين ودخل القيسيون والحلبيون ونهبوا خيامهم الواسعة وهي حافلة بالاموال والبضائع . وهكذا تجرّدوا من اموالهم كما سبقوا فتجرّدوا من دياناتهم وخرجوا عراةً حفاةً .

وبعد هذا وصل الظاهر قائد جيوش المأمون في اربعة آلاف من العجم الى الرّقة وطارد الخوارج وضاعف الضرائب اكثر منهم وأساء الى اهالي سروج والرها . ثم انكر على اصحابه روايتهم فأضمروا ان يفتكوا به . فشعر بذلك ووثب من السور وفرّ الى الرّقة . وأحسّ اصحابه عند الصباح فخافوا ان يباغتهم ناصر فانهزموا هم كذلك (١٣٩) ونجا الرهاويون من الضرائب الباهظة . وشدّ ناصر على العجم اصحاب الظاهر وجعل جنوده يقبضون على خمسين فخمسين وعلى مائة فمائة فينحرونهم نحر الخراف . ثم حمل ناصر وعمر على الرها وشدّا الحصار عليها . فتسلّق الاهالي والعجم سور المدينة وجعلوا يقاتلونها وصارت النساء ينقلن الحجار للقتال والمياه لشرب المقاتلين . وانقطع الضعفاء والصغار الى الصلاة . قال البطريرك ديونيسيوس التلمحريّ (٨١٨—٨٤٥) كنت انا واحدًا منهم . فتعطف الربّ الرحيم فأصيب عمر وانهزم الخوارج .

ولما شاهد البغداديون عتوّ الخوارج والمأمون بعيداً عنهم استحضروا عمّه ابرهيم بن المهدي وملّكوه عليهم . فثار ثائر الحسن قائد جيش المأمون وكان يومئذٍ في الكرفة بسبب فتنة حدثت هناك وهمَّ ان يوقع بالبغداديين . اما الظاهر وكان في الرقة فاستمال الخوارج بالعطاء وولّى بعضهم على البلاد فاقام ابرهيم القرشيّ على حرّان . وبينما كان يتنزه يوماً في قصره شاهد ابنيةً حديثة واستفسر العرب عنها فقالوا انها كنائس للنصارى وقد شيدوها في عهدك مما حمل المسلمين على الارتياب في أمرك . فسخط ابرهيم وأصدر الامر بتقويض الكنائس الجديدة . فقوّضوا قبل غروب الشمس مذبح كنيستنا الكبرى في حرّان وكنيسة والدة الله في توبا وبعض كنيسة مار جرجس وجانباً من كنائس الخلقيدونيين (الملكيين) والنساطرة واليهود . وفي تلك الليلة عينها أرّق ابرهيم وازعجه الله تعالى في منامه ولما اصبح استدعى المسيحيين وأمرهم ان يبنوا ما هُدم فابتنوا في ايّام يسيرة كلّ ما خرب .

ثم رخّص ابرهيم المذكور للحرانيين الصابئة ان يحتفلوا بأسرارهم علانيةً فاطأنوا ودبّجوا ثوراً بحلل ثمينة وتوّجوه بالزهور وعلّقوا جلاجل في قرنيه وطافوا به في الازقّة بالاهازيج وآلات الطرب ثم قرّبوه ضحية لآلهتهم . وهذا ابرهيم وَلّى عبد العلا على الرها وشدّد على الاهالي بالضرائب . ولما (١٤٠) تظلّم اليه الرهاويّون ممّا يحتاونه ممن استباحوا بيوتهم قال لهم : انكم تمتعتم بهذه الارض في عهد الروم يوم كان آباؤنا تائهين في براري قفراء يرعون الجمال ويكابدون برد الشتاء وحرّ الصيف . فالان وقد ملكنا هذه الارض فعلامَ تستصعبون تسليمها الينا ؟ هكذا خرج الرهاويون مكتئبين مأيوسين .

وابتنى الظاهر سوراً ما بين الرّقة والرافقة وتحصن فيه وانقطع الى المطالعة والتفسير والتحدّث مع الفلاسفة .

وفي السنة ١٠٣٠ لليونان (٨١٩م) ارتحل المأمون من خراسان الى بغداد فانهزم ابرهيم عمّه واختفى واتفق البغداديون مع المأمون . وفي السنة ١٠٣٢ لليونان (٨٢١ م) وجّه المأمون الى خراسان الظاهر ليتولى شؤونها ورقّى ابنه عبدالله وولّاه منصب والده . اما ناصر الخارجي فاستجمع قواه واشترى قلعة

بالس وزحف في جنوده الى نهر هاني بجانب الرقة وفتك بعيسى وبالسوقة اصحابه جميعاً وغزا القرى وسبى اهلها . فوجّه اليه المأمون شبيباً القائد الكبير في سبعة آلاف اعجميّ من المتازين فـالتقوا بناصر وهزموا اصحابه العرب وطفقوا ينهبون حوانيت المساكين يأكلون ويشربون متفاخرين كأنهم تغلبوا على ناصر. غـير ان ناصرًا اندلف على العجم وكسرهم . وارتحل شبيب ليلًا الى نواحي انطاكية مذعورًا فتتبّعه ناصر وقبض على ثلاثة آلاف من العجم تقريباً . وفرّ شبيب مع شرذمة الى بغداد .

ثم توجه ناصر الى قرى نهر الساجور بجانب منبج واختفى هناك مترصّدًا. ولمّا خرج الاهالي كلٌّ الى شغله حمل عليهم وبطش بالرجال والنساء . وسارع جمهور من الفلّاحين والمساكين الى دير بوريم فسار ناصر والقى عليهم النيران وأحرق بعضهم والقى البعض الآخر بانفسهم فسقطوا وتحطموا فانقضّ عليهم وفلق رؤوسهم وحملها الى سروج . ولما بلغ المأمون ذلك انفذ عبدالله (١٤١) ابن الطاهر في عشرين الفاً فوصل الى بالس وحصرها حصاراً عنيفاً وثغر سورها ودخل فقبض عـلى الخوارج اصحاب ناصر واوثقهم بالسلاسل وأرسلهم الى بغداد . وكان ناصر وقتئذٍ في أطراف سروج يفتك بالنصارى والعجم معاً .

وفي السنة ١١٣٣ لليونان (٨٢٢ م) استفحل امر لاون ملك الروم وفتك بعدد غفير من الأعيان ونوى الروم ان يقتلوه وينادون بميخائيل قائد الجيوش ملكاً فشعر لاون وارسل فقبض على ميخائيل وأضمر ان يصلبه يوم جمعة الآلام العظيمة . غير ان امرأته توسلت اليه ان يُعرض عن قتله في ذلك اليوم . على ان ميخائيل وجّـه يقول للاقطاب انقذوني والّا اذعتُ انكم شركائي في المكيدة . فلم يَرَوا الا ان يباغتوا الملك وهو يصلي في المذبح فشدّوا عليـه وفتكوا به وانقلبوا فأخرجوا ميخائيل وتوّجوه ملكاً .

وفي السنة الرابعة للملك ميخائيل توفيت تقلا امرأته فبعث فأخرج من الدير حفيدة قسطنطين الملك وتزوّجها وولدت له ابناً . فحملتها النخوة والغيرة وهي حفيدة ايريني الملكة واستفظعت تربية ابن والده متسلسل من نسل يهودي فاحتالت وقتلت الطفل . على ان جدّ ميخائيل الملك كان يهودياً ثم تنصّر واعتمد .

وفي تلك الاثناء أرسل المأمون فاستدعى توما الذي ادّعى انه ابن الملك قسطنطين ووجّهه في جيش الى قسطنطينية فانتهى اليها وظلّ يحاصرها ستة اشهر . فتضايق ميخائيل الملك وعاهد الأسرى العرب بارجاعهم الى وطنهم ان قاتلوا توما . عند ذلك اتفق الروم والعرب معاً ونازلوا اصحاب توما وهزموه الى احدى القلاع وتتبعوه حتى قبضوا عليه وقطعوا يديه ورجليه وعلّقوه في رمح . اما ميخائيل فقد نكث المعاهدة ولم يطلق الأسرى العرب .

وفي تشرين السنة ١١٣٥ لليونان (٨٢٤ م) حاصر ابن الطاهر مدينة الكيسوم واقام ابراجاً يطرحون منها الحجار يزن كلّ حجر حمل حمار . وكان للكيسوم وشورا خمسة اسوار . ثم أمر ناصر النساء المسيحيات ان ينتقلن الى السور (١٤٢) في اطفالهنّ ويبكين ويتوسّلن ان لا يُرجمن بالحجار. فتعطف ابن الطاهر ونهى عن القاء الحجار ضمن المدينة والاقتصار على ضرب السور لا غير . وحين ذاك فتح ناصر باب المدينة وبعث بنيه الثلاثة في مائتي حمل سميذ وثلاثمائة حمل شعير وخمسمائة خروف وعشرة براذين وعشرة عبيد وثلاث سراري وثلاثة خصيان الى ابن الطاهر مصرّحاً له بانه يتوجّه اليه وقت الغداة . فأمر ابن الطاهر ان يذهب الفتيان الى اهاليهم ليطمئن بالهم ثم اقبل ناصر وترجّل عن بُعد ثم وصل الى ابن الطاهر وسجد له وقبّل رجله ويده . ونزل ابن الطاهر عن حصانه وجلسا كلاهما يتحدثان سرًّا . وبعد هذا امر ابن الطاهر ناصرًا ان ينهض ويدخل المدينة وقرّر ناصر ان يواجه ابن الطاهر في الرقة بعد عشرين يوماً . فصدّقه ابن الطاهر السلامة طويّته وسار الى سميساط مستصحباً منصور بن ناصر وقبض هناك على الخارجيّ . امّا ناصر فاشتغل ببناء السور وترميمه ثم ارسل الى ابن الطاهر يقول : اني مستعد لمناوشتك . اما ابني منصور فلا تقتصر على حبسه في بغداد بل اشوه بالنار وكُلْهُ .

حينئذٍ زحف ابن الطاهر الى الكيسوم وشدّد الحصار عليها ونهى ناصر الاهالي عن البكاء على القتلى . ولما دارت رحى الحرب وانثلم السور الخارجي أصعد ناصر النساء النصرانيات ثانية الى السور حاملات اطفالهنّ ينتحبن . فأشفق عليهن ابن الطاهر واوقف الحرب. واشتغل الجند ببناء البيوت لسكناهم

في الشتاء . وتفاقم الجوع في المدينة حتى بيع راس الحمار بعشرة دراهم . فتضايق ناصر وخرج وحده يريد ابن الظاهر فرحله ابن الظاهر مع اصحابه الى بغداد راكبين البغال . وانتهى امر الخوارج في شهر اذار سنة ١١٣٦ لليونان (٨٢٥ م).

وفي هذه السنة ركب السفن زهاء ثلاثين الفاً من اهالي البصرة يريدون بلد البحرين لان اهاليه تعوّدوا سلب السفن القادمة (١٤٣) من الهند والصين والعجم . غير انهم ما كادوا يصلون حتى غرقوا في اعماق الماء لجهلهم المضايق . وخرج اهالي البحرين في قواربهم واغرقوا جميع اولئك البصريين .

وطرح المأمون يومئذٍ في السجن اربعة زعماء قرشيين اضمروا الانتقاض عليه . فأسرَ اولئك الزعماء الى بعض الناس بالقاء النيران في سوق الكرخ والفتك بالخليفة عندما يخرج ليشاهد الحريق . وما ان اطّلع الخليفة على المكيدة حتى ارسل في قتل اولئك القرشيين ليلاً وتعليق جثثهم عند الصباح على الاخشاب . وقبض المامون كذلك على ابرهيم عمه وعفا عنه احتراماً لشيخوخته . وكان ابرهيم قد تلقن الضرب على العود وكان يبتاع فتياناً وفتيات ويبيعهم ويتعيش .

وظهر في تلك الغضون في مصر ساري وجاوري الخارجيّان وجمعا ذهباً كالحجار . وعلى اثر وفاتها تقلّد عُبَيد بن ساري ولاية دمياط والناحية الجنوبية وتولى احمد بن جاوري الناحية الشمالية . وفي السنة ١١٣٧ لليونان (٨٢٦ م) وصل ابن الظاهر الى العريش وخرج الى لقائه احمد المذكور وطلب الأمان وصيانة اموال ابيه جاوري . وكان جاوري عندما حضرته الوفاة يقول : اني اخجل من الارض بسبب ما اتركه فيها من الذهب الوافر . اما عُبيد فانتقض على ابن الظاهر لان جيشه كان ثمانين الفاً . فزحف ابن الظاهر الى الفسطاط في نيسان وحاصرها ومنع دخول الميرة اليها برّاً وبحرًا . فلم يرَ عُبيد الا ان يطلب الأمان حرصاً على حياته وعلى امواله وقصد ابن الظاهر وتصافيا واكلا وشربا معاً .

وفي السنة ١١٣٨ لليونان (٨٢٧ م) اغار ابن الظاهر على الاسكندرية وكان الاندلسيّون قد احتلوها وابعدوا النصارى واليهود عن بيوتهم واستقروا

هم فيها . فضايقهم ابن الظاهر تسعة شهور قتلاً وجوعاً حتى أخضعهم وارسل خمسين منهم في اهلهم الى الرقة وسرّح البقية الى بلادهم . واحتلّ كذلك افريقية واستعمل عليها زعيمين من خيرة رجالها .

وفي السنة ١١٤٠ لليونان (٨٢٩ م) توفي ميخائيل ملك الروم وخلفه ابنه ثئوفيل وكان ابوه (١٤٤) قد توّجهُ ملكاً قبل وفاته ولم يلبس التاج بعد وفاة تقلا امرأتهِ واقترانه بالمرأة الثانية ولم يجلس على تخت المملكة . لانه لا يحقّ لمن يتزوّج ثانيةً ان يتقلد المملكة عند الروم . ولما توفي ميخائيل عادت امرأته الثانية الى ديرها وقصّت شعرها وانقطعت الى العبادة .

وفي هذا الزمان انتقض بعض الاكراد المسلمين على العرب زاعمين أن قد ظهر المهديّ ملكهم الذي كانوا ينتظرونه . وكان المهدي المذكور يُلقي برقعاً على وجهه ويدعو نفسه مسيحاً وروح قدس . فاجتمع اليه جماهير غفيرة وتحصن في جبال كردستان . فبال المأمون امره وسيّر اليه الحسن قائد الجنود وحصره في طور عبدين وهو ينهب دير قرتمين وتغلب على الاكراد اصحابه . وانهزم المهدي الى بلد اسحق بن آحود الارمنيّ . فقبض عليه اسحق وفلق رأسه . فاحتشد الاكراد ثانيةً ونازلوا قلعة اسحق وكان اسحق متغيباً . فهلع الذين في القلعة . وان راهباً كان شقيق امرأة اسحق لما رأى الاكراد اوشكوا ان يدخلوا القلعة اخترط مزراقاً ورمى بنفسه من القلعة وسارع الى زعيم الاكراد وطعنه واهلكه وانقلب الى القلعة غانماً سالماً . وظلّ الذين في القلعة يبكون طول الليل مبتهلين الى الله القدير في نجاتهم وألقت امرأة اسحق العفيفة رضيعها امام الربّ وظلّا يبكيان معاً الليل كله حتى الصباح . وعند ذاك وافى اسحق في أبطاله فهلع الاكراد ولاذوا بالفرار . لكن الثلوج المتراكمة اعاقتهم ففتك اسحق بأغلبهم وافلتت شرذمة اقامت لها زعيماً يقال له هرون فتك بـه عليّ وخلفه بابك راعي البقر . وانهزم سائر الاكراد ولاذوا بثئوفيل ملك الروم الذي اخضع البلغار كذلك وحشد الجنود وزحف الى زبطرا وحاصرها وفتحها وقتل رجالها وسبى نساءها وفتيانها واضرم النيران فيها وكرّ راجعاً . وبعد هذا عاد العرب فجدّدوا بناءها .

وبعد سنة انتقض منونيل(١٤٥) البطريق على الملك تنوفيل وقصد المأمون وحضه على الزحف الى بلاد الروم . فارتحل المأمون في حزيران الى قبدوقية واحتلّ اربع قلاع . وفي ايار ١١٤٢ لليونان (٨٣١ م) سار الى قلعة لولوة فامتنعت عليه ثم سلمها الاهالي الى عجيف بسبب قلة الزاد . اما عمنوئيل البطريق فترك العرب وعاد الى تنوفيل الملك فسخط المأمون وأقسم انه سيزحف ويسحق الروم . فخاف تنوفيل لما سمع ذلك وارسل الى المأمون في الصلح مقرّرًا انه يؤدي له ضريبةً . فكتب اليه المأمون : اني مبرم الصلح بشرط ان تنادوا بي ملكاً عليكم . اما الضريبة كثيرة ام قليلة فلست اعارضكم فيها فهلع تنوفيل وأطرق صامتاً ولم يكتب جواباً الى المأمون .

وارتحل المأمون الى قيليقية وزاره هناك رجلٌ مشعوذ يدّعي انه من ذرّية ملكية . فرحّب به المأمون وأمر ايوبَ بطريرك الخلقيدونيين (الملكيين) فصلّى عليه واقامه ملكاً وعقد له تاجاً . واقام المشعوذ سنتين في معسكر العرب ولم يأتِ احد الى زيارته . فجاهر حينئذٍ بالاسلام على يد ابي اسحق ابن المأمون . اما ايوب البطريرك الذي توّجهُ ملكاً فقد التأم الاساقفة وحرموه .

وفي السنة ١١٤٣ لليونان (٨٣٢ م) سار المأمون الى مصر يصحبه البطريرك ديونيسيوس (التلمحري اليعقوبي) . وكان نهر النيل قد جمد يومئذٍ بما لم يُسمع له مثيل . وفي شهر ايار دخل المأمون بلاد الروم مع ابنيه المعتصم والعبّاس وجمع هناك عَمَلَةً لبنيان مدينة تطوان التي اخربها العرب وما عتم ان وعك المأمون وتوفي هناك يوم الاربعاء ثامن الشهر السابع (رجب) في السنة ٢١٨ للهجرة (٨٣٣ م) ودُفن في طرسوس بقيليقية .

بعد المأمون المعتصم ابنه

تولّى ثماني سنوات وثمانية شهور . على اثر وفاة المأمون حدث خلاف بين العرب ثلاثة ايام فيمن يتولّى الخلافة . ولما كانوا مجتمعين أزيح سجاف الباب ودخل العباس وقال : ان الخلافة هي للمعتصم (١٤٦) فادعوا في حراسة حياته . فساد الهدوء ما بينهم . وأضرم المعتصم النيران في ما ابتناه المأمون في تطوان

واحرق المواد والمؤونة وقفل الى بغداد ورحب به الاعيان وهم غير راضين عنه بسبب فظاظته . ولما استقر في الخلافة جعل يشيد أبنية فخمة لسكناه واقنية وحدائق لنزهاته وكان منهمكاً في الخلاعة معاقراً الخمرة .

وكان الزط وهم لصوص يطوفون بحيرات يصب فيها الفرات ودجلة ولا يستطيع الجنود ان يقاتلوهم لانهم كانوا يحاربونهم وهم في قواربهم . فاشار المعتصم الى الأسرى الاقباط المتعودين السباحة كالاسماك لكي يباغتوا اولئك الزط ويقاتلوهم بالمزاريق ويبعجوهم فالتف المصريون الاقباط عليهم وأمسكوهم وامسكوا اهاليهم وانقضى امرهم في سجن بغداد .

وظهر يومئذ في بحر البحرين حوت ضخم طوله نحو ميل أزعج البحر ثلاثة اشهر وتعذر على السباحين في طلب اللآلئ استئناف مهنتهم . وحين ذاك ارسل الله عز وجل سمكة صغيرة خشت في اذن ذلك الحوت الكبير وفتكت به . ثم جرفته الامواج الى البر . غير ان لحمه لم تكن تنضجه النار فجعل الاهالي ينشفونه في الشمس ويدقونه ويأكلونه .

وأحضروا في تلك الغضون الى عبدالله بن الطاهر امير خراسان صبياً ولدته امه خلاف الطبيعة كاملاً بالغاً قد الرجال وقد نبت شارباه ولحيته .

وفي السنة ١١٤٦ لليونان (٨٣٥م) فاض نهر زبطرا ليلاً ودك سورها وجرف دورها واختنق ضمنها ثلاثة آلاف نسمة . وحدث كذلك فيضان في دجلة فأخرب بعض الدور في بغداد .

وفي تلك السنة صدر امر الى المسلمين فقوضوا صباح احد القيامة كنيسة مار جرجس في قوبا وكنيسة آحود امه مدعين ان النصارى ابتنوهما حديثاً . وزحف عمر صاحب ملطية الى بلاد الروم فلاقاه تئوفيل الملك وتغلب عليه في اول الأمر ثم تشدد العرب وهزموا الروم وقصدوا معسكر الملك ونهبوا (١٤٧) فراشه وامتعته .

وفي السنة ١١٤٧ لليونان (٨٣٦ م) كتب المعتصم الى ملك النوبة يطالبه بتأدية الأتاوى كالعادة القديمة والا فيوجه اليه الجيوش . وكان ملك النوبة حين وصل السفير قد توفي وخلفه فتى اسمه جورجي تتحدر امه من السلالة

الملكية وكان ابوه زكريا وصياً على المملكة وعرف ان العرب أقوياء فقال للسفير: اننا عارفون بما يترتب علينا ان نؤديه كل سنة وهو ٣٦٠عبداً عملة. وقردة تثقف وتتعلم لتحاكي البشر في سيرها. وزرافات وعاج وجلود نمورة. غير ان ملوك العرب يجب عليهم كذلك ان يؤدوا لنا كذا وكذا من الحنطة والثياب الفاخرة وان نقيم جباة يجمعون لنا الجزية من اهالي النوبة المقيمين في بلاد العرب. فلما ألغى العرب العادة الغيناها نحن كذلك. ومع هذا كله فبما اننا مطلعون على مروءة ملككم ونبالة عنصره. فلسنا نكتفي بالتحدث معه بوساطة سفيره لكننا قررنا ان يتوجه ملكنا الجديد بذاته ليقوم بزيارته. فكتب السفير الى المعتصم في ذلك فكتب له الجواب بان يتسهل ريثما يسافر الملك وامر العمال في مصر ان يخرجوا الى لقائه الى سيواني مدينة الحدود واذا وصل الى الفسطاط يُعدّون له من النوق ما يكفي لحاشيته ويؤدون له كل يوم ثلاثين ديناراً لنفقته.

بناء عليه غادر جورجي وطنه وطاف بلاد العرب ممتطياً ناقة مسرجة تظللها قبة مجللة بوشاح قرمزي يعلوها صليب ذهبي وبيده صولجان والى يمينه ويساره يسير فتيان من اهالي مملكته ويتقدمه اسقف راكباً وبيده راية الصليب الخلاصي والفوارس والعبيد يحفون به ممتطين الخيل. ولما وصل جورجي الى بغداد طاف في شوارعها وحلّ في قصر ملكي أُعدّ له.

وانّ رجلاً من النوبة كان مكلفاً جباية الجزية من أبناء وطنه المقيمين في بلاد العرب تحامل على جورجي الملك وافترى عليه مدّعياً بانه ليس ملكاً لكنه دخيل مكّار (١٤٨) بناء عليه تغاضى المعتصم عن مقابلته منذ شباط حتى آب ريثما كتب الى مصر مستفسراً. ولما استيقن ان الجابي المذكور ادّعى ما ادّعى كذباً وافتراء وان جورجي هو هو ملك النوبة حقيقة أرسل يدعوه اليه وأمر الجنود ان يخرجوا الى لقائه. وما ان وصل الى البلاط حتى رحّب به المعتصم اجمل ترحيب وأجلسه امامه واسنى له العطاء ثم اعاده الى وطنه بمظاهر الاجلال.

وذكر ديونيسيوس التلمحري البطريرك يقول: كنتُ يومئذٍ في بغداد

وقابلت المعتصم في المدينة الجديدة التي شيدها ما بين دجلة والفرات ثم بعث الى سليمان طبيبه بان اذهب لازور جورجي الملك . فذهبت في فريق من الاساقفة والمؤمنين ورأيته فتى نجيباً ذكياً مناهزاً العشرين من سنه . وافادني بواسطة ترجمان عن صحة عقيدته وعن اشمئزازه مخالطة الاراتقة . ويوم الاحد احتفلت بالقداس وناولته القربان الاقدس وناولت حاشيته كذلك . وكان معهم آنية التقديس وامتعة الأسرار . .

سبقنا فذكرنا بابك الخوارزمي الذي انتقض على العرب في فارس وفتك بربوات منهم . ففي هذا الزمان خارت قواه وانهزم ناصر قائد جيشه في كثيرين من اصحابه يريد تئوفيل الملك وانضوا جميعاً الى النصرانية .

وفي السنة ١١٤٨ لليونان (٨٣٧م) زحف تئوفيل تكراراً الى زبطرا وحارب العرب والنصارى واليهود معاً حرباً عواناً . ومرّ ببلد ملطية فسباه وأحرقه . وانطلق الى سميساط وحاصرها فاحتشد آل ربيعة العرب واهالي ملطية واغاروا على الروم فانكسروا وخسروا اربعة آلاف قتيل . وانقلب تئوفيل ثانية الى ملطية يتهدد اهاليها ان يخضعوا او يعاملهم معاملته لاهالي زبطرا . فخرج اليه الوالي والزعماء في العطايا وردّوا له جميع الذين سبقوا فاجلوهم واسروهم من الروم فاحتوى على ذلك كله وانصرف .

اما بابك الخوارزمي السابق ذكره فلما وهنت عزائمه حمل امواله وانهزم في اربعمائة من رجاله الى نواحي بلاد الروم . وببلوغه الى ارمينية احتال عليه اسطفان البطريق ومضى به الى بيته (١٤٩) على سبيل المجاملة واوثقه بالقيود . وسمع المعتصم فوجه الافشين قائد عسكره في هدايا الى اسطفان وقبض على بابك وقتله . وكان بابك قد أفنى اكثر من مائة الف من الجيش العربي .

وفي السنة ١١٤٩ لليونان (٨٣٨ م) زحف المعتصم في عشرين الفاً الى بلد الروم متوجهاً من ثغر طرسوس . وسيّر الافشين في ثلاثين الفاً من الناحية الاخرى . ولما وصل المعتصم الى نيقية الفاها خاوية فقوّض اسوارها واستأنف الزحف الى انقرة ودكّ سورها ولم يجد فيها نافخ نار اذ كان اهاليها قاطبة قد انهزموا الى مدينة عمورية الكبرى .

وعند ذلك شد تئوفيل الملك على الافشين واهلك نحو ثلاثة آلاف من العرب . وأحدر الله سبحانه حين ذاك وابلًا من الامطار فانفصل تئوفيل مع الفي رجل الى جهة اخرى وغلب على ظنّ سائر الروم انه قد قُتل فانهزموا الى قسطنطينية . ولما انقطع المطر وصفا الجوّ أحدق جنود الافشين الكثيرون بالالفين الذين مع تئوفيل ولم يناوشوهم حتى استحضروا المنجنيقات يريدون رجمهم . عند ذلك ثار الروم ثورتهم يَقتلون ويُقتلون وشقوا صفوف العرب وأفلتوا وقد ادركهم الليل فاضرموا النيران حول عسكرهم وارتحلوا دون تريث الى عمورية . وعند ذاك اقبل رسول بعثته والدة تئوفيل تقول له : ان الروم الذين وصلوا الى العاصمة اخبروا انك قُتلت وهم يحاولون اقامة ملك جديد فعجّل في الرجوع . فبث تئوفيل في قلوب الجيش روح الحماسة والنخوة وأمر باغلاق ابواب عمورية وتركها كأنها على قابي قوس وعاد الى قسطنطينية وفتك بالزعماء الذين حاولوا ان ينصبوا ملكًا بدلًا منه .

اما المعتصم فقد ندم لانه لم يستفد من هجومه وقال : اننا اسأنا بدخولنا الى هينا ونوى العودة الى بلاده . لكن احمد حاجبه قال له : لا يجدر بتلك نظيرك ان يعود مكسورًا وها هي عمورية قريبة منا فلنزحف اليها ونحتلها . قال هذا وشدّ العرب على المدينة وصوّبوا(١٥٠) المتاريس اليها وطفق البرّانيون يقذفون الحجار على الجوّانيين . وكان الجوّانيون يسحقون كل من يُدنو من السور بحجار ضخمة يقتلعونها من السور عينه . ولم يستفد الذين كانوا يحفرون الحفائر تحت السور بآلات ملبّسة جنودًا . وهكذا هلك من الجهتين مدة ثلاثة ايام الوف من المقاتلين . واتفق ان البرّانيين لحوا مكانًا في السور متخلخلًا متقلقلًا فصوّبوا نحوه المنجنيقات وثغروه في مدة يومين . واحتشد المحاربون الجوّانيون على تلك الثغرة واتلفوا فيها قتلى كثيرين من البرّانيين ولم يمكّنوهم من الدخول .

وبعث الروم يسألون المعتصم ان يخرجوا اليه فأذن لهم . فسار اليه الاسقف وثلاثة من الزعماء وطلبوا ان يَدَعهم يُخلون المدينة ويغادرونها فلم يرضَ بل تشدّد وتصلّب نظرًا الى كثرة مَن قُتل من عسكره . ولما عاد الوفد الى

المدينة انقلب بودين الزعيم الى المعتصم وطلب الامان لاصحابه على ان يسلمه المدينة دون تكلف. فأدّى له المعتصم عشرة آلاف دينار قبضها وانقلب وجعل يبث الفشل في قلوب المحاربين ويقول لهم : كفاكم تقتلون العرب في الثغرة فانكم مغلوبون لا محالة . فالأجدر ان تكفوا عن القتال فلعلهم يشفقون .
وما عتم ان دخل العرب المدينة وقبضوا على آطيس البطريق وعلى الوالي وعلى بودين ذاته الذي أسلمهم المدينة . وجعلوا يكومون القتلى اكواماً اكواماً . وصدر الأمر بالعدول عن القتال والاقتصار على السبي ونهب المدينة بعدئذٍ واضرامها بالنيران .

ولقد كانت عمورية حافلةً بالكنائس والديورة . وسبى العرب منها الفاً من العذارى سوى من قتلوا منهنّ . ولما جمعوا المأسورين وشاهد المعتصم كثرتهم أمر بقتل اربعة آلاف منهم . ثم نشم الجنود يخطفون البنين والبنات من امهاتهم فارتفعت اصوات البكاء والنحيب وتأثر الخليفة ونهض ساخطاً وركب وقتل بيده ثلاثةً من اولئك الخاطفين . ثم جمعوا المأسورين وأعطى الخليفة بعضهم للضبّاط وبعضهم للاتراك وباع البعض من التجّار دون تمييز بين البنين والآباء .
وقد دهش العرب (١٥١) اكثر من الروم بتلك الملحمة وما جرّته تلك الثغرة من الخراب والدمار . وكانوا يقولون : قد كُتب في اساطير الروم ان دولتهم ينقضي امرها عندما تُجتاح عمورية !

ولما كان المعتصم منصرفاً الى محاربة عمورية كان اخوه العباس بن المأمون والقائد عُجيف يكيدان له ليوديا بحياته . فاطّلع المعتصم على المكيدة بوساطة كاتب نسطوريّ طبيب . فأوثقهما واركبهما جملين وارتحل من عمورية . وتوفي العباس في سروج عطشاً . وكتب المعتصم الى البلاد ليلعنوه لانه حاول ان يسلّم معسكر العرب باجمعه الى الروم .

ولما اطّلع تئوفيل على ما فعله العرب في عمورية جعل يلوم نفسه لانه هو كان السبب في ذاك مذ اخرب زبطرا . فأوفد الى المعتصم مع باسيل بطريق كرشنة تحفاً وهدايا ورسالة حبيّة وسأله ان يطلق أطيس البطريق المأسور عنده فيطلق هو كذلك الأسرى العرب . وكتب رسالةً ثانيةً ضمّنها قدحاً وتهديداً

وأمر باسيل ان يدفعها الى المعتصم اذا أبى عقد الصلح والموادعة . ولما طالع المعتصم الرسالة الاولى فرض على الروم ان يسلموا اليه ما عدا جميع الاسرى العرب ناصرًا الكرديّ وعمنوئيل البطريق الذي كان عند العرب وانهزم. فقال له باسيل : ان ذلك لمن المستحيل. فقال المعتصم : اذن تهيأوا للحرب. عندئذ دفع له باسيل الرسالة الثانية فقرأها واحتدم غيظًا وردَّ الهدايا الى باسيل مندوب الملك تئوفيل . ثم توجّه الى ابي سعيد ليكمن في جهة والى الامير بشير واهالي المصيصة ليكمنوا في جهة اخرى . ولما كان بشير منهمكًا في السبي باغته ناصر والأكراد واسترجعوا الغنائم . ووصل اذ ذاك ابو سعيد فتقوَّى العرب وفتكوا بناصر وبكثيرين من رجاله الاكراد وجمعوا جماجم جثثهم وملّحوها ونقلوها الى المصيصة وخرجت النساء ليستقبلن رجالهنّ ظانّات انهم راجعون ظافرين ويتفرّجن على جماجم الاكراد : ولَشدَّ ما تألمن وتوجّعن وقتما عرفن ان اغلب تلك الجماجم هي جماجم ازواجهنَّ . على ان اولئك الاكراد قبل اندحارهم فتكوا بكثيرين من العرب (١٥٢). ولقد ابتهج المعتصم بقتل ناصر فطوّق جيد بشير بقلادة ذهبية .

وفي ٦ نيسان ١١٥١ لليونان (٨٤٠ م) ظهرت في الشمال علامةٌ حمراء وهطلت الامطار مدرارًا وحدث فيضان أخرب حرّان . وحدثت في حزيران زلزلة عنيفة في ارضروم وسقط من سورها ثمانية عشر برجًا ومات زُهاء مائتي نسمة . وفي تموز سقطت نيران على بغداد والبصرة في يوم واحد وفي ساعة واحدة . والتهمت في بغداد خمسة آلاف حانوت ونيفًا . وتقوّضت في اليوم عينه مدينة في خراسان وأمست تلًا من تراب وهلك سكّانها قاطبةً وبعد يوم انفلق جانبٌ من ذلك التلّ وخرج منه رجلٌ واحد وحمارٌ لا غير . وفي ١٤ ايلول ظهر شكل سحابة في المشرق سارت نحو الشمال والمغرب . وكان جانبها الأعلى أحمر كالدم وجانبها الاسفل كالقمر . واضاء النور طول الليل على جميع الاجسام والجدران والاسوار والدور .

وفي هذا الزمان وصل الروم في البحر الى مرفأ انطاكية ونهبوا التجّار وأجلوا الاهالي وأمر المعتصم ببناء قلعة ضمن المرفأ

وفي السنة ١١٥٢ لليونان(٨٤١ م) زحف ابو سعيد الى بلاد الروم وغزاها. وفيما كان خارجاً صادفه الروم في قيليقية واسترجعوا الغنائم. وكرَّر ابو سعيد زحفه وانقلب مايوساً. وسار الروم الى الحدث ومرعش وبلد ملطية وغزوها.

وفي تلك الاثناء ارسل تئوفيل الهدايا الى المعتصم يسأله مبادلة الاسرى. فتقبل المعتصم الهدايا وقابله بضعفها. وكتب اليه: ان شرعنا لا يسوّغ لنا ان نعادل المسلم بالروميّ. ولكن ان مننتَ عليَّ بالعرب دون ان تطلب بدلًا ففي وسعنا ان نقابلَ ذلك باضعاف ونفوقكم في كلّ شيء. ثم ردّ سفراء الروم في خمسين جملا موسّقةً هدايا فاخرة وصارا الى الصلح والموادعة.

وفي السنة ١١٥٣ لليونان (٨٤٢ م) انتقض في فلسطين رجلٌ اسمه تميم وكنيتُهُ أبو حرب. وانضمّ اليه ثلاثون ألفاً من الجياع والعراة (١٥٣). وكان يحجب وجهه بمنديل ويتظاهر بانه يغار على شريعةٍ ذهبت حرمتها. وجعل ينهب ويقتل هو كذلك وسار الى اورشليم وحاول ان يحرق الكنائس. فأدّى له البطريرك ذهباً كثيرًا ورحّله. ثم ثار عليه راجا القائد وفتك بثمانية آلاف من رجاله. وقبض على الفٍ منهم وعلى ابي حربٍ نفسه وهو مصاب بضربة وارسلهم جميعاً الى المعتصم.

وفي تلك الاثناء انتقض موسى زعيم الاكراد في كردستان فسار اليه العجم في الشتاء. فأهلك الاكراد منهم نحو خمسة عشر الفاً. وكان الاكراد متقلّبين في خيامهم متعافين اما العجم فكانت أجسامهم تتقبض لشدة البرد وتتناثر اصابعهم.

وفي هذا الزمان حدث غلاء فظيع وطاعون فتّاك وضيق شديد بسبب ثقل الضرائب واستفحال امر الخوارج حتى ان اهالي دارا ونصيبين وآمد خرجوا من وطنهم منهوبين وانقضّ عليهم العجم وفتكوا بهم واشفقوا على النصارى ونجا بسببهم كثيرون من العرب تظاهروا بالنصرانية وهم يصنعون اشارة الصليب.

وفي السنة ١١٥٤ لليونان (٨٤٣ م) توفي المعتصم وأعتق بموته ثمانية آلاف من العبيد اشتراهم. وخلّف اربعين الفاً من الخيل للركوب. وعشرين الف بغل لحمل الاثقال وثلاثين الفاً من ساسة الدوابّ. وتوفي في تلك الايام كذلك تئوفيل ملك الروم.

بعد المعتصم الواثق ابنه

تولّى خمس سنوات وتسعة شهور . وضيّق على الفقراء وأنزل بهم اعذبة فادحةً واستنزف منهم ريوات جمة من الدنانير . وفي السنة الاولى لخلافته وهي السنة ١١٥٥ لليونان (٨٤٤ م) تولى مملكة الروم ميخائيل بن تئوفيل وهو في السنّ الثالثة وكانت تئودورا أمه تسوس المملكة والقائد عمنوئيل متولياً أمر الجنود . وبعث الروم الى العرب في شأن الصلح والمبادلة بالاسرى . ولما وصل سفيرهم رحّب به الخليفة الواثق اجمل ترحيب ولم يفرط في الكلام كأبيه الذي قال : اننا لن نرضى ان يتوازى النصارى والعرب في مبادلة الاسرى (١٥٤١) لكنه رضي بتبادل الواحد بالواحد . غير ان سفير الروم أبى في اوّل الامر مصرحاً بان الأسرى العرب هم ضباط باجمعهم وقد استؤسروا في الحرب . اما الأسرى النصارى عند العرب فاغلبهم فلاحون غنموهم من القرى شيوخاً وعجائز وفتياناً وفتيات : بناء عليه لا نرى ان نبادل فرداً بفرد . وبعد اخذ وردّ رضي السفير اخيراً بمبادلة الواحد بالواحد . وأُحصي عدد الأسرى العرب فكان اربعة آلاف وثلاثمائة واثنين وستين . اما الأسرى النصارى فكان اقلّ جداً . ولذا ارسل الخليفة الواثق فجمع من اطراف مملكته كل العبيد والجواري واشتراهم من مواليهم ومع ذلك لم يسدّد عددهم عدد الاسرى العرب . فأخرج من بلاطه جميع الجواري الروميات اللواتي سبق فانتقاهن له وارسلهنّ مع مندوبيه . وتجمهر العرب والروم عند نهر سلوقية بحدود طرسوس وأجروا التبادل والتحرّر .

قيل ان الواثق اوصى مندوبيه ان يستخبروا كل عربي يسرّحونه : هل كلام الله (في القرآن) مخلوق ام لا ؟ فمن قال انه غير مخلوق اطلقوه ومن قال انه مخلوق تركوه في ايدي الروم .

وتوفي الواثق بداء الاستسقاء وعالجه الاطباء بالقعود في تنّور حام فشعر بشيء من الفائدة ثم أمر ان يوقدوا النيران اكثر مما تتطلبه اصول الطب واطال القعود فيه فأخرجوه من هناك ميتاً .

وكان خلفاء العرب الى هذا الحين لا يهمهم الا احراز النصر والظفر

لكنهم بعد ذلك استسلموا للخلاعة وانهمكوا في السكر . وبلغ الفجور والفسق من الواثق حتى ان مولى احدى جواريه المطربات طالبه بمائة الف دينار ذهباً وبالإمارة على مصر ديةً لها . ولو لم يردعه كبار الدولة لأدى ذلك دون تريّث . وانتهى الامر بان ابتاعوها له بعشرة آلاف ذهبيّ .

بعد الواثق اخوه المتوكّل

تولى اربع عشرة سنةً وتسعة شهور . وكانت خلافته عام ٢٣١ للعرب (٨٤٥ م) (١٥٥) وتمادى في بغض المسيحيين حتى اضطرّهم ان يتعمموا بعمائم صوف وان لا يخرجوا خارجاً إلّا بتزنّروا بزنّار وكستيج . ومن كان له عبدٌ لزمه ان يخيط على قميصه من قدّام ومن خلف رقعةً لونها غير لون القميص . وان تقوّض الكنائس الحديثة البناء . واذا كان للنصارى كنيسة واسعة ولو قديمة وجب ان يؤخذ جانب منها ويجعل مسجداً . وان لا يطوفوا بالصلبان في احتفالاتهم . وشدّد بنيل هذه الاوامر الجائرة وافظع منها على اليهود . وقوّض ضريح الحسين بن عليّ المتصل نسبه بابنة نبيهم وهدم البيوت المجاورة له وأمر ان يُزرع ذلك المكان ويُسقى ويُساق بالفدّان ويعفو اثر الضريح تماماً .

وظهر في عهده رجل بنيسابور ادّعى النبوّة وانشأ كتاباً ضمنه على زعمه ما لقنه جبرائيل الملاك وتبعه الكثيرون . فقبض عليه وصُفع حتى أقرّ بكذبه .

وفي السنة الثالثة لخلافة المتوكل عقد إمارة البلاد لابنائه الثلاثة فجعل المنتصر والياً على افريقية ومصر وما بين النهرين وآثور والخابور وقرقيسيا وتكريت والجنوب وارض سبا وشبا حتى حدود الهند وشهرزور واصفهان وقوم وقاشان وقزوين وجبال العجم اجمع . وولى المعتز ابنه الثاني خراسان وطبرستان والريّ وارمينية واذربيجان وان يقبض حساب جبايات بلاد العرب عموماً . ونصب المؤيد ابنه الثالث والياً على دمشق وحمص وارض الاردن وفلسطين .

وفي السنة ٢٣٧ للعرب (٨٥١ م) سار بكراط بن آشوط بطريق ارمينية الى زيارة يوسف بن محمد رئيس قوّاد الجيوش العربية بشأن عقد الصلح . فقبض

عليه يوسف وأوثقه وبعثه الى بغداد . فاحتشد عساكر الروم والارمن وانقضوا على مدينة طارون حيث كان يوسف . وما ان برز يوسف لمناوشتهم حتى خرَّ صريعاً هو وكل من شاركه في القتال . اما سائر العرب (١٥٦) غير المحاربين فقد نزع الارمن ثيابهم وتركوهم عراةً حفاةً هرأهم الثلج وقضى عليهم .

وبعد هذا توجه بغا القائد الكبير الى ارمينية فسبى وقتل الكثيرين . وبعد قليل زحف يزيد زيرك التركيّ الخارجيّ وكان قد استقلَّ بتفليس ففتك به زيرك على نهر كور الذي يمرّ وسط تفليس وأضرم فيها النيران فالتهمت زهاء خمسين الف نسمة وكانت أبنيتها كلها من خشب الصنوبر الذي يتقد وينطفئ فورًا بخلاف خشب البلّوط وفي يوم واحد اطفأوا النيران كلها .

وخلع الحصيون والي مدينتهم وفتكوا به .

وفي هذا الزمان استخفّ العرب بالروم ونقضوا الصلح ولاسيما لان مقاليد مملكتهم كانت بيد امرأة . فنهضت تئودورا الملكة ووجهت الجيوش الى قيليقية عام ١١٧٢ لليونان (٨٦١ م) فغزوا بلد عين زربة كله . وما ان اطّلع المتوكل على ذلك حتى وجّه اليها الحاجب نشيف بشابة سفير لاجل الصلح واعتاق الاسرى . فقالت له الملكة : اننا نوافق على عقد الهدنة ولكن انّى لكم عشرون الف اسير مسيحي تبادلونهم بالأسرى العرب الذين عندنا ؟ على ان السفير راضاها كيفما كان فاطلقت ثمانية آلاف أسير وابقت على اثني عشر الفاً وقالت : ان هؤلاء قد تنصّروا فلا سبيل الى التخلي عنهم . قيل ان نشيف لما تسلم الالاف الثمانية وخرج أمرت تئودورا بقتل البقية لانهم بعد ما تنصروا واعتمدوا حاولوا الذهاب . وروى بعضهم ان نيقولا حاجبها فتك بهم دون علمها .

وفي هذه السنة زحف قومٌ من الاحباش البوغيين وقتلوا جميع العرب العاملين في معادن الذهب والحجار الكريمة بين حدود مصر والحبشة . فسار اليهم عنبسة القائد العربي في عشرين الف فارس وراجل (١٥٧) في ذخائر وافرة ومياه كافية لخلوّ تلك الصحراء من الماء . والسكان مسافة ثلاثة ايام. وجعل البوغيون يقاتلون وهم على ظهور الجمال والجمال تفرّ هرباً مما تشاهده او تسمعه . فأمر

عنبسة جنوده فلقوا جلاجل في رقاب خيلهم واطبقوا على البوغين وكسروهم وفتكوا بالكثيرين منهم . وخضع بقيتهم للعرب واصبح ملكهم يؤدي كل عام اربعمائة مثقال من الاكسير كالعادة .

واشتهر في هذا الزمان الطبيب بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس بن بختيشوع العيلامي . وخدم الخليفة المتوكل واحتظى لديه حتى صار يعادله في كسوته ومقامه وماله وثروته وعبيده وجواريه ، وأحبه الخليفة حباً جماً حتى انه لما دخل الطبيب يوماً وجلس قريباً منه كعادته فوق السدة متوشحاً بدراعة أطلس رومي وذيله مشقوق قليلاً طفق الخليفة يحادثه وهو يعبث بذلك الفتق حتى بلغ الى الاكمام . وجرى بينهما ما يجري بين المتوهين المختلين . ثم سأل الخليفة طبيبه : بمَ يعرف الاطباء ان المجنون يحتاج الى الربط بالقيود ؟ ولما كان بختيشوع قد شعر بما فعل الخليفة بثوبه قال له : نعرف ذلك اذا بلغ المجنون في فتق رداء طبيبه حتى الاكمام فعند ذلك نقدّر انه يفتقر الى قيود . فضحك المتوكل حتى استلقى على ظهره وأمر له بثياب فاخرة ألبسوه اياها . وعلى فرط محبة المتوكل لطبيبه هذا فقد قلب له ظهر المجنّ واستصفى كل ماله على اثر مأدبة فاخرة أعدها له الطبيب . اذ هيأ فيها خمسة آلاف خوان على كل خوان خروف مشوي ودجاجتان وحمامتان وثلاثة الوان طبيخ وطبق حلوى وخبز سميذ كافٍ ونقول وطيوب وثلج (١٥٨) كثير قد استُحضِر من جبال آثور الى بغداد في فصل الصيف . قيل ان الخليفة بعد ما اخذ ما اخذ من بختيشوع ظل لديه من الحطب والفحم والنبيذ ما ابتاعه منه الحسين بن المخلد الشريف بستة آلاف دينار ثم باع ذلك باثني عشر الف دينار .

غير ان بختيشوع خرق النواميس البيعية واتخذ امرأتين معاً وحبلت كل منهما وولدت ابناً ، احدهما جبرائيل وثانيهما يوحنا الذي تولى مطرانية الموصل . ولم يتوفق بعد ذلك . وكان في اول امره يجلس في مركبة من ابنوس ويذهب من دار الخليفة الى داره . وكان يقوم بخدمته الف رجل . وكان منذ المساء حتى منتصف الليل يستسلم الى الخلاعة القبيحة ثم ينهض نصف الليل يصلي يحيط به خصيان سود كان مغرماً بحبهم . وكان يجلس على فراشه بعد الصلاة ويطالع

الانجيل حتى الصباح فيركب الى خدمة الخليفة . ويقال ان نفقة شمعاته وزيته وطيوبه بلغت خمسمائة دينار . وبعد ما افتقر بختيشوع خلّف ابنَين وثلاث بنات تفرقوا في البلاد .

وفي السنة ١١٧٦ لليونان (٨٦٥ م) وهي السنة ٢٤٥ للعرب وجّه ميخائيل ملك الروم اطروفيلس الشيخ سفيرًا الى المتوكل خليفة العرب في سبعة وسبعين اسيرًا بمثابة هدية فرحب به الخليفة وعقد معه الصلح .

وفي هذه السنة حدثت زلزلة عنيفة في انطاكية قوّضت الفاً وخمسمائة دار واكثر من تسعين برجاً في سورها وسُمعت من الارض اصوات مخيفة هائلة . وأخربت هذه الزلزلة اماكن كثيرة في سوريا وأتلفت اهالي اللاذقية وجبلة جميعاً .

وفي السنة ٢٤٦ للعرب (٨٦٦ م) بعث المتوكل سفيرًا الى ميخائيل ملك الروم يقال له الناصر بن أزهر في الف (١٥٩) صرّة مِسكٍ واوانٍ فاخرة وزعفران وافر وامتعة اخرى . فرحب به الملك اجمل ترحيب وردّ اليه الفي أسير بينهم عشرون امرأة وعشرة فتيان . قال الناصر : اني طول مكوثي في قسطنطينية لم أرَ الملك يتكلم بعد اصغائه الى حديثي بواسطة ترجمان بل كان يجيب بكلمة نعم لا غير . فكان خاله يتكلم بدلاً منه لانه كان بعدُ فتى . ولما كان الكثيرون من العرب قد اصطبغوا بمياه العماد اصدر ملك الروم امرًا بان ينطلقوا الى بلاد الحدود التي بين الروم والعرب . وقال : ان الذي يرغب النصرانية ويود الى بلادنا نقبله بمثابة مؤمن حقيقي . قال الناصر : رجع منهم صائغان شهيران من اهالي افريقية وغيرهما كثيرون لم يتبعونا .

وفي السنة ١١٧٧ لليونان (٨٦٦ م) وهي السنة ٢٤٧ للعرب اتفق المنتصر ابن المتوكل سرًّا مع العبيد الاتراك فانصبُّوا على ابيه بالسيوف وهو سكران وبطشوا به .

بعد المتوكل المنتصر ابنه

تولّى الخلافة ستة اشهر واضطرّ اخويه المعتز والمؤيّد وهدّدهما بالقتل إلم يتخليا له ولبنيه عن الخلافة خلافاً لِما قرره المتوكل ابوهم اعني ان يتولّاها الواحد تاو الآخر . وقد اضطرّ الاخوان على كره منهما ان يكتبا بخط يدهما

وُيشهدا عليها رجال العدل بانها تنزّلا عن حقها طوعاً وان للمنتصر اخيها ان يولي الخلافة لابنه من بعده . هكذا ما اكتفى المنتصر بقتل ابيه بل غدر باخويه ايضاً . لكن خلافته لم تستغرق اكثر من ستة اشهر ومات بداء الذبحة بالغاً الخامسة والعشرين . قيل انه قبل وفاته رأى في الحلم كأنه يتسلق سلماً فلما وصل الى الدرجة الخامسة والعشرين قيل له : مكانك . هذه نهايتك !

بعد المنتصر المستعين بن المعتصم

تولى ثلاث سنوات وثلاثة اشهر. لما توفي المنتصر تشاور (١٦٠) الاقطاب وقضوا بان لا يملّكوا احدًا من اخوة المنتصر لانهم اشتركوا جميعاً في قتل ابيهم غدرًا . فأحضروا من ثم المستعين بن المعتصم أخا المأمون وأقسموا له وبايعوه بالخلافة .

وفي السنة ١١٨٠ لليونان (٨٦٩ م) وهي السنة ٢٤٩ للعرب زحف عُمَر قائد الجيوش العربية الى بلاد الروم . فلقيه الروم في مرج المطران بجدود ملطية وأجهزوا عليه وعلى الفين من اصحابه . ولما سمع علي بن يحيى القائد الأكبر حشد عساكر كثيرة من ميافرقين وارمينية وزحف يريد مناوشة الروم فكانت الدورة كذلك عليه وخرّ قتيلًا . فسمع اهالي بغداد وسامرًا بقتل هذين القائدين الكبيرين وادركوا ان العبيد الاتراك قد احتلوا دولة العرب وجعلوا يقتلون من ارادوا ويستخلفون من أحبوا فحشدوا جماهير غفيرة من السوقة وقطاع الطرق وقصدوا السجن وحطموا الباب واخرجوا المجرمين واتفقوا معاً وقطعوا جسر دجلة ودخلوا الخزينة ونهبوها واحرقوا صكوك الكتّاب . ونهبوا من الجملة داري بشر وابرهيم ابني هرون النصرانيين . فسخط العبيد الاتراك وفتكوا بالكثيرين من قطاع الطرق وانتهت الفتنة .

بعد المستعين المعتزّ بن المتوكل

تولى اربع سنوات وسبعة شهور . في السنة ٢٥١ للعرب (٨٧١ م) لما نزل المستعين من سامرًا الى بغداد تجمهر الاتراك واخرجوا المعتزّ والمؤيد ابنَي المتوكل من السجن وحالفوا المعتز وبايعوه بالخلافة . واقسموا للمؤيد بالخلافة

بعده . فاصبح اهالي بغداد متحزبين للمستعين واهالي سامرا للمتوكل . وحدث بسبب ذلك شغب كثير وقتل الكثيرون من الحزبين .

وفي السنة ١١٧٩ لليونان (٨٦٨م) توفي ميخائيل ملك الروم واستغرق ملكه خمساً وعشرين سنة ولم يخلف ابناً (١٦١) وخلفه رجل اسمه باسيل خمس سنوات.

اما المعتز فانتقض على اخيه المؤيد وعبث بما أبداه من الأيمان والعهود والقاه في السجن وظلّ يصفعه حتى استكتبه التنزّل عن حقه بخط يده.. ولم يقتصر على ذلك بل وجّه الى السجن مَن أدرجه في فراء من جلد السمور الذي يدفئ كثيراً ثم أمر ان يدخلوا رأسه فيه ويربطوا يديه ورجليه ويخيطوا الفراء ويتركوه . وهكذا قضى نحبه . ثم اخرجه المعتز واستحضر القاضي وشهود العدل فلم يجدوا فيه اثراً لطعنة سكين او لحبل في عنقه فقرّروا انه مات موتاً طبيعياً .

اما المستعين الذي تنزّل كذلك فقد حزّ الاتراك هامته واحضروها الى المعتز . وكان المعتز فيما قيل يلعب ويتشذر بالشطرنج فقال لهم تربّصوا ساعةً ريثما افرغ من الدست ثم أنظره . وبعد ما فتك المعتز باخيه وبالمستعين وثق بقوّته واعرض عن الاتراك ولم يزدْ لهم ارزاقهم . فاحتشدوا عام ٢٥٥ للعرب (٨٦٨ م) مسلحين على باب الخليفة وطالبوه بحقوقهم . فارسل الى امّه لتعطيه ما يؤدّي لهم فقالت ان ليس لديها شيء . عند ذلك وثبوا عليه وبصقوا في وجهه ولطموه والجأوه ان يكتب كتاب تنزّله عن الخلافة. ثم اوثقوه وزجوه في سرداب ضيق وسدوا الباب في وجهه وتركوه بضعة ايام حتى قضى نحبه فاخرجوه ودفنوه . هكذا جرى به ما أجراه بغيره.

بعد المعتز المهتدي بن الواثق

تولى احد عشر شهراً وعشرين يوماً . ولم يرضَ بالخلافة على ما قيل حتى احضروا المعتز امامه وتنزل مقرّاً بالعجز وعدم الكفاءة بما أسند اليه .

وظهر يومئذ علي الخارجي وادّعى انه من سلالة علي ابن عم نبي المسلمين. وانضم اليه طائفة كبيرة من احباش واعراب أُطلق عليهم لقب قرامطة باسم (١٦٢) وطن علي زعيمهم . وقد اجهزوا على الكثيرين من العرب واحتلّوا

مدن الجنوب جمعا. وقسماً من سوريا وسنجار وملكوها اعواماً كثيرة .

اما المهتدي فقد طرد المطربين والمطربات من سرّمن رأى (سامرا) حيث كان يقيم الخلفاء. يومئذٍ وكسّر آلات الطرب وفتك بالسباع والندورة والكلاب التي كان يلتهي بها من سبقه من الخلفاء. فثار عليه العبيد الاتراك ليفتكوا به فانهزم من وجههم ممتطياً حصاناً وهو يصرخ ويقول: يا ناس ساعدوا خليفتكم! فلم يستجبه احد فدخل داراً والاتراك يلحقونه فطفر من سطح الى سطح حتى أدركوه وقتلوه عام ٢٥٦ للعرب (٨٦٩ م)

واشتهر في هذه الغضون حنين الطبيب الفاضل ابن اسحق . وكان ابوه صيدلياً في الحيرة وأحبّ ان يدرس الطبّ . فشخص الى بغداد وقرأ مجموعة الاسكندريين على الطبيب يوحنا بن ماسويه . وفي بعض الايام اعترض حنين على معلمه يوحنا فحرد يوحنا وطرده وقال له : دع عنك الطبّ حسبُ من كان مثلك ان يبيع فلوساً بجانب الطريق . فامتعض حنين وخرج باكياً وتوجه الى بلاد الروم واقام بها حتى أحكم اللغة اليونانيـة وتوصّل الى ان ينقل الكتب عنها الى السريانية وعن السريانية الى العربية وعاد الى بغداد ثانية بزيّ يوناني وقصد جبرائيل رأس الاطباء ابن بختيشوع فامتحنه وزاد في تبجيله وسباه الربّان وقال للحاضرين إن مُدّ في عمر هذا الشاب فلن يترك ذكراً لسرجيس الراسعينيّ . وبلغ خبره يوحنا الذي طرده فاستدعاه واستغفره . ولم يزل فضل حنين يتزايد يوماً فيوماً وهو يفسر انواع العلوم حتى توفي في كانون الاول ١١٨٨ لليونان (٨٧٧ م) وهي السنة ٢٦٠ للعرب .

وخلّف حنين ابنين هما اسحق وداود . وفسر اسحق كذلك (١٦٣) كتباً جمة . ومجموع تآليف حُنين خمسة وعشرون كتاباً سوى ما نقله عن اليونانية الى السريانية والعربية . وكان له ابن اخت يقال له حبيش بن الحسن الأعسم . ومن حسن حظّ حنين ان اغلب ما نقله حبيش لمّا كان يطالعه بعض الجهّال كانوا يتوهمون انه بقلم حنين وان الناسخ صحّف الاسم فكانوا يكشطون لفظ حبيش ويكتبون بدلاً منه لفظ حنين . ولهذا أمست تآليف حبيش قليلة وأصبح اغلبها مكتوباً باسم حنين .

بعد المهتدي المعتمد بن المتوكل

تولى ثلاثاً وعشرين سنة . وقضى زمان خلافته في مقاتلة الخارجي الذي ظهر في الجنوب . وفي السنة ٢٦٥ للعرب (٨٧٨ م) انتزع الروم من العرب قلعة لولوة. وفي القابل حشد ابن الرشيد القائد العربي اربعة آلاف فارس وسار بهم الى بلاد الروم فأغار عليه بطارقة سلوقية وطوانا وخرشنة وغيرهم واحاطوا بجيشه . فأيس العرب وانحدروا عن خيلهم وربطوها وخرّوا على ركبهم وجعلوا يصبون السهام نحو الروم فلم يُجدهم ذلك نفعاً. على ان الروم انصبوا على العرب وقتلوا البعض واستأسروا البعض الآخر في جملتهم ابن الرشيد قائدهم .

وفي السنة ٢٧٠ للعرب (٨٨٣ م) حشد الموفق قائد الجيش العربي كتائب ضخمة بحرًا وبرًا وسار يريد الخارجي في الجنوب وتغلب عليه بعد عراك شديد وفتك به ما بين نهرَي بابل وبطش بعسكره . ولم يكتفِ على بادّعائه انه من سلالة النبي العربي بل اذاع انه هو النبي وانه لما كان يوماً في الصحراء ظللته سحابة تبعها رعد وصوت من الرعد يقول له: اقصد البصرة تحرز النصر. ولقد انتصر واحتلّ المدينة واجتمع اليه الضبّاط ولكنه (١٦٤) لم يتوفق في الزعامة .

وفي السنة ١١٩٤ لليونان (٨٨٣ م) توفي باسيل ملك الروم وخلفه ابنه لاون ثلاث عشرة سنة . وخرق الشرع النصراني فهجر امرأته وتزوج بامرأة ثانية ثم طلقها وتزوج بامرأة ثالثة ورابعة واتخذ زوجتين معاً .

وفي السنة ٢٧١ للعرب (٨٨٤ م) انقضّ لصوص بغداد على الدير الذي بعد نهر عيسى ونهبوا ما فيه وقوّضوا بعض جدرانه .

وبعد سنة ثار العرب في طرسوس ودكوا أبنية الكنيسة الكبرى الجديدة وحدثت زلزلة هائلة قوّضت مسجد مصر الكبير وكثيرًا من الدور . وحدث كذلك وباء قتال وأحصي في يوم واحد الف نعش ميت . وحدث كذلك غلاء في بغداد .

وفي السنة ١٢٠٠ لليونان (٨٨٩ م) انفلق تلّ على ساحل نهر البصرة

تحت بغداد وصادف الناس سبعة موتى موضوعين في اجران حجريّة لونها لون الجلد . وقد حُفظت جثثهم واكفانهم ورائحة مسك تفوح من اجسامهم . وحُفظت كذلك آذانهم وانوفهم وشفاههم وشعورهم وحواجبهم وعيونهم كأنها مكحلة . وشاهدوا اثر طعنة رمح في جنب احدهم . وحُفرت على اجرانهم كتابات حِبريّة لم يتوصّل احد الى قراءتها .

واشتهر آنئذٍ محمد بن زكريا الطبيب . ترك الريّ وطنه بفارس ووافى الى بغداد بالغاً الثلاثين من سنه ودخل البيمارستان واكبّ على العلم حتى فاق ابناء عصره . وصنف كتباً جمة في الطب والكيميا افضلها كتاب الحاوي . وعلى اثر وفاته دفع صاحب البلد ذهباً وافراً الى اخته واشترى اوراقاً مبعثرة من ذلك الكتاب ضمها تلامذته في كتاب واحد ولكنه ظل غير منتظم .

خبر النصيريّين (١٦٥) في فونيقية

رغب الكثيرون ان يعرفوا من هم النصيريّون فنقول : في السنة ١٢٠٢ لليونان (٨٩١ م) ظهر شيخ في اطراف الكوفة بقرية الناصريّة كان يكثر من الصوم والصلاة ويتظاهر بالزهد وتبعه كثيرون من اهل البلد . واصطفى اثني عشر رجلًا بعدد الرسل واوصاهم ان يبثوا بين الناس تعاليماً غريباً . ولما اطلع حاكم البلد على خبره ارسل فقبض عليه وحبسه في احدى غرف داره وأقسم انه صباح الغد يشنقه . وشرب الحاكم تلك الليلة خمرًا حتى سكر وفرشوا له لينام . فطلب مفتاح الغرفة التي حبس فيها الشيخ ووضعه تحت وسادته وغرق في النوم . وكان للحاكم خادمة تنام عنده سبقت فاطّلعت على صوم الشيخ وصلاته فاخذتها الشفقة عليه وقصدت مولاها وهو غارق في سبات عميق والتقفت المفتاح وذهبت فاطلقت الشيخ ثم اغلقت الباب وردّت المفتاح الى مكانه .

ولما افاق الحاكم تناول المفتاح وفتح باب الغرفة فلم يجد فيها احدًا فأخذه الدهش وتخوّفت الخادمة ان تعلمه بانها هي التي فتحت وأطلقته. وهكذا ذاع الخبر بان الشيخ خرج والابواب مغلقة . وما عتم ان شاهد الشيخ اثنين من

تلامذته يسوقان فدّاناً في اراض بعيدة عن القرية فقصد نحوهما وأكد لهما ان الملائكة اطلقوه وجعلوه في البرّية . ثم كتب كتاب مذهبه ودفعه اليها ليعلّما الناس بموجبه . وقد اثبت فيه ما يلي : اني انا فلان الذي يُظنّ انه ابن عثمان من قرية الناصرية قد ظهر لي في الرؤيا المسيح يسوع الكلمة الهادي وهو احمد ابن محمد بن الحنفية من وُلد علي . وهو جبرائيل (١٦٦) الملاك وقال لي : انك انت الداعي . انت الحقّ . انت جَمَلٌ يحقد على غير المؤمنين . انت بهيمة حاملة ثقل المؤمنين . انت روح . انت يوحنا بن زكريا فأنذر الناس ليجثوا اربع ركعات في صلاتهم : ركعتين قبل بزوغ الشمس وركعتين قبل الغروب شطرَ اورشليم . ويقولون في كل مرّة هذه العبارات الثلاث : الله السامي على الكل . الله الاعظم من الكل . الله الاكبر من الكل . وان لا يشتغلوا يومَي الاثنين والجمعة . وان يصوموا يومين في السنة . وان يقللوا من غسل اعضاء التناسل . ولا يشربوا المسكر بل يشربوا ما ارادوا من الخمر . ولا يأكلوا لحوم الحيوانات الضارية .

وبعدما لقنهم تعليماً مثل هذا سقيماً سخيفاً انتقل الى فلسطين وجعل يلقن الناس الجبلة القرويين ثم اختفى من هناك ولم يقف احد على مكانه حتى اليوم.

وفي السنة ١١٩٨ لليونان (٨٨٧ م) برز اندراأ الاسفطريق في جيش كثيف وزحف الى بلاد العرب . فلقيه نازمان الحاجب قائد الجيش العربي . فانكسر الروم وسلبهم العرب صلباناً ذهبية وفضية كانت في رؤوس رماحهم.

وفي السنة ٢٧٩ للعرب (٨٩٢ م) أخرجَ المعتمد على المشعوذين والمنجمين والسحرة الجلوس في قارعة الطريق . وشدّد على باعة الكتب بيع كتب الفلسفة والمباحث والمجادلات الدينية . وفي السنة عينها بالغ الخليفة في شرب الخمر حتى أغمي عليه وعاجلته المنون .

بعد المعتمد المعتضد بن الموفّق

تولى تسع سنوات وتسعة شهور وكانت خلافته عام ٢٧٩ للعرب (٨٩٢م). وفي السنة ٢٨٠ للعرب (٨٩٣ م) زحف اسمعيل بن احمد القائد العربي في

جيوشه الى بلاد الهونيين وقبض على ملكهم وعلى امرأته ونهب عاصمته . وأنقذ زهاء عشرة آلاف من الاسرى الاتراك وغنم عددًا وافرًا من الاغنام والبهائم . وفي هذه السنة حدثت زلزلة (١٦٧) هائلة دكت مدينة كبرى في الهند الخارجة . وقد نبشوا من تحت تراب الدور المتهدمة مائة وخمسين الف جثة وطمروها .

وفي السنة ١٢٠٧ لليونان (٨٩٦ م) توفي لاون ملك الروم بداء الامعاء. وخلفه ابنه الكسندر سنةً واحدةً .وقد زاغ قلبه عن الايمان وتشبث بالسحرة والرقاة فضربه الله العادل واعدمه الحياة .وخلفه اخوه قسطنطين اربعة اعوام. وفي اوّل عهده زحف سيمون زعيم البلغار والصقالبة الى قسطنطينية واتلف قرى جمة وحاصر العاصمة واحتفر خندقاً من بلاخرنة حتى باب الذهب . فسيّر اليه ملك الروم يقول : عَلامَ هذا الخلاف بيننا ونحن باجمعنا مسيحيون ابناء معمودية واحدة . لكن سيمون لم يقتنع بالموادعة فحشد الملك قسطنطين الاسرى العرب الذين في قسطنطينية ووعدهم باطلاق سبيلهم ان ساعدوا الروم في مناوشة البلغار . فأقسموا للملك في ذلك فدفع لهم اسلحة وزحف الروم والعرب معاً باتفاق تام وتغلبوا على الصقالبة وقتلوا الكثيرين منهم وهزموا البقية . غير ان الملك اخلف في وعده واسترجع السلاح من العرب واوثقهم ثانية وفرّقهم في بلاده لئلا يتباهوا او يتفاخروا . على ان البطريرك ميخائيل المغبوط اورد في تاريخه ان هذه الحرب وقعت بين الروم والعرب . اما التواريخ العربية فذكرت انها جرت بين الروم والصقالبة . وهذا هو الصحيح . لانه لا يُعقل ان الروم يُطلقون الاسرى العرب ويعدّونهم بالسلاح ليقاتلوا العرب اخوانهم .

وفي هذه السنة عينها احتشد العرب في بغداد وادّعوا ان خادم ابي غالب النصراني طبيب الخليفة قد شتم نبيهم وحاولوا ان يفتكوا به . فسمع الخليفة المعتضد بالله انتووا وجاهر بان العرب كذابون ووجّه الجنود (١٦٨) فانقذوا الخادم .

وسبق المنجمون فقضوا ان الامطار ستهطل مدراراً في هذه السنة وتفيض

الينابيع وتنرق بغداد وتهلك اهاليها . غير انه منذ فاتحة السنة حتى خاتمتها لم تسقط على الارض نقطة مطر واحدة حتى ان الينابيع جفّت . فاعترى المنجمين الخزي والخجل .

واشتهر في هذا الزمان ابو الحسن ثابت بن قرّة بن مروان بن قيورا بن ابرهيم بن قيورا بن مارينون بن سلومون الصابئ الحرَّاني. كان صيرفياً في سوق حرَّان ثم أتقن الفلسفة واحكمها وتضلع من اللغات اليونانية والسريانية والعربية. وصنف في العربية زهاء مائة وخمسين كتاباً في الفصاحة والرياضة والفلك والطبّ . وألف في السريانية ستة عشر كتاباً طالعنا نحن اغلبها : منها كتاب شرائع الصابئة وضوابطها . وكتاب تكفين الموتى . وكتاب حقيقة ديانة الصابئة. وكتاب الطهارة والنجاسة . وكتاب في ما يصلح من الحيوان لتقريب الضحايا . وكتاب اوقات الصلوات . وكتاب قراءات ما يوافق كلا من النجوم السبعة في الصلوات . وكتاب التوبة والطلبة . وكتاب الموسيقى . وتاريخ ملوك السريان الاقدمين اعني الكلدان . وكتاب ديانة الصبأ.. وكتاب تقسيم ايام الاسبوع على الكواكب السبعة . وكتاب تاريخ مشاهير أسرته وسلسلة آبائه . وكتاب نواميس هرميس وصلواته التي يستعملها الصبأ.. وكتاب في ان السطرين المستقيمين اذا ضُبطا على اقل من زاويتين مستقيمتين التحما معاً . وكتاب آخر في الصدد عينه .

ولأبي الحسن خطبة وصف بها حرَّان والصابئة ورد فيها ما تعريبه : لقد اضطرّ الكثيرون ان ينقادوا للضلال خوفاً من العذاب . اما آباؤنا فقد احتملوا ما احتملوا بعونه تعالى ونجوا ببسالة . ولم تتدنس مدينة حرَّان هذه المباركة بضلال الناصرة قطعاً . فنحن هم الوارثون والمورثون للصابئة المنتشرة في الدنيا . فالذي يحتمل برجاء وثيق اثقال الصابئة يُعدّ ذا حظ سعيد . ليت شعري من عمّر المسكونة وابتنى المدن أليس خيرة الصابئة وملوكهم ? مَن أسس المرافئ والانهار ? مَن شرح العلوم الغامضة ? لمن تجلّت الالوهية الملقنة الكهانة والمعلّمة المستقبلات الّا لمشاهير الصابئة ? فهم الذين اوضحوا ذلك كله وكتبوا عن طبّ النفوس وخلاصها . ولقّنوا كذلك

طبّ الاجساد وانعموا الدنيا اعمالاً صالحة وحكمة هي دعامة الفضيلة . فلولا علوم الصابئة لأمست الدنيا قفراء فارغة متقلبة في العوز . اقتطفنا هذا من تأليف ذلك الرجل كما نوضح نبوغه في اللغة السريانية . وقس على ذلك تصانيفه في اليونانية والعربية فهي في اتقانها وفصاحتها على اتم ما يرام .

وفي السنة ٢٨٥ للعرب (٨٩٨ م) هبّ هواء أصفر في ناحية الكوفة وتحوّل الى هواء اسود وهطل مطر شديد وحدثت رعود وبروق هائلة مريعة. وهبط ليلة الاحد من الجو حجار سوداء وبيضاء . وسقط في البصرة بَرَدٌ وزن الواحدة مائة وخمسين درهماً . وانقضّ اللصوص العرب على عدة مراكب رومية واحرقوها مع من فيها من الركّاب وكانوا فيما يقال ثلاثة آلاف نسمة.

وفي السنة ٢٨٧ للعرب (٩٠٠ م) انتقض الوصيف الخصيّ القائد العربيّ في قيليقية وتهيأ للحرب بحرًا . فأمر المعتضد باحراق جميع مراكب العرب. وكان عرب طرسوس يتلصّصون في البحر فاستفاد المسيحيّون من ذلك فائدةً تُذكر. وبعد سنةٍ حدث وباء تفاقم في مدن اذربيجان حتى كلّ الاحياء عن دفن الاموات اذ كان الوباء يباغتهم حالاً .

وفي هذه السنة زحف محمّد القائد العربيّ الى بلاد الروم وسبى بعض القرى واستأسر مائة محارب وستّين من الاكليرس قسوساً وشمامسة (١٧٠) واحتوى على صلبان وامتعةٍ بيعيَّة. فحشد الروم جيوشاً ضخمة برّاً وبحرًا وساروا حتى وصلوا الى الكيسوم وأجلوا خمسة عشر الفاً ونيفاً من العرب رجالاً ونساء وصبياناً. واساقوا الى بلادهم اغلب المسيحيين على كرهٍ منهم لئلّا يعود العرب فيفتكوا بهم.

وفي السنة ٢٨٩ للعرب (٩٠٣ م) توفّي المعتضد وارسل الاقطاب في استحضار ابنه المكتفي من الرقّة وبايعوه بالخلافة.

بعد المعتضد المكتفي ابنه

تولّى ست سنوات وتسعة شهور. وما كاد يستقلّ في الخلافة حتى أمر ان تُطَمّ الأجباب التي حفرها ابوه وجعل يحبس فيها المجرمين . ورُزق ابناً اسمه جعفر نبغ في علم الفلك والتنجيم حتى فاق من سبقه. وجاءه يوماً احد الحجّاب

في كتاب تنجيم وسأله ان ينظر طالع وَلدٍ وُلد في الدار حديثاً . فتأمله جعفر وقال : ان هذا الولد لا عقل له وسيتناول غذاءه بيده بعد ثلاثة واربعين يوماً ويأكل . ثم قال للحاجب : قل لي الحقيقة ما هذا ؟ قال الحاجب : لستُ أُخفي عليك أني جئتك بطالع فرخ سنور .

وفي السنة ١٢١٣ لليونان (٩٠٢ م) حدث وقت الصيف حادث غريب جداً . ذلك ان الرياح الشمالية عصفت في مدينة حمص وتبعها برد قارس وجمدت المياه واكتسى الناس بالفراء وجعلوا يصطلون بالنار .

وفي السنة ١٢١٨ لليونان (٩٠٧ م) أرسل باسيل الحاجب سفيراً الى المكتفي خليفة العرب بشأن التبادل بالأسرى وكان معه اربعة اشخاص من الاسرى العرب بمثابة هدية . فرحب به الخليفة واكرمه . وانتهى التبادل في السنة التالية فكان أسرى العرب ثلاثة آلاف رجالاً ونساء وأُطلق سراحهم وفي هذه السنة وهي السنة ٢٨٩ للعرب توفي المكتفي وبويع اخوه بالخلافة .

بعد المكتفي اخوه المقتدر

تولى سبعاً وعشرين سنةً وهو في ربيعه الثالث عشر (١٧١) فندم الاقطاب لانهم بايعوه بالخلافة وهو غير مكتمل العقل والسنّ . واهتمّ العباس احدهم للأمر جداً فاجتمع بالاقطاب وقصدوا المعتضد بن المعتزّ وبايعوه وارسلوا إلى المقتدر والى امه ومربيته وحجابه في مغادرة البلاط . فثار مؤنس كبير الحجاب واجتمع بسائر الحجاب والعبيد الاتراك وتسلحوا وباغتوا الاقطاب وهم محتشدون عند ابن المعتزّ ففتكوا بالعباس وببعض اصحابه واستأسروا بقيتهم . ثم مضوا بابن المعتزّ الى البلاط وخنقوه ليلاً ودفنوه في الدار عينها فاستقلّ المقتدر بالخلافة .

وفي السنة ١٢٢٠ لليونان (٩٠٩ م) تراكمت الثلوج في بغداد حتى بلغ علوها اربع اصابع فوق السطوح . ولم يكن يومئذٍ في بغداد من شاهد الثلج بعينه . وبعد ثاني عشرة سنة وهي السنة ٣١٥ للعرب و١٢٣٨ لليونان (٩٢٧ م) حدث في بغداد عينها برد قارس حتى جمد خلّ الخمر في الخوابي وتقس عليه البيض والزيوت ويبست الاشجار .

وفي السنة ٩٠٩ عينها زحف مؤنس الحاجب في الجيوش العربية الى بلاد

الروم من ثغر ملطية وسبى وغزا وعاد. وفي السنة ٢٩٩ للعرب (٩١١ م) أغار رستم القائد العربيّ على بلاد الروم من ثغر طرسوس ودوّخ حصن مليح الارمنيّ وأحرقه. وفي تلك السنة وزّع المقتدر على المطربات في بلاطه الف دينار ذهباً وعلى هذا النمط افرغ خزائنه . وجعل العبيد الاتراك يطالبونه بارزاقهم وهو يماطلهم ويعذّب الكتّاب واصحاب الاموال اعذبة فادحة ويستنزف اشياءهم . على ان العرب في اوّل امرهم كان النصر حليفهم ولمّا اتّسعت دولتهم (١٧٢) اخذوا ينتصرون تارة وتارة ينكسرون. وفي هذه الازمنة انهمكوا في الفحشاء والعهارة والنهم فأمسى انكسارهم متواصلاً . وكلّما كانوا يحاولون عقد الصلح مع الروم كان الروم يرفضون مزملين استرجاع اصقاعهم القديمة ولم يكونوا يراسلون العرب إلّا بشأن مبادلة الأسرى فقط.

وفي السنة ٣٧٠ للعرب (٩١٢ م) ولدت في بلاد الهند بغلة شاهد الكثيرون جحشها.

وفي هذه السنة توفّي الكسندر ملك الروم وخلفه ابنه قسطنطين وهو في الثانية عشرة من سنه. وفي السنة ١٢٢٧ اليونان (٩١٦ م) زحف جيش روميّ الى طرسوس وجيش ثانٍ الى مرعش واستأسروا من العرب نحو خمسين الفاً فشمل الحزن جميع البلاد العربية.

وفي هذه السنة أسلم في بغداد مطران دقوقة النسطوريّ فاغتمّ النصارى لذلك

وفي السنة ٣٠٥ للعرب (٩١٧ م) وجّه الملك قسطنطين الى الخليفة سفيرَين احدهما شيخ وثانيهما فتىً . ولمّا وصلا الى تكريت تربّثا ثمّ شهرين ريثما زيّن الخليفة المقتدر بلاطه وحشد جنوده واقطاب دولته . ثم ارسل فاستدعاهما اليه. قيل ان العرب اقاموا مائةً وستين الف فارس من ناحيتي الدار التي حلّ فيها السفيران حتى بلاط الخليفة . واقاموا في كلّ من جهتي الباب الخارجيّ خمسمائة حصان مسرجة بسروج ذهبيّة وفضيّة . واقاموا في فناء الدار الخارجيّة كثيراً من الغزلان والغزالات والظباء والايائل . وجعلوا ضمن فناء الدار الثانية اربعة فيلة كبيرة وقد ركب كلّاً منها ثمانية رجال هنود بايديهم آلات نفطيّة ناريّة . واقاموا في محلٍّ من ناحيتي الفناء الثالث خمسين سبعاً

مونقة بالسلاسل (١٧٣). وقد مرّ السفيران بذلك كلّه حتى انتهيا الى حديقة فسيحة فيها حوض ماء من قصدير ابيض كأنّه فضّة تُطلّ فوقه شجرة شاهقة مصوغة من الفضّة واغلب اغصانها واوراقها مذهبة وهي تتمايل كلّما هبّ النسيم فيها . وقد جثمت فوقها طيور ذهبيّة وفضيّة تطير بواسطة خيوط متّصلة بالارض وتغرّد تغاريد رخيمة. وفي الحديقة كذلك اشجار نخل مرصّعة بالواح سرو حتى افنانها وقس عليها كثيرًا من شجر الاترنج . ومن هذه الحديقة مضوا بالسفيرين الى دار فسيحة دُبّجت جدرانها بسجوف فاخرة عُلّق فيها الوف من الدروع والتروس والاقواس والرماح . قيل ان عدد السجوف المعلّقة في الجدران بلغ اثنين وعشرين الف سجف . هذا سوى الطنافس التي فُرشت في الارض ووطئتها الاقدام . ثم سار السفيران في جادّة طويلة اصطفّ في جانبها الواحد الف من الحجّاب البيض وفي الجانب الثاني الف من الحجّاب السود وهم مدجّجون بالأسلحة. ولمّا دخل السفيران باب الدار شاهدا الوزير الاعظم جالسًا على كرسيّ عالٍ يحيط به الفقهاء والأعيان واقفين . فظنّا انه هو الخليفة فقيل لهما بل هو الوزير . ومن عند الوزير دخلا غرفة الخليفة وشاهداه مستويًا على عرش من الابنوس بشكل مقبّب في كلّ من قرنيه تسعة صنوف من الحجارة الكريمة تبرق . وحوله خمسة بنيه ثلاثة الى يمينه واثنان الى يساره . قيل ان السفيرين جلسا يستريحان سبع مرّات حتى وصلا الى غرفة الخليفة . ولمّا وصلا سلّما عليه باحناء الرأس وقالا للترجمان : كان الخليق بنا ان نقبّل الارض بين يدي الخليفة ولكننا اغمضنا عن ذلك لئلّا تضطرّ دولة الروم سفيركم بمثل ذلك. نقول هذا لئلّا تحسبونا دون تهذيب وأدب.

وبعدما انهى السفيران سفارتهما كان (١٧٤) الجواب حاضرًا ومدونًا . وقد دفعه الخليفة لهما وأطلقهما. وأمر ان يزوّدوا لكلّ منهما عشرين الف درهم. ثم وجّه معهما سفراء من قبله في مائة وسبعين الف دينار ذهبًا فدًى للاسرى العرب وكانوا اكثر جدًا من الأسرى الروم. غير ان ملك الروم بعد وصول السفراء أبى مبادلة الاسرى او بيعهم.

وفي السنة ٣٠٨ للعرب (٩٢٠ م) ضجّ الشرط في بنداد وحطموا باب

السجن وأطلقوا المجرمين وتحاملوا على المسيحيّين ونهبوا دار عبدالله بن شمعون الطبيب وغيرها من دور الكتّاب المسيحيّين . فحشد الحاكم جنودًا مسلّحين قبضوا على اللصوص وشنقوهم وقطعوا ايدي رفاقهم .

وفي السنة ٣٠٩ للعرب (٩٢١م) أُلقي القبض على درويش عربيّ في بغداد يقال له الحلاّج ادّعى انه الاه متجسم وصار يتظاهر بانه يخترع العجائب . فأمر الخليفة بصفعه الف قضيب ثم قطعوا يديه ورجليه وأحرقوا جثته وعلّقوا جمجمته في رمح طافوا بها في بغداد وفي فارس .

وفي السنة ١٢٣٨ لليونان (٩٢٧م) زحف جيوش الروم الى سميساط ونصبوا خيمة الملك في مسجدها الكبير وقرعوا فيه النواقيس وسبوا وانقلبوا عائدين . فطاردهم العرب وردّوا بعض الغنائم وقبضوا على نسيب ملك الروم وذهبوا به مأسورًا الى بغداد .

اما مؤنس الحاجب الذي أبلى البلاء الحسن في حروب جمة حتى لُقّب المظفر فقد شعر بانتقاض الخليفة عليه وتخوّف غدره وجعل يتحفظ منه . ومـا ان ظهرت البغضاء حتى حالفه الاقطاب واغلب الضباط وشجعوه قائلين : ما لك خائفًا . ثق باننا ندافع عنك حتى تذرّ لحيتك اعني دائمًا (١٧٥) . ولما وقف المقتدر على الدسيسة شمله الذعر وارسل يقول لمؤنس : انك انت ولّيتني الخلافة وأقسمت لي . فاذا اخلصتَ لي النية فاني قسمًا بالله تعالى لن أحسب لك ذنبًا . والّا فاذا نويتَ الخلاف فاني الوذ بالله عزّ وجلّ ولست افكر في مناهضتك البتة . لكن مؤنس لم يقتنع بالموادعة بل ارسل فاحضر الخليفة قسرًا وحبسه في بيته واخرج محمد بن المعتضد من السجن وحلف له واسماه القاهر وبعث فاجلسه على العرش .

ولما رأى حشم الخليفة انهم سيُعزلون وينوب غيرهم منابهم استلوا السيوف وفتكوا بالزعماء اصحاب القاهر سوى مؤنس وهو في بيته . ثم قبضوا على القاهر ونادوا بأعلى أصواتهم قائلين : فليحيَ الخليفة المقتدر . ثم غادروا البلاط والتف حولهم اهل المدينة وقصدوا دار مؤنس وأخرجوا المقتدر وذهبوا به تكرارًا الى البلاط . ولم يتمكنوا من التعدي على مؤنس لانهم كانوا يهابونه جدًا .

اما المقتدر فارسل ثانيةً الى مؤنس يسأله المصالحة . لكن مؤنس لم يثق

به بل سارع الى الموصل وحشد العساكر وانقلب الى بغداد . عند ذلك كتّب المقتدر الكتائب وبرز لمناوشة مؤنس فانكسر المقتدر وقُتل وعُلقت هامته في راس رمح وتمّ ذلك في السنة ٣٢٠ للعرب (٩٣٢ م).

وكان في عهده سنان بن ثابت الحرّاني راس الاطباء . ولم يكن يطبب احدٌ في بغداد دون أمره . ومن اخباره المشهورة انه جاء اليه يوماً طبيب شيخ ذو هيئة مليحة . فرحّب به سنان واكرمه على موجب منظره الخارجي . ولما اراد سنان ان يمتحنه ويفحصه اخرج الشيخ صرّة فيها كمية صالحة من الذهب وقال لسنان: صدّقني اني لستُ أحسن الكتابة ولا اعرف القراءة . ولي عيال كثيرة تعيش من مهنتي. فرجائي ان لا تحرمهم ما يرزقهم الله (١٧٦) الكريم. فضحك سنان وقال له : على شريطة ان لا تتعاطى معالجة الامراض العضالة ولا تفصد نبض احد ولا تسقي احدًا دواء مسهلًا . فحلف الشيخ وقال له: اني ما تعديتُ السكنجبين وما يشبهه . فرخص له سنان ان يطبب .

وفي يوم آخر قصد سنان طبيبٌ ثانٍ مليح الوجه فسأله سنان : على مَن قرأتَ الطب؟ فقال : على ابي . قال سنان : ومَن هو أبوك ؟ قال الشاب : الشيخ الذي كان عندك بالامس . فضحك سنان وقال له : اذهب بسلام واحفظ ما شرطته على ابيك . وهذا سنان اراده الخليفة الظاهر على الاسلام فأسلم قسرًا وترك مذهب الصائبة .

بعد المقتدر القاهر

تولى سنةً واحدة وستة اشهر. بعد ما قُتل المقتدر اشار مؤنس على ارباب الدولة ان يبايعوا أبا العباس ابن القتيل وقال لهم : ان صنعتم هذا خففتم وطأة الحزن عن امّه وجدّته واخت جدّته ومربيته وجعلتموهنّ ان يُخرجن ما عندهن من الذهب دون مشقة . لكنّ الاقطاب اعترضوا عليه وقالوا : حسْبنا النساء. فقد حدث لنا ما حدث مع من كانت له أمٌّ فقط فما تكون الحال مع مَن له أم وجدّة ؟ ثم اتفقوا جميعاً وبايعوا محمد بن المعتضد بالخلافة ولقبوه القاهر . وقد عذّب القاهر ام المقتدر ونكّل بها فعلّقها برجلها الواحدة وجعل يصفعها بيده على المواضع الغامضة من بدنها يريدها على إظهار الذهب . فلم يكن عندها اكثر

مما وجده قبل صفعها . ثم صادر كل ما كان عند اولاد المقتدر وعند امهاتهم من الذهب . قيل ان ام المقتدر سبقت فاصطنعت عند القاهر صنائع جليلة وافرة يوم كان مسجوناً في البلاط اذ كانت تُدخل اليه الطعام والشراب والاطايب والجواري . وكثيراً ما كانت تُخرجه من سجنه وتُجلسه في مكان يشرف منه على ولائم ابنها ويستمع (١٧٧) اصوات الغناء والطرب . ولكنه لما تولى الخلافة قابلها بمثل هذه المعاملة الشائنة .

اما مؤنس واحزابه فعلى تعوّدهم استحقار الخلفاء خافوا على انفسهم فاتخذوا جميع حرّاس البلاط من رجالهم وقضوا ان يفتّش كل من يدخله رجلاً ام امرأة لئلّا يأتي احد برقعة الى الخليفة تتعلق باحوالهم . وبلغ بهم التحفظ حتى انهم لما حُمل الى القاهر يوماً قدرٌ مملوء لبناً مدّوا فيه يدهم ليفتّشوه . ولذا اوقع الله العادل اختلافاً ما بين الجنود وبين مؤنس وسائر الاقطاب وانهزموا الى البريّة . فانتهز القاهر الفرصة وفتك بهم قاطبة واستتبت له الخلافة . ثم أخرج من البلاط جميع مَن سبقوا فابتاعوهم من مطربين ومطربات وعبيدٍ وجوارٍ وباعوهم من التجار دون قيد او شرط يمنعهم عن الغناء . وقضى القاهر على الكثيرين من الزعماء والعظماء بالضرب وابتزاز الاموال حتى أصبح الباقون خائفين كأنهم على قوسَي قاب . وجعلوا يلقنون العجائز والشيوخ ليقذفوا على العامّة اخباراً ملفقة تتعلق بعبيد القاهر الذين كانوا يحرسونه ليل نهار وبقوّاده وضباطه مؤدّاها الحذر من الخليفة لئلا يهلكهم . ثم لقنوا المنجمين والسحرة كي يقولوا اذا سُئلوا ما قالوه هم . ولما استيقنوا تأهب القاهر للتنكيل بهم باغتوه ليلة وهو سكران وفقأوا عينيه كلتيهما ولاذوا بالفرار . وتمّ ذلك عام ٣٢٢ للعرب (٩٣٣م) وشوهد القاهر بعد اعوام يقوده رجل وهو يستعطي على باب المسجد الكبير .

بعد القاهر الراضي بن المقتدر

تولى ست سنوات وعشرة شهور . وقد فكّه الاقطاب من سجنه وبايعوه بالخلافة . ويقال انه هو الذي أمر (١٧٨) ان تفقأ عينا القاهر . وفي السنة ٣٢٣ للعرب (٩٣٤م) حدث حريق هائل في بغداد بجوار الكرخ أتلف بضائع وافرة ودوراً كثيرة . فأمر الراضي ان يؤدّوا من خزائنه ثلاثة آلاف دينار للتجار الذين

تلفت بضائعهم وعشرة آلاف دينار الذين خربت بيوتهم كي يجددوا بنيانها. وبعد قليل هبطت كذلك نار في ذلك الجوار. وفي السنة عينها تراكمت الثلوج في بغداد.

وفي السنة ١٢٤٩ لليونان (٩٣٨م) مرض قسطنطين ملك الروم وشعر بدنو الاجل فاستدعى رومانس صهره ووضع له تاج المملكة بيده. وفي السنة ٣٢٦ للعرب (٩٣٧م؟) وجه الملك سفيرًا الى الراضي في رسالة دُوّنت بالرومية بحروف ذهبية وكُتب شرحها بالعربية بحروف فضية شفعها بهدايا ثمينة وآنية ذهبية وفضية مرصعة بحجارة كريمة. وهذه فاتحة الرسالة: «من رومانس وقسطنطين واسطفانس وقسطنطين ملوك الروم العظّام الى فخامة سلطان المسلمين المعظم سلام. بما اننا ثابتون على مودّتك ثباتًا وطيدًا فقد وجّهنا سفيرنا في بعض الهدايا توطيدًا لرغبتنا في مودّة اخوّتك واثقين بانك تتقبل ذلك بكل طيبة خاطر». الى غير ذلك من الكلمات المسهبة الداعية الى الصلح والوئام.

رحّب الخليفة بالهدايا ووجّه هو كذلك سفيرًا في هدايا وحمّله رسالةً افتتحها بقوله: «من عبدالله ابي العباس الراضي إمام الدين امير المؤمنين الى رومانس وقسطنطين واسطفانس وقسطنطين زعماء الروم سلام. رحّبنا بهداياكم ووجّهنا اليكم طبقًا لرغبتكم سفيرنا فلانًا تكريمًا لكم وتأييدًا لعقد الصلح».

ولما جلس رومانس ملك الروم أقبل سيمون البلغاري ثانيةً الى قسطنطينية وأحرق بلاد تراقية ومقدونية وأتلفها. وحاصر ادريانوبوليس ودوّخها. فتذرّع رومانس بشتّى الذرائع والهدايا حتى صالحه. وكتب سيمون يريد مواجهته تأييدًا (١٧٩) للصلح. فأعدّ الملك مكانًا ملائمًا في البحر وتقابلا في المراكب وأيّدا عهود المحبة التامة بينهما.

ولما اطمأن الروم في بلاد المغرب وجّهوا أحاظهم نحو المشرق فزحفوا عام ١٢٥٣ لليونان (٩٤١م) ووصلوا الى كفرتوت وغزوا البلد كله وانقلبوا عائدين. وفي السنة ٣٢٩ للعرب (٩٤٠م؟) تفاقمت الامراض على الخليفة الراضي وبذل سنان ابن ثابت الجهود في معالجته فلم يستفد. وكان للخليفة المشار اليه مملوك تركي اسمه زيرك وفي هذه السنة وعك ومات. فبلغ الكمد من الخليفة حتى انه أمر بالقاء اربعمائة خابية من الخمر العتيقة الممتازة في دجلة حدادًا عليه وما تم ان توفي هو كذلك.

بعد الراضي المتّقي بن المقتدر

تولّى ثلاث سنوات وشهرًا واحدًا . وفي السنة ٣٢٩ للعرب (٩٤٠م) وهي السنة الاولى لخلافة المتقي حدث غلاء شديد في بغداد حتى بيع كور الحنطة بمائة وثلاثين دينارًا ذهباً . وأكل الناس النخالة والعشب. وحدث كذلك وباء فظيع حتى انه دُفن في قبر واحد عدة من الموتى دون صلاة. وفاض نهر دجلة وأتلف دورًا كثيرة واشجار نخل وافرة وغير ذلك .

وفي السنة ١٢٥٣ لليونان (٩٤٢م) زحف الروم كذلك الى قيليقية وأجلوا من بلد حمشوش خمسة عشر الف نسمة واحرقوا القرى وانطلقوا . واشتدّ الجوع في بغداد حتى بيع كور الحنطة بمائتين وعشرة دنانير ذهباً . وبلغ سعره ثلاثمائة وسبعة عشر دينارًا ذهباً . وأكل الناس جثث الموتى . وانفلق جسر بغداد وغرق خلق كثير في دجلة. وفي القابل وصل الروم الى ميافرقين وارزن ونصيبين وأجلوا خلقاً كثيرًا واحرقوا الضياع وانصرفوا .

وفي السنة ٣٣١ للعرب (٩٤٢م) وجّه ملك الروم سفيرًا الى الخليفة المتقي يطلب المنديل الذي في بيعة الرها وهو الذي مسح به ربنا يسوع وجهه وصارت صورة وجهه فيه وسيّره (١٨٠) الى ابجر الذي كان يروم ان يشاهده . ووعده إن أرسل المنديل اليه أطلق عددًا غفيرًا من الاسرى العرب . فاستفتى المتقي فقهاء المسلمين في هل يجيز الشرع ان نعطي المنديل للمسيحيين ام لا ؟ فقالوا : اجل يُفرَض علينا فرضاً لازباً ان نتبرّك بهذا المنديل . غير انه يجب التخلي عنه للروم انقاذًا للمسلمين المتقلبين في العوز والجوع والعري .

وفي هذا الزمان اشتدّ القائد توزون في بغداد حتى خافه الخليفة المتقي وانهزم الى الرقّة في نسائه وعبيده واقام بها مدةً . فارسل اليه توزون يعاتبه بسبب انتزاحه عن كرسيه وأقسم له بالأمان حتى اغواه وحمله على العودة الى بغداد وسار الى استقباله في حشد من الجنود . ثم نزل وقبل الارض بين يديه ومثل امامه راجلاً . واضطرّه الخليفة ان يركب. ولما كان توزون الخائن مضمرًا الغدر بالخليفة اشار الى اصحابه فاحاطوا به وبحاشيته حتى وصل الى باب البلاط فاستلّوا السيوف وارادوه على التنزّل عن الخلافة وإلّا فتكوا به.

فاضطر الخليفة ان يمتثل الأمر واشهد عليه الشهود . وبعد هذا مضوا به الى البلاط وحبسوه وأحضروا عبد الله بن المكتفي وبايعوه بالخلافة ولقبوه المستكفي وتمَّ ذلك في السنة ٣٣٣ للعرب (٩٤٤م) .

بعد المتقي المستكفي بن المكتفي

تولى سنةً واحدةً واربعة اشهر . وبرز في عهد خلافته شعوب مختلفة من عيلاميين وصقالبة وغزّ ووصلوا الى اذربيجان ودوَّخوا مدينة بردعة وقتلوا زهاء عشرين الف نسمة وانصرفوا . وتغيَّر الاقطاب على المستكفي فقصدوا نحوه يوماً كالوف العادة وهو مستوٍ على عرشه وجثوا على الارض امامه وقبَّلوا يده ووقفوا . ولما تمَّ عددهم وافى آخرهم وقبَّل الارض ودنا من الخليفة فمدَّ له يده متوهماً انه سيقبلها لكن الجاني قبض عليها (١٨١) واجتذبها وزحزح الخليفة عن عرشه وبطحه على وجهه وازدحم رفاقه على الخليفة واخرجوه ماشياً من البلاط ومضوا به الى دار معزّ الدولة القائد وحبسوه . واستدعوا الفضل بن المقتدر وبايعوه وكنوه المطيع .

بعد المستكفي المطيع بن المقتدر

تولى تسعاً وعشرين سنة وخمسة اشهر . ولما بايعوه بالخلافة استدعوا المستكفي فسلم عليه وجاهر بتنزّله له عن الخلافة وانزوى في البلاط . وفي السنة الاولى لخلافة المطيع وهي السنة ٣٣٤ للعرب (٩٤٥م) تحرَّش ناصر الدولة ابن حمدان صاحب الموصل بمعزّ الدولة الذي ولَّى المطيع الخلافة. واحتلَّ الناصر جهة بغداد الشرقية واحتل المعزّ جهتها الغربية . ثم قوي المعزّ واحتلَّ الجهة الشرقية وانهزم الناصر الى نواحي الموصل . واستحوذ الهلع على اصحابه في تلك الجهة وتخوَّفوا سيف المعزّ فبادروا الى الهزيمة نحو الموصل رجالاً ونساء . وقضى الكثيرون في الطريق بسبب ما انتابهم من العطش والجزور ولا سيّما النساء غير المتعوّدات السير. وشوهدت امرأة نبيلة بجانب الطريق متشحة بثياب فاخرة وبيدها صرّة تولول قائلة: خذوا اربعمائة دينار واسقوني جرعة ماء . فلم يكترث لها احد ولم يتقدم ليأخذ الصرّة مجاناً من يدها . اذ كان كلّ واحد مهتمّاً بالهزيمة لا غير . وقد باد في تلك الهزيمة عشرة آلاف نسمة . ولمّا سمع

المعز بما صار نادى بالامان وبعث بالماء الى المنهزمين واعادهم الى بغداد . قيل ان البغداديين لم يشاهدوا كارثة كتلك الكارثة. وكان يومئذٍ في بغداد رجل معتوه يتحدث بالمستقبلات كيفما كان فسبق ينادي في الازقة ويقول : عرّسوا نساءكم يا اهالي بغداد ان يمشين حافيات وعوّدوهنّ الشفاء لان البلاء قريب !

وفي هذه السنة حدث غلاء شديد في بغداد (١٨٢) وبيع كور الحنطة باربعمائة دينار ذهباً والف رطل بغدادي من التمر بستين ديناراً . وكانت الدور والكروم والحدائق تباع بلقمة وارغفة من الخبز. وكان البعض يلتقطون حبات الشعير من زبل الخيل والجحاش ويلتقمونها . وشوهدت نساء كثيرات يشوين اولادهن في التنور ويأكلنهم. فصدرت الاوامر بقتلهن . وقضى الكثيرون جوعاً وأكلتهم الكلاب اذ لم يكن من يدفنهم.

وفي السنة ١٢٦١ لليونان (٩٤٩ م) وهي السنة ٣٣٧ للعرب زحف الروم الى سوريا ولاقاهم سيف الدولة امير حمص وحلب فانكسر سيف الدولة واحتل الروم مرعش ووصلوا الى طرسوس وقتلوا وغزوا وانصرفوا. وفي السنة ٣٣٩ للعرب (٩٥١ م) حشد سيف الدولة ثلاثين الفاً من الخيالة والرجالة وزحف الى بلاد الروم وغنم غنيمة وافرة . ولمّا رجع أدركه الروم وأغلقوا عليه المضايق وقتلوا واستأسروا جميع عسكره واستردّوا الغنيمة . وهلك رجال سيف الدولة وخيله وبغاله وخزائنه وامواله ولم يفلت الّا في عدد يسير.

وفي هذه السنة نُقل الحجر الأسود الذي كان الحجّاج يتبركون به في مسجد مكة. وقد ظلّ ثلاثاً وعشرين سنة بيد القرامطة الخوارج في الجنوب . فقبضوا خمسين الف دينار وردّوه الى مكانه مكسوراً قطعتين لحموهما بقضبان فضية حتى يومنا .

وفي هذا الزمان حدث رخص وافر حتى بيع عشرون رطلاً بغدادياً من الخبز بدرهم واحد.

وفي السنة ١٢٦٨ لليونان (٩٥٧ م) وهي السنة ٣٤٥ للعرب أبحر الروم الى طرسوس واحرقوا ضياعاً كثيرة وفتكوا بالف وثلاثمائة من العسكر العربي وانطلقوا . ثم حشد سيف الدولة عساكره وزحف الى بلد الروم ووصل الى خرشنة وسبى واحرق وقتل . ثم توجه الى مدينة آطنة بقيليقية (١٨٣) واقام

فيها اياماً وحرّض امير طرسوس ليناوش الروم وعاد الى حلب. فتتبّعه الروم من ناحية اخرى ووصلوا الى ميّافرقين وغنموا وأجلوا اهاليها واحرقوا الضياع وانصرفوا.

وفي السنة ٣٤٦ للعرب (٩٥٨ م) ظهر جراد كثير أفسد الزروع. وحدث وباء داء الخوانيق حتى ان سارقاً باغته الموت وهو ينقب بيت احد اغنياء بغداد. وذُكر عن قاضٍ لبس ثيابه السوداء ليخرج الى دار الحكم كالوف عادته ولبس حذاء رجله الاول فدهمه الموت قبل ان يلبس الحذاء الثاني. وهبطت أمطار كثيرة في الشتاء. وحدث جزرٌ في البحر المتوسط نحو ثلاثمائة ذراع وانكشفت جبالٌ وجزائر كثيرة مجهولة منذ القِدَم. وحدثت بعد سنة زلزلة هائلة قوّضت اماكن شتّى واختنق الكثيرون تحت الردم في جبال الديلم وقاشان.

ووصل الروم الى آمد وارزن وميافرقين واحتلّوا حصوناً كثيرة وفتكوا بالف وخمسمائة نسمة. ثم زحفوا بعد ايام وجيزة الى جبات حلب ولاقاهم سيف الدولة عند دلوك فانتصر الروم واستأسروا انسباءه واقرباءه وقتلوا اغلب رجالته ولم يفلت منهم الّا اليسير. ودوّخ الروم كذلك سميساط واحرقوها.

وفي السنة ٣٤٧ للعرب (٩٥٩ م) أغمض ناصر الدولة امير الموصل عن ارسال مال الخراج الى بغداد فزحف اليه الامير معزّ الدولة من بغداد. فانهزم الناصر الى نصيبين فلحقه معزّ الدولة ففرّ الى ميافرقين ولم يمكث بها فاقبل الى حلب مستنجداً اخاه سيف الدولة. فرحّب به وتذلّل له حتى توصل ان يخلع له حذاءه بيده (١٨٤).

وفي السنة ٣٤٨ للعرب (٩٦٠م) قبض الروم على محمد بن ناصر الدولة وعلى بعض عبيده ببلد حلب وعلى ابي الهيثم القائد وعلى عبيده في كفرتوت. واقبلوا الى بلد طرسوس وقتلوا واسروا الكثيرين. ودوّخوا قلعة الهارونية وفتكوا بمن فيها واخربوها وأجلوا النساء والصبيان.

وفي تلك السنة وهي السنة ١٢٧٢ لليونان (٩٦١م) توفي الملك قسطنطين وخلفه ابنه رومانس فعامل اقطاب الحكومة والاعيان افضل معاملة وأبدى للجميع المروءة والشهامة ووجّه في السنة عينها ابرانيش شومشكين القائد ونيقيفور

الدمستق الى بلاد العرب فسارا الى آمد وفتكا بمائة محارب وقبضا على ثلاثين رجلاً وأحرقا الغلال وانقلبا راجعين . فحشد سيف الدولة امير حلب ثلاثين الفاً وزحف الى خرشنة وسبى سبية وافرة . ولما اعتزم الرجوع اخذ الروم عليه المضايق فلم يتيسّر له النجاة الاّ بثلاثمائة من عبيده ليس غير . اما بقيتهم فمنهم مَن قتلهم الروم ومنهم من قبضوا عليهم. واسترجعوا الغنائم واحتووا على خيل سيف الدولة بن حمدان وعلى سلاحه وخزائنه. وقُتل من مشاهير رجاله في هذه السنة حامد بن نمس سباخان وابو حصين القاضي .

وفي هذه السنة ظهر جراد كثير ببلد الموصل وحدث غلاء وجوع وبيع كور الحنطة بالفين ومائتي درهم . وكور الشعير بثمانمائة درهم. وانهزم الكثيرون الى سوريا وبغداد وسار المسيحيون الى مدن ساحل البحر . وفي هذه السنة تأسست في طرابلس كنيسة فخمة تيمّناً باسم مار بهنام الشهيد المجيد .

وفي السنة (١٨٥) ٣٤٩ للعرب (٩٦٠م) لما كان الحجّاج المصريون عائدين من مكة ونازلين في مكان لم تجرِ فيه المياه منذ امدٍ بعيد فاض غدير مياه ليلاً وهم راقدون وجرفهم باجمعهم مع اثقالهم وزجّهم في البحر المتوسط وأهلكهم قاطبة .

وفي هذه السنة جاهر بالاسلام نحو مائتي الف من خيام الاتراك في المشرق .

وفي السنة ٣٥٠ للعرب (٩٦١م) خرجت قافلة عربية كبيرة من انطاكية متوجهة الى طرسوس فانقضّ عليها كمنا الروم وقتلوا البعض واستأسروا اغلبهم. فثار العرب وزحف نجا عبد سيف الدولة الى بلد الروم من ناحية ميافرقين وغنم غنائم وافرة مع الفي نسمة اوثق منهم خمسمائة ومضى بهم .

وفي السنة ١٢٧٤ لليونان (٩٦٣م) وهي السنة ٣٥١ للعرب وصل نيقيفور الدمستق في مائة وستين الف فارس الى قيليقية وحاصر عين زربة وحاربها حرباً شديدة حتى أيس اهاليها العرب من مساعدة تأتيهم وطلبوا الأمان على حياتهم وعلى اموالهم ليسلّموا القلعة . خصوصاً لانهم شاهدوا الروم كادوا يخرقون السور الذي بجانب الجبل. فدخل نيقيفور وعرف انهم كانوا على وشك احتلال البلد دون عناء . فندم على ما فات وامر ان يحتشد الاهالي قاطبةً في

المسجد وانّ من يتخلّف يؤخذ رأسه. وعند الصباح دخل الروم المدينة راجلين وفتكوا بكلّ من وجدوا في البيوت والشوارع رجالاً ونساء وصبيانًا وجمعوا من السلاح اربعين الف درع سوى السيوف والقسيّ وقطعوا اربعين الف شجرة نخل .

ثم أمر نيقيفور ان يخرج جميع من في المسجد ويذهبوا حيثما شاؤوا ومن بقي حتى المساء يُقتل . فخرجوا (١٨٦) يزحم بعضهم بعضاً وهلك بالزحمة جماعة من رجال ونساء وفتيان وقضى البقيّة في الطريق وهم مازون على وجوههم لا يدرون ابن يذهبون . ثم قوّض نيقيفور المسجد وذكّ سورَي المدينة ودورها . وظلّ اثنين وعشرين يومًا في قيليقية وذوّخ اربعة وخمسين حصناً بعضها بالسيف وبعضها صلحاً .

قيل لمّا خرجت النساء العربيّات من احد الحصون صلحاً تحرّش بهنّ بعض الأرمن فثار رجالهنّ واستلّوا السيوف . فسخط نيقيفور الدمستق على المعتدين . ثم فتك الروم باربعمائة رجل وبعدد وافر من النساء . فارتحل نيقيفور ومن معه الى قيسارية بسبب دنوّ الصوم الاربعيني على ان يعود بعد العيد .

اما القائد العربي في طرسوس فحشد اربعة آلاف مقاتل وزحف الى بلاد الروم فانكسر وهلك هو وكلّ من معه وفي جملتهم اخو ابن رباب قائد عسكر طرسوس . ثم زحف الروم ثانيةً الى قيليقية وذوّخوا قلعة سيس واقاموا محافظين فيها وفي سائر القلاع وتركوها وانصرفوا الى حلب . فبرز سيف الدولة لمناوشتهم فانكسر وهلك جميع بني حمدان ولم يفلت الّا سيف الدولة مع القليلين . واحتلّ الدمستق قصره الذي في ظاهر المدينة واستحوذ هناك على ثلاثمائة وتسعين وزنة فضة وعلى الفين واربعمائة بغل وعلى اسلحة جمّة واحرق القصر . ثم حاصر المدينة وأحدث ثغرة في سورها ودخل الروم وظلّوا يقتلون حتى كلّوا وصادفوا فيها الفاً ومائتي روميّ مأسورين فاطلقوهم وأجلوا اكثر من عشرة آلاف فتى وفتاة وحملوا ما استطاعوا من الغنائم واضرموا النار بالبقيّة . وقصدوا آبار الزيت وافرغوا فيها المياه حتى طفا الزيت واندلق واندلف على الارض وزال . ثم توضّوا المساجد وظلّوا يدمّرون (١٨٧) تسعة ايام .

ولمّا عزلوا على الرحيل تقدّم ابن اخت الملك رومانس وعارض نيقيفور وقال : لن نرحل قبل ان نفتح القلعة . ولم يرَ نيقيفور ان يقاومه بل قال

له : اليك القلعة اذهب واحتلها . ولما دنا ابن اخت الملك من بابها القوا عليه حجرًا من النافذة التي فوق الباب فالتفت لينهزم ففتح اصحاب القلعة الباب وطارده رجل ديلمي اسمه باشا وطعنه بالرمح بين كتفيه وانفذه من صدره وقتله . فعاد مَن كان معه وحملوا الجثة ومضوا بها الى نيقيفور فتأثر كلّ التأثر وانتقم لابن اخت الملك بان فلق رؤوس الف ومائتين من الأسرى العرب الذين معه وترك البلد وعاد الى العاصمة ولم يَعبث في قرى حلب اصلًا بل أوصى الفلاحين ان يدمنوا فلاحة اراضيهم معتقدًا ان البلاد هي للروم ومؤملًا العودة اليها .

وسار آننز الف ارمنيّ الى اطراف الرها وغنموا الف خروف وخمسمائة ثور وعشرة رجال عرب وانقلبوا راجعين. ولما قويت شوكة الروم وعوّلوا على الرجوع تخوّف اهالي ارمينية الكبرى وهم مسيحيون ان يأتي العرب وينتقموا منهم فانهزموا الى الحدود واستوطنوا سبسطية قبدوقية ونموا هناك نموًا وافرًا . ثم اتاهم الروم في حصون قيليقية التي انتزعوها من العرب . وجعل الارمن الرّجالة يقاتلون بجانب الروم في كلّ الحروب ويحرزون النصر والغلبة .

ولما عاد نيقيفور في جيوشه من حلب وبيتوا سينادو باغتهم نعي الملك روماناس وأجمع الاقطاب مع شومشكين على المناداة بنيقيفور الدمستق ملكًا عام ١٢٧٥ لليونان (٩٦٤ م) (١٨٨) . ولما دخل قسطنطينية وتُوّج ملكًا نصب شومشكين دمستقًا ووجّهه الى مناوشة العرب . فزحف الى المصيصة وحاصرها سبعة ايام واجرى في سورها ستين ثغرةً بنيّف وتعذّر عليه امتلاكها فاحرق ما حولها وحول اطنة وطرسوس . ثم انصبّ الروم على خمسة آلاف كانوا قادمين من طرسوس ليساعدوا اهل المصيصة واتلفوهم قاطبة وانصرفوا .

وحدث غلاء شديد في قيليقية وانهزم اغلب اهاليها العرب الى دمشق . وانتشر الغلاء كذلك في حلب وحرّان والرها . وزحف الدمستق في القابل الى قيليقية وحاصر المصيصة ثلاثة اشهر فامتنعت عليه . فضرب الجزية على اهاليها وانصرف بسبب فشوّ المرض والموت في عسكره .

وفي السنة ١٢٧٦ لليونان (٩٦٥م) وهي السنة ٣٥٤ للعرب غادر نيقيفور الملك قسطنطينية الى قيسارية قبدوقية وحاصرها . ووجّه اليه اهالي طرسوس

والمصيصة رسالة في التسليم · فازدرى بهم وقال لمندوبهم : انكم بعد ما قطعتم الرجاء من مساعدة ملوككم العرب واكلتم الكلاب الميتة بسبب الجوع وأتلفكم الوباء اقبلتم ترومون التسليم والصلح ريثما تستجمعون قواكم وتعودون الى العصيان . كلّا . ليس لكم عندي الّا السيف . قال هذا وطرد المندوب بعدما احرق الرسالة على رأسه واحترقت لحيته .

قيل ان العرب كانوا يشيّعون كلّ يوم ثلاثمائة جنازة في طرسوس . واذ ذاك حشد نيقيفور جنوده وتوجه الى المصيصة وشدّد عليها الحصار حتى دوّخها يوم السبت ١٣ رجب من تلك السنة وأجرى بها مذبحة عظيمة . وقبض على مائتي الف من رجال ونساء وفتيان وسيّرهم الى بلاد الروم . ثم توجّه الى طرسوس وحاصرها . فتوسّل اليه الاهالي وهم يبكون ليعفو عنهم فيفتحوا له الابواب(١٨٩) فتأثر الملك لبكائهم واعطاهم الامان على حياتهم وعلى اموالهم. ودخل المدينة واستدعى عظماء العرب وأعدّ لهم الطعام على مائدته ورخّص لهم ان يأخذوا ما استطاعوا من اموالهم وأسلحتهم ووجّههم الى انطاكية . وخيّر البقية الباقية في الذهاب الى حيث شاؤوا . وسيّر معهم ثلاثة بطارقة ليحرسوهم في الطريق ويدفعوا عنهم كلّ تعدّ . واتفق بعض الارمن فتعدّوا على العرب فسخط الملك وأمر بقطع ايديهم ومناخيرهم وصفعهم صفعات اليمة . وبعث المحافظين واوصاهم ان يوصلوا العرب الى اصحابهم سالمين .٣١اما مسجد طرسوس فقد حوّله الملك اصطبلًا لدوابه واقام لها بطريقاً مع خمسة آلاف فارس ونصب بطريقاً ثانياً في المصيصة.وقد عَمرت طرسوس بالاهالي واستفحل الرخص فيها حتى بيع اثنا عشر رطلًا خبزاً بدرهم واحد . وعاد اليها الكثيرون من اهاليها العرب واعتمد بعضهم وتنصّروا وبقي البعض الآخر على ما كانوا. غير ان اولادهم تنصّروا جميعاً .

وفي السنة التالية وصل نيقيفور الى آمد وحاصرها ولم يتمكن من الاستيلاء عليها . ثم انطلق الى انطاكية وحاصرها اياماً كثيرة فامتنعت عليه فاخرب الدساكر والحدائق المجاورة لها وانطلق .

وبعد سنة توفي سيف الدولة امير حلب بداء الحصاة وتوفي كذلك معز

الدولة امير بغداد بداء الاسهال وخلفه ابنه عزّ الدولة . وفي السنة ٣٥٦ للعرب عينها (٩٦٦ م) انقضّ ابو تغلب على ابيه ناصر الدولة امير الموصل وهو راقد في فراشه وبعث فحبسه في قلعة كواشي . واقام رجلا كرديا ورجلا ثانياً كان قد طرده الناصر غير مرة ليحرساه ويكتما عنه كلّ الاخبار . وعندما كان يستخبرهما (١٩٠) عن اولاده وعن ابنه الكبير الذي حبسه كانا يقولان له : هل تريد طعاماً ام شراباً ؟ لا تطالبنا باكثر من هذا . قيل انه لما كان يوماً يتمشى معهما على الجسر انتبه وتفرّس في دجلة وقال لهما : هل تنويان ان تغرّقاني ؟ قالا له : كلّا بل سننقلك الى قلعة كواشي . فقال لهما : كنتُ انوي ان احبس فيها ابني فسبقني . وقرّر ابو تغلب ان يؤدّي ما كان يؤدّيه ابوه من الخراج لبغداد . وحالفه عزّ الدولة امير بغداد . وتولّى ابنه ابو المعالي مكان سيف الدولة امير حلب وحمص .

وفي السنة ١٢٧٩ لليونان (٩٦٨م) وهي السنة ٣٥٧ للعرب زحف فريق من الخراسانيين في ثلاثة آلاف من عرب انطاكية الى قبدوقية فلاقاهم اربعون الفاً من الروم وفتكوا بالكثيرين من الخراسانيين والانطاكيين وقبضوا على الكثيرين . فجرد الانطاكيون واجهزوا على بطريرك الخلقيدونيين (الانطاكي) وقوّضوا اغلب كنائس انطاكية . ثم زحف الروم الى سروج وغنموا ثلاثمائة عربي وعدة وافرة من البهائم وارتحلوا . ومات ناصر الدولة في تلك السنة محبوساً في كواشي ونُقل الى تلّ التوبة تجاه الموصل وشيّعه اولاده جميعاً زعم حفاة ودفنوه هناك .

وفي هذه السنة عثروا لابي العلاء سليمان بن وهب بن سفيان الفقيه المسيحي البغدادي على ثلاثمائة وخمسين الف درهم عند احد الصيارفة وعلى اثني عشر الف خابية خمر في بيته فاستنزفوا منه مائة واربعين الفاً من الفضة وأغمضوا عنه .

واختلف الخراسانيون والعرب هذه السنة في انطاكية واقبل الروم وسبوا من ضواحيها اثني عشر الفاً من رجال ونساء وفتيان وفتيات .

وبعد سنة اعني السنة ١٢٨٠ لليونان (٩٦٩م) وصل الروم الى كفرتوت وأجلوا ثلاثمائة شخص في غنائم وافرة . وساروا الى حمص وشاهدوها (١٩١) خالية من السكان فاضرموا فيها النيران وانصرفوا . وفي السنة عينها حدث غلاء في بغداد وبيع كور الحنطة بتسعين ديناراً . وظهر جراد كثير ببلد الموصل .

وما عتم ان زحف نيقيفور ملك الروم وحاصر انطاكية ثم سار الى طرابلس وأحرق كل ما في ضواحيها من الابنية . وتوجه الى قلعة عِرْقة الحصينة واحتوى على شيءٍ كثير مما فيها ثم اقبل وحلّ ما بين حمص وحلب واقام شهرين يغزو ويسبي دون ان يعارضه احد . وقد احصي مَن عنده من الأسرى فكانوا الفاً من فتيانٍ وفتياتٍ ولم يقبض على شيخ او عجوز بل قتل البعض وأبقى على البعض الآخر . ولولا تفشي الوباء عسكرهُ لدوّخ حلب وانطاكية معاً. وكان ينوي التوجه الى اورشليم لكنه لم يتيسر له ذلك بسبب مما احاق بجنوده من الوهن والكلال بعد ما قتلوا من قتلوا وغنموا ما غنموا مما فاق حدّ الكثرة.

وفي السنة ١٢٨١ لليونان (٩٧٠م) وهي السنة ٣٥٩ للعرب اتفق الروم سرّاً مع نصارى حصن لوقا المجاور لانطاكية فاشاروا عليهم ان يذهبوا الى انطاكية ويتظاهروا بانهم منهزمون من وجه الروم ويقيموا هناك ريثما يصل الجيش الروميّ فيساعدوه على فتح المدينة. ولما تمّ لهم ذلك وصل اخو نيقيفور الملك بعد شهرين في أربعين الفاً وأحدقوا بالسور وساعدهم اهالي حصن لوقا من ناحية الجبل . فدخل الروم انطاكية وقتلوا فيها خلقاً كثيراً ثم افرزوا الشيوخ والعجائز والصغار وخيّروهم في الرحيل الى حيث شاؤوا وابقوا على عشرين الفاً ونيف من الشبان والشابات والفتيان ورحّلوهم الى بلاد الروم. ثم وجهوا عشرة آلاف فارس الى حلب وتطوّع الحلبيون بتأدية جزية معاومة للروم كُل سنة . فاخذ الروم منهم ثمانية اشخاص بمثابة ودائع وانصرفوا.

واشتهر في تلك الغضون الملك نيقيفور في حروبه شهرة واسعة (١٩٢) بحيث اجتلّ كل مدن قيليقية وانطاكية وسوريا وهابه العرب كافة . غير انه أعجب بنفسه واقترن بتوفانة الملكة ارملة الملك رومانس على كرهٍ منها . ولم يكتفِ بذلك بل حاول ان يخصي ابنيها باسيل وقسطنطين ليقضي على ذريتها ويتسلسل ملوك الروم من ذريته. وما ان وقفت توفانة على دخيلته حتى فاضت احشاؤها على ابنيها فعقدت مؤامرة مع شومشكين الدمستق سراً وادخلته بزيّ النساء مع فريق من الابطال الى كنيسة البلاط ليلة عيد الميلاد الخلاصيّ . ثم اخبرت نيقيفور انها استدعت النساء صواحبها ليقضين عندها تلك الليلة في

الكنيسة لتسلّي معين. ولما استيقنت انه غرق في نومه فتحت الباب لشومشكين واصحابه فدخلوا وفتكوا به في فراشه وقضوا كذلك على حياة سبعين رجلاً او اكثر من حراسه . هذا ما رواه المؤرخون الاثبات . اما ما ذكره المغبوط البطريرك ميخائيل نقلاً عن تاريخ اغناطيوس مطران ملطية وهو انها قتلته لانه لم يدمن مضاجعتها فلا صحة له . والبرهان ان توفانة بعد قتل نيقيفور لم تقترن بشومشكين الذي قتله ولا بغيره .

وفي السنة ٣٦٠ للعرب (٩٧٠م) صُودِف رجلان عريان مقتولان ليلاً في المسجد المجاور لدير رهبان مار ميخائيل النساطرة بالموصل . فاستنزف ابو تغلب بن ناصر الدولة بسبب ذلك مائة وعشرين الف درهم من النصارى.

وفي السنة ٣٦٢ للعرب (٩٧٢م) زحف الدمستق في جيشه الى نصيبين وقتل خلقاً كثيراً. وظل ٢٢ يوماً يسبي ويغزو ويخرب، ولما عوّل على التوجه الى آمد كتب صاحبها هزرمرد الى ابي تغلب امير الموصل فسيّر اليه عساكر كثيرة مع اخيه وحاربوا الروم وتغلبوا عليهم. وقبضوا على الدمستق وأرسلوه أسيراً (١٩٣) الى الموصل وانهزم اصحابه الروم. وقد ابدى ابو تغلب للدمستق عطفاً جزيلاً رغبةً منه في توطيد الحبّ مع الروم. غير ان دملة خبيثة تفشت فيه وقضت على حياته.

ولما بلغ اهالي بغداد ما حلّ بنصيبين من السبي والقتل هاجوا وماجوا وثاروا على الخليفة المطيع وجعلوا يستهزئون به بسبب تغاضيه عن المكافحة في سبيل العرب واطلقوا السهام في داره وعلى عبيده . وسار بعض الاعيان المشاهير الى الكوفة يريدون الامير عز الدولة والحّوا عليه كي يجهز العسكر ويوجههم ليحاربوا الروم.

وفي السنة ٣٦٣ للعرب (٩٧٣م) أُصيب الخليفة المطيع بداء الفالج وثقل لسانه وتعذّرت عليه الحركة . فاضطره سبكتكين احد عظماء بغداد ان يخلع نفسه ويبايع ابنه الطائع بالخلافة .

وفي هذه السنة مات الطبيب ثابت بن سنان بن ثابت الحرّاني الصابئ وخلف تاريخاً معتبراً بدوّنه منذ السنة مائتين وتسعين للعرب حتى آخر ايامه. ولولا تاريخه هذا لأمست اغلب اخبار ملوكهم طيّ النسيان . فهو الذي حفظها وعنه نقل المؤرّخون من بعده .

(له صلة)

ما قبيل النهضة

الشيخ عبد الغني النابلسي والشيخ احمد الحرّ

بقلم فؤاد افرام البستاني

لا شك في ان البذور الاولى في نهضتنا الحديثة جاءتنا من اوربة على يد خرّيجي المدرسة المارونية في رومة ، تلك المدرسة الشهيرة التي على مثالها أُنشئت مدرسة عين ورقة ، ام المدارس الكبرى في لبنان ، بل في الشرق الادنى بكامله ، اجنبيةً كانت ام وطنية . وقد نعود الى هذا الموضوع فنفصّل ما كان من اثر خرّيجي رومة في احياء الدروس الاستشراقية في عواصم اوربة ، وعملهم الدائب في تطبيق مبادئ البحوث العلمية الغربية على لغات الشرق وآدابه ومعارفه ، ومآتيهم الموفّقة في تعزيز الصِلات بين لبنان واوربة ، على عهد المعنيين خاصةً . حتى إمكننا ان نعدّهم ممهدي السبيل لهذه النهضة السياسية الثقافية التي تنعم اليوم ببواكيرها بلاد العربية جمعاء .

بيد أن من حقِّ البحث علينا — قبل ان نتتبع هذا العمل المُنتج في آثار مَن اتصلوا به مباشرةً من ابناء لبنان فنهضوا باللغة العربية وآدابها مُطبّقين المبادئ الحديثة في عرض الكنوز القديمة — ان نُلِمّ ببعض الاوساط الشرقية التي كانت لا تزال على الدروس التقليدية ، والاساليب المتعارَفة ، تعالج الموضوعات القديمة في بيئة مُقفلة وأفق محدود ، فتحفَظَ التُراثَ الثمين من عواصف الفناء ، ولا تجرؤ — او لا يخطر ببالها ان تجرؤ — على تعريضه لنفحات التجدُّد .

ولا يخفى ان علوم اللغة وفنون الادب ، بعد ان انقرض نسل جهابذتها في

العصور العباسية ، لجأت الى حمى الفقه واصول الدين ، فاطمأنت الى القضاة ، والمشايخ .

ولم تلبث علوم الفقه أن شملت مقدّمات تناولت الصرف والنحو واللغة والبيان والعروض ، واستندت الى علوم آلية كالمنطق ومصطلح الحديث ، على نحو ما يظهر في مؤلفات الفقه المتأخرة الزمن ، وآخرُ مثل عليها وأخصر مؤلَّف فيها كتاب « مرجع الطلّاب » لميخائيل عيد البستاني . فغدا القاضي يجمع ، في ثقافته الاساسية ، هذه المعارف كلّها ، فينبغ في احداها ، ما شاء ميله ونبوغه . وكذلك القول عن رجال الدين ، والدين مُستَنِد ، في فهم اصوله وفروعه ، الى اللغة . واذًا فلا غرابة في ان نرى اكثر مَن واصلَ الشغلَ بشؤون اللغة والادب ، في ظلمات الانحطاط ، من رجال القضاء ومشايخ الدين ، يتفكّهون ، في اوقات فراغهم ، بجمع الآثار القديمة وشرحها والتعليق عليها ، او بحلّ المعضلات النحوية ، او بتنسيق المعلومات المتراكمة خلالَ العصور . واذا سما بهم الابتكار فإلى شيء من المنظومات التقليدية يترسّمون بها خُطى الانحطاطيين في منظوماتهم الحكمية والدينية الصوفيّة خاصّة .

وعلى هذا شهدنا شهاب الدين الخفاجي (✝ ١٦٥٨) المصري الأصل ، يتنقّل قاضياً للعسكر في انحاء البلاد العثمانية ، فيختلس اوقات الفراغ ليشرح « درة الغوّاص في أوهام الخواصّ » للحريري .

وشهدنا البديعي (✝ ١٦٦٢) ، قاضي الموصل ، يهتمّ ، على هامش مهمّته في فضّ مشاكل الناس ، بحلّ المشاكل الادبية ، فيجمع مرويّات القوم عن المتنبي وابي تمام ، ويدوّنها في مجلّدين جديرَين بالذكر : « الصبح المُنبي عن حيثية المتنبي » و « هِبةُ الأيام في ما يتعلق بابي تمام » .

ويكون من نتائج ذاك الدوران في البيئة المقفلة أنّ بعض الكتب تنفردُ بحظٍّ غريب من السهر عليها والعناية بها ، فتُصبح هدفاً لأدباء العصر يشرحونها ويعلّقون على شرحها ، ويُحشّون هذا التعليق . وقد لا تكون في اصلها من امهات التآليف في العلم المذكور . من امثال ذلك « كافية » ابن الحاجب في النحو ، التي تمتّعت بعدة شروح اشهرها شرح رضي الدين الاسترابادي البارز

في ثلاثة مجلدات مرصّعة بكثير من الشواهد الشعرية حتى تدفع عبد القادر البغدادي († ١٦٨٢) الى كتابة اربعة مجلدات ضخمة في « شرح شواهد شرح الكافية » اسماها « خزانة الادب ولبّ لباب لسان العرب » وهو كتاب واسع الانتشار حتى في ايامنا هذه .

ومما يدخل في هذا النوع من الشروح والتعاليق ، وان تكن متأخرة عن العصر الذي يهمّنا امره ، حاشية الصبّان († ١٧٩١) على شرح الأشموني للألفية في الصرف والنحو . وشرح الزَبيدي لمعجم الفيروزابادي الذي اسماه « تاج العروس في شرح جواهر القاموس ».

بيدَ أنَّ واحدًا من الادباء المذكورين لم يُحدِث أثرًا شخصيًا في بيئته، ولم يولّد حركةً عقليةً تزول الى التكتّل والإشماع بواسطة الطلّاب والمريدين ، كما نرى في عصور الأدب الحافلة بالحياة والتقدّم . انما ظلّوا يشتغلون في تلك البُؤَر المستقلّة بعضها عن بعض استقلالَ الإمارات الصغيرة والإقطاعات المنفصلة في عصور العثمانيين الاخيرة . وقد يكون من اسباب هذا العجز أنهم لم يبتكروا شيئًا في ايّ عِلم او فنّ ، فلم يدركوا تلك الشُعلة الفكرية التي ما تنفكّ تشعّ بذاتها ، حتى تُلهب الهشيم فالخشب فالمادّة المتحجّرة .

واملُ اقرب ادباء القرن السابع عشر الى حَرّ بيئته ، وإحداثِ شيء من تلك الحركة الفكرية ، على ضآلتها ، كان الشيخ عبد الغني النابلسي « صاحب المقام القُدسي » ، كما يسميه الامير حيدر شهاب في « الغُرَر الحسان » . وما ذاك المقام الّا مقام التصوّف العريق في الطبيعة البشرية ، والاصيل الجذور في الدين الإسلامي منذ الحلّاج ، وابن عربي ، وابن الفارض خاصّةً . ومن هذه الناحية نال الشيخ النابلسي تلك النفحة الشعرية المُشعّة ، على ضعف تعبيرها ، وفقر صورها ، وتقليد أساليبها . الّا انه بزّالفة ابن الفارض — وهو مُخمِّس خمريّته ، وشارح ديوانه ذاك الشرح المستفيض الذي طبعه الكونت رُشيد الدحداح في مرسيلية مقرونًا بشرح البوريني — امكنه ان يعكف على نفسه الغنيّة بالاختبارات الصوفية ، فيفجرُ فيها ينابيع للشعر جديدةً قديمةً تنكبّه عن

مجازات الاحتذاء الانحطاطي ، فيتخلّص من التقليد ألّا في المظهر المسيطر على حياة العصر بكابوس كان النابلسي أعجز من أن يُزحزحه . ومع ذلك ، فقد أحدث ضجة بعيدة الصدى في بلاد الشام بواسطة تلاميذه ومريديه العديدين، وبواسطة خصومه كذلك .

وكان شعره يضطرب بين النظم الجاري في حوادث العصر ، كتأريخه تلك الزلزلة التي هزّت دمشق وما جاورها سنة ١٧٠٥ ، فقال فيها :

ايها الناس جانبوا البغضا ، بينكم ، واشفقوا على المرضى ؛
واتقوا الله واعبدوه ، ولا تهملوا سُنَّةً ولا فرضا .
واتركوا الظلم بينكم ، ودعوا غيبةً صار شرّها محضا ،
والربا ، والزنا بأجمعه ، والزنا ؛ واحفظوا لكم عرضا .
فالرقيب القريب مُطّلعٌ امره ليس يقبل النقضا .
انما الله كيف شاء بنا أرّخوه يزلزل الارضا .[١]

والسموّ الى نفحة التصوّف الأعلى والانجذاب المحض ، غيرَ سالم من غرابة الشطحات التي كانت تقوده احياناً الى الحلول والاتحاد ، كما في قوله في هذه القصيدة الفارضية الاستيحاء والإخراج :

وجودي جلَّ عن اسمي ، وعن روحي، وعن عقلي ،
وعن شرحي ، وتكليفي ، وعن حكمي ، وعن نقلي .
وأمري مُطلقٌ ، حتى عن الإطلاق يستعلي ،
وعن ذات ، وعن وصف ، وعن بعض ، وعن كلّ .
وعلمي ليس يُدركهُ سوى مَن لم يَزَلْ مِثلي .
ولو زال الغطا عن علم اهل العقد والحلّ .
لأضحى علمُهُم ، في بحر علمي ، قطرةَ الطلِّ .
وعِلمُ الجَفْر من علمي ، ومُوسى رَشحةُ البلِّ .
واني هُدهُدُ الأخبا ر للقوم الأولى قبلي .
علِيٌّ الله قيّومٌ بلا شِبهٍ ولا مِثلِ .
وإنّي ذلك القيّومُ ، لما تمّ عن حَملي .
وقد جُرِّدت عن مُلكٍ ، وعن علم ، وعن جهلِ ،

---

١) الامير حيدر شهاب : الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان (طبعة اسد رستم وفؤاد افرام البستاني) ، ١٩٣٣ ، ١ : ٨ — ٩

وعن كيفٍ، وعن أين، وعن كمٍّ وعن ثِقْلِ.
واني لستُ مخلوقاً، ولا شربي ولا أكلي،
ولا إني انا الخلّاق ذو صنع وذو فِعلِ.
ولا من انبياء الله إني او من الرُّسْلِ،
واني ما أنا عيسى، ولا المهدي الى السُّبلِ.
انا بي حارت الأفهامُ ما يدرون ما أصلي.
انا الشامي، انا الهندي، انا الرومي، انا الصيني.
انا الاكوانُ بي قامت، انا الافلاكُ من أجلي.
انا الأملاك بي تدري، ومني ترتجي وصلي.
انا المعروف بالدنيا وبالاخرى بذي الفضلِ.
واني لستُ انساناً، ولا من ذلك النسلِ،
ولا قومي أرى قومي، ولا اهلي ارى اهلي،
ولا إني جنينٌ أو بمولودٍ ولا طفلٍ،
واني مُطلقٌ، والكلّ في قيدي وفي غُلّي.
وما عبدُ الغنيّ أسمي، ولا ذا مقتضى شكلي،
ولكن عالمُ الأوهام يمشي بي على مَهلِ.
فيا مَن دام بالدنيا يراني طالباً وَصلي،
تجرّدْ، وأنتزحْ، واخرجْ عن الكون بلا ثِقلِ،
وكن خمراً بلا كاسٍ، وكن شمساً بلا ظلٍّ،
وحقّق واقطعِ الأحبالَ، وأسلُكْ دونها حَبلي،
وصابرْ واصطبرْ واعلَمْ، فليس المِسْكُ كالزِبْلِ.
وسُدَّ البابَ عن غيري، وعالِجْ وافتحْ قُفلي.
صلاةُ الله، من قبلي، على قلبي بلا فصلِ،
كذلك انبياء الله نور الفضل والنَّقلِ،
مدى الأيّامِ ما سحّت سحابُ الجود بالهطْلِ.

فكان للقصيدة صدىً رنّان في اوساط التصوّف الشامي، صدىً يُبعد مداه مريدو الشيخ وطلّابه العديدون، فينتشر ذكر كراماته بين الشعب حتى «كانت الإسلام — كما يقول الامير حيدر في لتّه العرجا. — تعتقد به انه وليّ عظيم.»

ومن الطبيعي أن تُثير شطحاتُ القصيدة احتجاجَ المحافظين من اعداء التصوّف فيردّوا على الشيخ بلسان شيخ آخر هو احمد بن الحرّ الشيعي، نزيل صور، فينظم على البحر والقافية عينهما قصيدة طويلة سنعود الى ذكرها .

ومن الطبيعي كذلك ان ترفع النفحة الفارضيّة الشاعر الشامي من حضيض التقشفات الى يفاع الاستبصار، فترفّ به على قمم الإشراق وتدوّم على فوهات الحلول ؛ تشعّ انوارها الجذّابة فتُغري الساري المستهدي بالانزلاق العقلي ، فالاستهتار السلوكي براسيم العبادة ؛ فنُدرك السرّ في تلك الثورة التي قامَ بها عامّةُ دمشق على الشيخ عبد الغني ، حتى خرق الغوغاء حرمة بيته ، في جوار الجامع الأموي ، وأهانوه مُتَّهِمينه باهمال الصلوات الخمس . ولنُشِر الى ان هذه التهمة هي نفسها التي وُجِّهت الى ابن الفارض من قبله، والى زميله إمامِ التصوّف الأعظم محيي الدين بن عربي، والى كلِّ مَن كان ينعكف على التأمل الصوفي حتى الغوص في مُجران الاتحاد او الحلول ، فيتفلّت ، واعياً او غير واعٍ ، من واجبات الفروض اليومية . ويقوم من مريديه وطُلّابه مَن يُبرز هذا الإهمال بنظريّة الوصول والاتّصال، وبالتالي فلا حاجة بعد الى الاساليب العادية المفروضة على عامّة المؤمنين .

على ان قصيدة الشيخ عبد الغني اثارت ضجةً متداعية الأصداء في الاوساط المحافظة على « العقل والنقل » فانبرى لنقضها الكثيرون ، كما تبرّع بشرحها الكثيرون كذلك من مريدي الشيخ . وكان الشيخ قد اصبح العَلَم المُفرد في التصوّف الشامي اذ ذاك ، متجاوزًا الثمانين من سنيه ، جامعاً الاختبارات الجمّة في اسفاره المتتابعة التي ادرك بها القسطنطينية سنة ١٦٦٤، فعرف اساليب الطريقة المولوية والنقشبندية فاستفاد منها في اغناء طريقته القادرية الكيلانية . وانتقل بعد مدّة الى لبنان فنزل البقاع . ثم اتجه نحو القدس ، وحبرون الخليل فكان فيها سنة ١٦٨٩ . ثم أمَّ مصر سنة ١٦٩٣ ، وطن ابن الفارض وقبره، ولا شك في انه كان للشيخ مواقفُ « في القرافة تحت ظلّ العارض . » ومنها اتجه الى الحجاز . حتى كانت السنة ١٧٠٠، واذا به في طرابلس يقيم نحو اربعين يوماً . فيمدح المكان ويذمّ السكان ، ولا نعرف لماذا ؟ ووراء بعد ذلك في دمشق ينتقل ، في ربيع السنة ١٧٠٧ ، من منزله الأول ، في جوار الجامع الاموي، الى منزل جديد في حيّ الصالحية ، فيقرب من ضريح « الكبريت الأحمر » محيي الدين بن عربي . ويتغلغل في ملاوي الصوفية ، منفصلًا عن العالم

الصاخب حوله ، لا يكاد ينحدر اليه الّا في سبيل الفقراء والمظلومين يشفع لهم لدى ارباب السلطان ، حتى اذا خفّف الناس عليه من اثقالهم عاد الى عالمه الأفضل راقياً معارج التوق حتى اصعب درجاتها ، منتشياً بلذّة التعرّض للدوار في تخطّي مزالق الشطحات حتى يجترح الكرامات ، على ذمّة مريديه .

ويطول اشعاعه الروحاني في بلاد الشام حتى يبلغ التسعين من عمره فتنتهي تلك الحياة التائقة بالراحة الابدية في الرابع من اذار سنة ١٧٣١ . فتُصعق دمشق للنبأ ، وتقوم الامّة – تلك العامّة التي ثارت على الشيخ واهانته في ما سبق – فتقفل اسواق المدينة وتسير جماهير في جنازته . واذا مخلّفات الشيخ خمسة وثمانون اثراً اشهرها شرح لتفسير البيضاوي لم يكمل ، وشرح لديوان ابن الفارض ، طبعه مع شرح البوريني الكونت رُشيد الدحداح في مرسيلية . وكتاب في « الفتح الرباني والفيض الرحماني » لا يزال مخطوطاً[1] ؛ وديوان شعر اشعر ما فيه القصائد الصوفية ، وتلك القافية المشهورة في مدح دمشق :

إن سامك الخطبُ المهولُ فأقلقا فانزل بأرض الشام واسكُنْ جِلِّقا[2]

واذا من مخلّفاته طلّاب عديدون ، ينشرون مآثره ويُشيدون بذكراه ، ويدافعون عنه وعن آرائه بعد وفاته ، كما دافعوا عنه في حياته . حتى صحّ للامير حيدر الشهابي ان يذكر ، في حوليّات السنة ١٧٢٣ ، من الحوادث المهمة انه كان « في الشام الشيخ عبد الغني النابلسي . وكان شاعراً فصيحاً . . . وكانت الإسلام تعتقد به انه وليّ عظيم . »

وفي حوادث السنة نفسها يذكر الامير المؤرّخ تلك المناظرة بين الشيخ عبد الغني والشيخ احمد الحرّ . وقد لا يصحّ ان نسمّيها مناظرةً بالمعنى الادبي

---

١) عرّف هذا الكتاب ونشر مقدمته وفصلاً منه الاب انطونيوس شبلي اللبناني في « المشرق » ٤١ [١٩٤٧] ٥٨٦ – ٦١١)

٢) لا بدّ من القول ، تعليقاً على لفظة جلّق ، ان الشيخ أخذ بقول حسّان واصفاً منازل الغساسنة في جلّق ، فخالها دمشق ، فتورّط في هذا الخطأ الجغرافي ، وورّط بعده احمد شوقي في قصيدتيه الدمشقيّتين .

الصحيح. انما هي معارضة قام به الشيخ الحرّ فنقض القصيدة اللامية في التصوّف. وكان بذلك صدًى رنّاناً للشعر الذي لم يخفت صوته قطّ في جبل عامل، واحتجاجاً صارخاً للشيعة المتشبثة «بالعقل والنقل»، كما يقول، على هذه البدع الدخيلة التي لا يتورّع في نسبتها الى الغرور والجهل، كما لا يتورّع في تسمية أتباعها بالاوباش. وذلك في آخر النقيضة، وقد طال به نفس الكلام وانتشى بلذّة الاندفاع، فتكتّلت الردود في التعابير الجافية والألفاظ النابية، منحدرة حتى «البلادة» و«الغرور» و«والعمى» بعد ان بدأت بشيء من المجاملة يخاطب به «أخا الفضل»:

رويدًا، يا أخا الفضلِ، مزجتَ الشهدَ بالخلِّ؛
أذعتَ السرَّ، يا هذا، شريتَ الجورَ بالعدلِ.
فتحتَ القفلَ يا شامي، فقدتَ العلمَ بالجهلِ.
تعالى ذاتُ ذي الفضلِ عن الأشباهِ والمثلِ!
وعن كيفٍ، وعن أينٍ، وعن إدراكِ ذي عقلِ،
وعن قبلٍ، وعن بعدٍ، وعن بعضٍ، وعن كلِّ،
وعن كمٍّ، وعن لمٍّ، وعن جنسٍ، وعن فصلِ،
وعن تمثيل ذي وصفٍ، وعن تشبيهِ ذي بطلِ!

. . .

وهذا المذهبُ قد اعيى جنودَ العقلِ والجهلِ،
فنوحٌ لا يدانيه، وموسى خالعُ النعلِ،
وابراهيمُ مع لوطٍ، وعيسى صاحب الفضلِ،
واسمعيل مع يحيى، ولا كلٌّ من الرسْلِ،
وجبريلٌ وميكالٌ، واسرافيلُ ذو النبلِ،

. . .

فيا عبدَ الغني، مهلًا! فليس القولُ كالفعلِ،
لقد أكثرتَ من هذرٍ يضاهي صبوةَ الطفلِ؛
دعاوى لا يدانيها سوى عارٍ من العقلِ.

. . .

وما هذا الذي تهدي؟ رويدًا يا أبا الجهلِ،
حلولٌ واتحادٌ ثم تنبيهٌ مع البطلِ؟
وقد أردفتَ، يا هذا، مجازَ القول بالفعلِ.

فليس الدرُّ كالحصا ، وليس العلمُ كالجهلِ ،
وليس النور كالظلا ، ولا الإكسيرُ كالزبلِ .
فيا عبدَ الغني الشامي ، تفطَّن ، واستمع نقلي :
فما المشكاةُ ، يا رومي ، وما المصباحُ ، يا صقلي ؟
وما الزيتونُ ، يا هذا ؟ فقُل ، يا فاتح القفْلِ .

. . .

الا يا هُدْهُدَ الأخبار ، خَبِّرْ بالورى ، وأجلِ .
فكم من هُدْهُدٍ أضحى كفرخ البومِ ، يا خِلّي

. . .

أيا عبد الغني ، اكثرتَ من هَذرٍ ومن هَزلِ ،
لقد أبرزتَ مكنونًا خلافَ العقلِ والنقلِ . .
تسامى قدرُ باري الكُلِّ ، مبدي الفرعِ والأصلِ ،
عن الأضدادِ ، والأندادِ ، والأولادِ ، والمُثلِ ،
وعن ادراكِ ذي علمٍ ، وعن تحقيق ذي فضلٍ ،
وعن تشبيه مغرورٍ بليدٍ [ظاهرِ] الجهلِ ،
وعن أفكارِ أوباشٍ ، عَموا عن واضح السُّبلِ .

ولا نعرف ما كان من اثر هذه النقيضة فنتصوّر تغلغلها في الاوساط العاملية الشيعية ، وتداول الناس اياها ، مع القصيدة الاولى ، ولا طباعة منتشرة اذ ذاك ، حتى تصل بعد مائة سنة ، الى الامير المؤرخ فيدونها تدوينه الحوادث المبتة . ثم يفيدنا انه كان للشيخ عبد الغني تلميذ « يقال له السيد محمد الرحمن ابن محمد الشاكر ، ويكنّى البهلول » . ولا شكّ ان هذا التلميذ وقف على هذه المعارضة ، بل لا شك في انه كان من ابطال تلك الحركة التي اوجدتها قصيدتا الشيخين ، فاندفع في السنة نفسها يمدح استاذه بقصيدة « فاق فيها على جميع الشعراء » كما يقول الامير حيدر ، بانه جمع في تسعين بيتًا مائتين وسبعين تاريخًا عن سنة واحدة هي السنة ١١٣٦ للهجرة الموافقة للسنة ١٧٢٣ . وقدّم على القصيدة العجيبة مقدّمة يرفعها بها الى مقام استاذه ، وهي من السجع والتكلف في الذروة ولولا كثرة التصحيف والتحريف في الفاظها ، كما تبدو في تاريخ الامير حيدر ، ولا سَنَد لنا سواه ، لكان لنا في بعض مقاطعها تفكهة مُرفّهة ، وصورة صادقة لما كان عليه ما يُسمّى بالأدب في ذاك العهد .

بيد اننا لا نُعدم جملاً من المطلع نجعلها روامِز لنا في سائر تلك المقدّمة قال :

«مَتّع الله الوجودَ بجنابِ جمال دُرّةِ إكليلِ تاجِ المحققين ، وواسطةِ عقد المدققين ؛ من سما الى سما أسرارِ حقيقة حقّ اليقين . انسانِ عين روح البلاغة ، ومقاليد البراعة ، مَن تتجلّى بحسن وصفه الطروس ؛ وتحنّ شوقاً الى طيب ذكره النفوس ، مَن حلّ ذُرى المجد ، ورقي دوحة الآداب . وأوتي الحكمة وفصلَ الخطاب . شمس أفضال ترقرقت من سماء المعارف ، وكعبة إجلالٍ أشرقت بسناء العواطف . . .»

الى آخر ما هنالك حتى يختم المقدّمة ببيتين هما مقدّمة القصيدة ، وفيهما وحدهما ثمانية تواريخ في كل شطر تاريخان :

١١٣٦ ١١٣٦ ١١٣٦ ١١٣٦

اهديك مدحاً بليناً ، يا سَنيُّ غدا بحر الفتوحات ، بافي الفضل والمننِ

١١٣٦ ١١٣٦ ١١٣٦ ١١٣٦

ألفاظُهُ كنجومٍ ، فهي تُشرق ما بدا سنا بدرها ، أرّخه عبدُ غني

ثم تأتي القصيدة العجيبة بادئاً كل بيتٍ منها ، بحرفٍ من هذين البيتين على التوالي ، مضمّناً كل شطر تاريخاً :

١١٣٦ ١١٣٦

آياتُ حقٍ يَجيجُ المُسرِ تاليها ترهو ، ونجم الهنا بالحمدِ تاليها

١١٣٦ ١١٣٦

هي البدورُ بنور العلمِ لائحةٌ ام جنّة الأنس مِصداحٌ قاريها

وهكذا الى التسعين بيتاً فتنتهي القصيدة ، ولا يشعر السامع الّا بجرسٍ متسلسل ورنّة ناعمة ، تتتابع على وتيرة واحدة ، فيستكين حتى لا يُفسد عليه هذا التخدُّرَ خدشةٌ من تنافر الحروف ، او تعقعة القوافي المضطربة أحياناً . امّا جمال الصورة ، واما سموّ الخيال ، وامّا وحدة البناء ، امّا روعة الشعر فعلى باب الله .

حفريات راس شمرة

الاكتشافات الاثرية والكتابية

بقلم الاب رينه فوك اليسوعي

تمهيد

لقد عثر السيد كلود شيفر (Schaeffer) في السنة ١٩٢٩ على اثار مدينة اوغاريت عند ما قام ومعه ج. شنيه (Chenêt) بتنقيبات في المكان المعروف براس شمرة على ساحل سوريا قبالة جزيرة قبرس.

وبدا اكتشافه كبير الشان منذ اول وهلة لانه جاء يسد فراغاً في ما لدينا من المعلومات عن الشرق مهد الكتاب المقدس.

ان مواقع الحفريات الكبرى المعروفة حتى الآن على ضفاف الفرات والدجلة في العراق، والهاليس (Halys) في تركيا والنيل في مصر، لم تضن علينا بالافصاح عن حقيقة ماضيها بل كشفت لنا عن كثير من اسرارها الدفينة بلسان الآثار ولسان اللغات. وكلا اللسانين فياض مسهب حتى الافراط والثرثرة.

اما كنعان بمعناه الواسع اي بما فيه فنيقيا وسوريا وفلسطين فانه قد لزم الصمت نسبياً، فما افصح عن نفسه الا بلسان الآثار وما يصاحبها من تماثيل وخزفيات. وكانت الكتابات نزرة فضلًا عن انها قليلة التنوع. فترتب على ذلك ان قام غيره يتكلم بالنيابة عنه. وحسبنا ان نذكر بوغاز كوي (Bogaz-Köy) والعمارنة. لكن هؤلاء شهود من الخارج الى حد، واكبر اهتمامهم منصرف الى الأمور السياسية والعسكرية. اما الآن وقد استظهرنا دفائن راس شمرة فانا قد حصلنا على وثائق جديدة فينيقية.

تمدنا حفريات راس شمرة، علاوة على المستندات المتعلقة بكل من حضارات الشرق الادنى الكبرى، بشهادة خاصة شبه شخصية: اذ هي تتألف من كتابة ومن لغة ومن آداب وكل من الثلاثة طريف. فالآداب تتحفنا بنصوص

منوعة وهي طويلة احياناً ومتصلة السياق مدارها على امور ثقافية ودينية. والى هذا فانها تكاد تكون في مجموعها معاصرة لمستندات بوغاز كوي والعمارنة وتطلعنا على حالة الحضارة في كنعان قبيل استيطان العبرانيين ارض فلسطين.

لذلك نرى انه اذا كانت الاكتشافات الاخرى تعدل راس شمرة شأناً او تفوقها في نظر الاخصائي في التاريخ او الحقوق او الفنون، فانه لا يعدلها اكتشاف في الآونة الاخيرة في نظر الباحث في الكتاب المقدس وفي علاقات هذا الكتاب بالمحيط الذي تكون فيه.

١ — المكتشفات الاثرية

ان الحفريات التي بوشرت في سنة ١٩٢٩ في راس شمرة نفسها وفي المينا البيضا قد استغرقت احد عشر شوطاً حتى قيام الحرب الاخيرة. وقد استؤنف التنقيب فيها مؤخراً. ونحن ذاكرون فيما يلي اهم النتائج الاثرية:

لقد تبين كلود شيفر فيها خمس طبقات هي من اسفل الى عل:

الطبقة الخامسة: وهي اقدم طبقة وتعود الى اول العصر الحجري الحديث (الالف ٥و٦ ق.م.). وهي تنقسم الى قسمين: طبقة بعمق ١٨ متراً: فيها ظران ومواقد نار. فشهادة راس شمرة تؤيد شهادة المواقع المجاورة وتدل على ان المنطقة كانت « تمج بحياة بدائية قوية » (Contenau)، وطبقة بعمق ١٦ — ١٧ متراً: فيها فخاريات مماثلة لجگر بزار (Chagar-Bazar) في ناحية الخابور، وتل جُدَيدة (tell-Gudeideh) على العاصي وسكجه گوزى (Sakçe-Gözü) في سوريا، واريحا ذات العصر الحجري الحديث في فلسطين. فيستدل من هذا ان راس شمرة كانت جزءاً من مجموع واسع تألفت منه اقدم حضارة في فجر التاريخ وشملت الشرق الادنى اجمعه.

الطبقة الرابعة: بعمق ١٦—١٢ متراً. (الالف ٤): فيها فخار مطلي بالاصابع او خزف من نمط خزف تل حَلَف وكركميش وجگر بزار وأرْبَجِيّة (Arpachiyah) (في العراق). وازدهار هذا النمط من الخزف الدقيق الصنع والجميل المنظر

مرتبط بحضارة الحوريين (Hurrites) كما نبّه الى ذلك شيفر .

الطبقة الثالثة : (النصف الاول — اواسط الالف الثالث) فالحرفيات العائدة الى ما قبل التاريخ تماثل القديم منها الأرمنية والعُبَيد (Cbeid) وتماثل الحديث منها "جمدة نصر" (Contenau) . فالبلاد متأثرة بنفوذ مـا بين النهرين وهي في حالة انحطاط بادٍ . والارجح في نظر شيفر ان الانحطاط نتيجـة للغزوات والهجرات التي حصلت في اواسط الالف الثالث واشهرها هجرة الكوتيين .

ونجد في اواخر الحقبة مدافن ذات خزف كنعاني فيجوز لنا ان نستدل به على قدوم الفينيقيين آنذاك الى المدينة .

الطبقة الثانية : (اواخر الالف ٣ والالف ٢) .

هذه هي الحقبة الثقافية الكبرى في اوغاريت . المدينة تعاني من الوجهة السياسية صعاباً كباراً في سبيل الاحتفاظ بالاستقلال وحرية التصرف بين الدول الكبرى ، لكنها سوق تجـارية عجيبة الرواج وملتقى لمختلف الحضارات على انها لها طابع خاص بالرغم من تأثير البلدان الكبيرة المتحضرة فيها . فيبدو فيها في اول هذه الحقبة اثر مصر التي هي في عنفوان وثبتها ، اذ تبوأت السلالة الثانية عشرة الحكم ، وكذلك اثر ايجا (Egée) واقريطش (Crète) (المينوي الاوسط : Minoen moyen) . اما بعد ذلك فالنفوذ يؤول الى الحوريين والحثيين .

فهذا عصر الازدهار الاكبر وقد خلف لنـا مستندات مدونة في مختلف لغات البلدان التي كان لها اثر في اوغاريت ونصوصاً ادبية في لغـة اوغاريت نفسها . لكنها حقبـة مرتبكة مربكة ايضاً فالمدينة تتهدم حوالى القرن الـ ١٩ ق.م. بزلزال الارض وبطغيان البحر عليها ، وتضطرها المنافسة والحروب بين مصر والحثيين الى التلطف والمرونة في السياسة .

الطبقة الاخيرة : لما عقب الهدوء الحروب الكبرى اصبحت اوغـاريت تحت سلطان مصر وهاجر اليها طائفة ميسينية (émigration mycénienne) كبيرة . فتبدو كأنها قد قطعت العلاقات مع ما وراءها من البلدان ، اي مع بين النهرين والحثيين . ونلمس فيها اثار نهضة جديدة لكنها اضيق حـدوداً من الحضارة « المطلق » في الحقبة السابقة .

ثم تتابها موجة جديدة من الاضطرابات تعود الى هجرة شعوب البحر . فتتقوض امبراطوريات كبرى وينشب القتال من كل جانب والغزو من كل صوب (وما حرب طروادة الا حادثة من هذا الاصطراع) فتدخل اوغاريت في خبر كان . وتخلفها بعد حين من الزمن على مسافة ١٢ كيلومترًا في الجنوب لاوديقيا ، اللاذقية الحالية .

٢ — الكتابات المكتشفة

نلفت النظر الى ان في اوغاريت اشياء ليست اوغاريتية ففيها نصوص قد وُضعت بلغات وبكتابات مختلفة من سُومرية وأكّديّة وحثية وحُورية ومصرية . وهناك أثبات او جداول معجمية تيسر لنا الانتقال من احدى هذه اللغات الى لغة اخرى كالثبت السومري — الاكدي — الحوري ، وهذا دليل واضح على ان السكان كانوا لفيفًا من اقوام عدة . ثم ان الابجدية الاوغاريتية لم ينحصر استعمالها في تدوين نصوص موضوعة باللغة الاوغاريتية دون سواها لان لدينا بعض النصوص الاكّدية وقد رُقمت بحروف هذه الابجدية .

على ان الاكتشاف الاكبر بين الكتابات هو اكتشاف لغة اوغاريتية بالمعنى الحصري مدونة بابجدية خاصة وتطلعنا على اداب طريفة . وسنعالج الآن اللغة والابجدية ونرجئ الآداب الى بحث آخر .

اللغة الاوغاريتية : هي فرع من السامية . فالفاظها وصرفها ونحوها يدل دلالة واضحة على انها من السامية — الغربية ، وتدخل في نطاقها الكنعانية والعبرانية ، وهي على مثال الكنعانية على الاخص مع ما فيها من بعض الخصائص التي تقرّبها من العربية الجنوبية خاصة ومن الاكّدية الى حد . فقام بين الاختصاصيين جدال ونزاع حتى يتضبطوا مكانها من اللغة السامية . وانا على رأي الاب دي ڤو (de Vaux) القائل انها غصن من الفرع الغربي مندمج في المجموع الكنعاني او باختصار انها من اوائل الفينيقية . ويجوز ان نقول بقليل من المبالغة انها من بداية العبرانية .

ومجموع الحروف الصامتة يحتل مقامًا وسطًا بين العربية (وهي اللغة الاشد

احتفاظاً لقديم الحروف والاوسع تمييزاً وتنويعاً للحروف بعضها عن بعض) وبين سائر اللغات السامية . فنجد مثلاً ان الفرق بين ش وث (ومقابلها في العربية : س وث) قائم ثابت في الاوغاريتية ، لكن الفرق بين ص وض الثابت في العربية قد سقط في الاوغاريتية .

الابجدية الاوغاريتية : من المعلوم ان انواع الكتابات التي نقلت لنا نتاج الحضارات الكبيرة كالسومرية والاشورية – البابلية والحثية والمصرية ، فضلاً عن الصينية ، كانت مرتكزة على رموز المعاني كان يُرفق بها علامات تمثل مقاطع لفظية تزيد او تقل عدداً وفقاً للحاجة . وكثيراً ما كانت هذه المقاطع تُربي على الرموز الاساسية . وربما اضافوا الى العنصرين السابقين « مَداعِم » القراءة الصحيحة ، من ذلك علامات اسم الجنس وعلامات استكمال النطق . فمن السهل اذاً تصور ما يعترض القارئ من عقبات والتباس وحيرة . وبديهي ان اساليب على هذا الجانب من التعقيد ما كان من السهل ان يستكن منها الا اصحاب المهنة ، الكتبة انفسهم . وهؤلاء ميالون بالطبع الى جعلها سراً محفوظاً لهم فيساعدهم على توطيد سلطانهم وتعزيز شأن طبقتهم المنطوية على نفسها .

وبما ان اساليب الكتابة الرمزية لم تكن قط صرفة بل كانت تصاحبها ابداً بعض مقاطع هجائية فكان من الطبيعي ان تمهد السبيل الى تحليل الاصوات والى استنباط ادوات تدوين جديدة كلها او معظمها هجائية اي الى إحداث ابجديات . ولقد قامت في الواقع في المناطق القريبة من الشرق الادنى بين القرن العشرين والقرن الثاني عشر سلسلة محاولات من هذا النوع قد هدانا الحظ الى العثور على البعض منها . فابجدية راس شمرة الاوغاريتية ليست سوى حلقة من هذه السلسلة . وميزتها الفارقة انها طريقة ابجدية مستخلصة من الاوضاع المسمارية تسهيلاً للرقم في الواح الطين . فحدُّ هذا القيد من مرونتها وجعل الناس يميلون عنها الى ابجديات ترتكز على اوضاع هينة سائغة . ولا ترقم هذه الابجدية سوى الحروف الصامتة ، شأنها في هذا الباب شأن منافساتها . انما تخرج عن هذه القاعدة في تدوين الالف . ففيها ثلاث ألفات

تناسب الشكلات الثلاث الاساسية . لكني ارى انه لم يكن قد تمّ لهم استخلاص الهمزة المجردة وانهم كانوا يعتبرون الألفات الثلاث ثلاثة حروف متمايزة . فاذا صح هذا الرأي استطعنا ان نقول ان ابجدية اوغاريت لا ترقم الا الحروف الصامتة في غير استثناء . فيجب علينا الانتظار حتى بزوغ شمس اليونان قبل ان نرى الصائتات والصامتات تكتب على حد سواء.

فلا حاجة بعد ما ذكرناه للتنويه بما يعترضنا من صعوبة في تأويل نصوص لا نعرف قواعد الصرف والنحو فيها معرفة دقيقة وقد تمثل نفس الحروف فيها صيغاً او الفاظاً مختلفة تمام الاختلاف. فالتشديد على ما له من الاهمية في الصرف لا نجد له اثراً بادياً في الكتابة . يضاف الى كل هذا انه ليست لدينا اية تقاليد من التعليم الشفوي تيسر علينا معرفة النطق الصحيح (كما في العربية والعبرانية مثلاً) . فلا نملك سوى اشارات نحصل عليها عن طريق المقارنة باللغات السامية الاخرى ، او عن طريق اعلال الافعال الناقصة الخ . . فتساعدنا على استخلاص المعنى من خلال كتابة ناقصة .

هذه الملاحظات تساعد على تقدير هذه النصوص تقدرها وادراك ما يتبقى في تأويلها — والمتشائمون يقولون : ما يسود تأويلها — من ارتياب وتردد . ولا عجب في الامر بل ينبغي علينا ان نُعجب بما قام به الرواد من اشباه السيد ڤيرولو (Virolleaud) من شق الطريق ، فلا لوم ولا تثريب ان رأى العلماء اليوم هجر كثير من تأويلاته .

لا يزال امام الباحث الاوغاريتي سبيل الى الشعور بنشوة الاكتشاف في هذا الحقل الجديد وبغبطة الاستنباط وصوغ الافتراضات المثمرة ؛ فان كان لا يجهل انه آتٍ بعده حتماً من سيتجاوزه ويسبقه فانه يعلم ايضاً ان المجهود الذي يقوم به يمكّن الخلف من مجاوزته واستباقه .

روما ٦ تشرين الاول سنة ١٩٥٠
المعهد الكتابي البابوي

الخيط الممدود من الارض الى السماء

بقلم الاب جاك بلاسار اليسوعي
مدير مرصد كساره (لبنان)

من وضع مقادير الارض ان كنت تعلم
ام من مد عليها الخيط ؟ (ايوب ٣٨ : ٥)

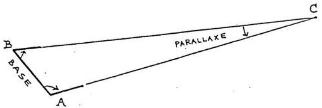
انت تشد عقد الثريا
ام انت تحلّ نُطُق الجوزاء ؟ (ايوب ٣٨ : ٣١)

صعب على الانسان ان يتحقق عظمة الكون ، ولو في الخيال . والدليل على ذلك ان العلماء ما استقامت لهم فكرة عن العالم في اية مرحلة من مراحل التاريخ الا وكانت ضيقة كل الضيق وفي غاية الضؤولة . هذا هو الحكم الذي انتهى اليه اليوم رواد العالم الطبيعي ، ولاسيما الفلكيون منهم ، فجاء رأيهم مصداقاً لصحة حدس الشاعر الانكليزي شكسبير حيث قال لمعاصريه من العلماء : «ان في السماء والارض اموراً لا تستطيع فلسفتكم الاحاطة بها». وعلماء اليوم يعرضون علينا نظريات محدودة سوف يراها القرن المقبل قاصرة. غير ان الناس سيخذلون الصلف المتأصل في العقل ويكبحون تبجحه بالالمام بكل شيء ، ما داموا يتذوقون ما ينشأ عن الاكتشافات المفاجئة من لذة وادعة هنيئة . (اللوحة الاولى)

فلننظر اذن كيف توصل الفلكيون متدرجين من مفاجأة الى مفاجأة اخرى ، من فشل الى نجاح ، ومن مشكل حُلّ الى مشكل قام ، الى ان استخدموا الاقيسة الارضية في أبعاد النجوم وكيف مدّوا خيط الرياضيين الاقدمين حتى ابعد السُدُم .

الارض ــ القمر ــ الشمس

يلجأ علماء المساحة اذا ارادوا قياس بُعد نقطة لا يُبلغ اليها الى طريقة علم المثلثات . وتقوم هذه الطريقة على ان يقيسوا خطاً مستقيماً معلوماً قدره بين نقطتين معينتين يتخذونه قاعدة فيقيسون على طرفيها كلًا من زاويتي المثلث الناشئ من هذه القاعدة ومن النقطة المطلوب معرفة بُعدها . فاذا ما حصلوا



الرسم ١ — كيف ان الناظر الواقف تباعاً في موضعين : ا و ب يستطيع ان يقيس المسافة التي تفصله عن موضع ثالث ليس يتناوله : ت .

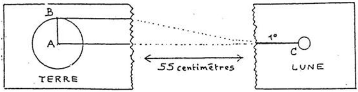
على « طول وزاويتين » امكنهم الوصول باستخدام الحساب الى قياس المسافة الى النقطة الممتنع الوصول اليها .

والمهم في عملهم هذا هو مناسبة الاتجاه والطول في القاعدة بحيث لا تكون زاوية المثلث الثالثة صغيرة كل الصغر .

والزاوية التي رأسها في النقطة المسدد النظر اليها تسمى « زاوية الاختلاف » « Parallaxe » وهي الزاوية التي يرى الراصد طرفي القاعدة من خلال فتحتها لو افترضناه يرصد من تلك النقطة .

لقد اتقن الفلكيون هذه الطريقة وبلغوا بها نهاية الكمال حتى يتغلبوا على ما يعترضهم من ظروف معاكسة لان القواعد التي يرتكزون اليها هي في منتهى الصغر . اذ ما قيمة نصف قطر الكرة الارضية وهو اعرض ما يستطيعون اتخاذه قاعدة لهم (٦٣٧٠ كيلومتراً) بالنسبة الى المسافة الفاصلة بين الارض والقمر وهي ٣٨٤٠٠٠ ك . م . ؟ فانه لا يكاد يساوي وتر قوس له

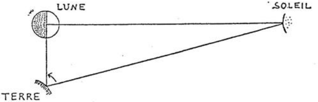
درجة واحدة ! فاذا شئنا في هذه الحالة آن نقيس مثلثاً قياساً دقيقاً احتجنا



الرسم ٢ – « زاوية اختلاف » القمر

اضطررنا الى اقتطاع ٥٥ سنتيمتراً من طول الرسم حتى يتيسر لنا الجمع بين طرفي المثلث ا ب ت

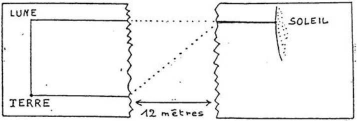
الى مقاييس دقيقة مُحكمة . واذا عرفنا ان زاوية الشمس الاختلافية اقل من درجة واحدة ، فاننا نفهم لِمَ اهتم الفلكيون منذ القديم لايجاد قاعدة تكون في غير الارض . واول من فكر في قياس اضلاع المثلث المكون من الشمس والقمر والارض في ربعي القمر الاول والاخير هو اريستارك من جزيرة ساموس (Aristarque de Samos) الذي قام بتجاربه في الاسكندرية حوالى سنة ٢٨٠ ق . م . ولقد اتخذ قاعدة له المسافة بين الارض والقمر وكان يوسعه قياس الزاوية التي رأسها بالارض على حين ان التي رأسها بالقمر كانت زاوية قائمة . وهذه الطريقة وان كانت سليمة في حدِّ ذاتها



رسم ٣ – كيف حاول اريستارك ان يقيس المسافة بين الارض والشمس باتخاذه الخط بين الارض والقمر قاعدة للمثلث : الارض – الشمس – القمر (لم تراع سلم الابعاد في الرسم)

فكانت تنقصها الدقة ، اذ نراه استنتج ان بُعد الشمس عنا عشرون ضعفاً اكثر من بُعد القمر ، بينما هو في الحقيقة ٤٠٠ ضعف . ومهما يكن من ضآلة هذه الارقام فانها نقلت حدود الكون الى اوسع مما كانت عليه في نظر معاصريه . على انهم لما رأوه يجرؤ ويقول ان الارض تسير في الفضاء حول الشمس على

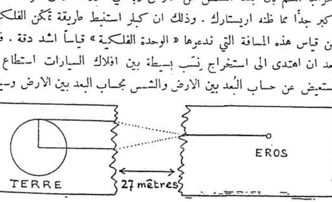
دائرة نصف قطرها الطول المذكور امتنعوا عن التسليم بقوله . وكان تعليلهم ان المسافر الذي يقطع احدى الغابات يرى اشجارها تتغير هيئتها كلما توغّل



الرسم ٤ – المثلث : الشمس – الارض – القمر . (قد حُذف منه ١٢ متراً) .

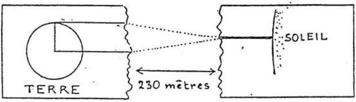
فيها ، فكيف يمكنه التصور ان الارض تسير بين النجوم مَساراً على هذا القدر من الاتساع ولا يطرأ على هيئة مجموع « الثوابت » ادنى تغير ؟ ! فبدا لهم ان ثبات آلاف من النجوم في مواضعها لا تتزحزح عنها خير شاهد على ثبات الارض وعدم تحركها .

وعندما جاء كوبرنيك وغاليله واكتشفا حركة الارض في الفضاء من جديد بعد ثمانية عشر قرناً اصطدما بالاعتراض المبني على ثبات النجوم وكان زاده احراجا العلم بان بُعد الشمس عن الارض وبالتالي دورة الارض حول الشمس اكبر جدًّا مما ظنه اريستارك . وذلك ان كبلر استنبط طريقة تمكّن الفلكيين من قياس هذه المسافة التي ندعوها « الوحدة الفلكية » قياساً اشد دقة . فانه بعد ان اهتدى الى استخراج نِسَب بسيطة بين افلاك السيارات استطاع ان يستعيض عن حساب البُعد بين الارض والشمس بحساب البعد بين الارض وسيارة



الرسم ٥ – زاوية اروس الاختلافية

اخرى اقرب . ثم ما انفك هذا القياس يزداد اتقاناً وتحتناً قرناً بعد قرن : ففي القرن الـ ١٧ اتخذوا سيارة المريخ (Mars) واسطة لهذا القياس . وفي الـ ١٨ و ١٩ الزهرة (Vénus) وفي الـ ٢٠ النجم الصغير آروس (Eros) الذي مرّ في سنة ١٩٠١ وفي سنة ١٩٣١ قريباً جداً من الارض اذ دنا منها على بعد ١٧ مليون كيلومتر لا غير (!) . وكان مرور آروس في سنة ١٩٣١ على مقربة من الارض مدعاة للقيام باقيسة وحسابات طويلة افضت نتيجتها في سنة ١٩٤٢ الى ان البُعد



الرسم ٦ – زاوية الشمس الاختلافية .

بين الشمس والارض يبلغ ٠٠٠ ٦٧٥ ١٤٩ كـ . م . مجال الخطأ فيها لا يعدو ٠٠٠ ٢٠ كـ . م. وان زاوية اختلاف الشمس ثماني ثوانٍ (٨″)

قفزة الى النجوم

ويمكننا الآن ان نتخذ قاعدةً بُعد الشمس عن الارض وهو عملياً قطر فلك الارض (دائرة مسيرها) اي ضعف المسافة الفاصلة بين موقعين من مواقع الارض يفصل بينهما ستة أشهر .

وادرك الفلكيون باديَ بدء صعوبة هذه القضية لانه لو كانت الارض تتحرك حقاً بوجه النجوم لظهر لنا ان النجوم هي ايضاً تتحرك : اي لبدت في مسار اهليلجي الشكل وهو ارتسام فلك الارض على مسطح يتقاطع بالنجم . على انه قد انقضت آلاف السنين ولم يُتح لاحد ان رأى النجوم تتحرك في « قبة السماء » وانما تبدو لهم كانها مسامير ذهب في كرة بلورية شُدّت على حواشي الارض . واسلفنا القول ان ثبات النجوم البادي كان بدا دليلاً على ثبات الارض ودُفعت به آراء اريستارك وكوبرنيك .

على ان غاليله وهو اشد الناس تحمساً للانتصار لنظريات اريستارك وكوبرنك تد اكتشف منظارًا فلكيًا يعيّن موقع النجوم بدقة اوفى. فانكب معاصروه على الرصد وزادوا في التدقيق على امل العثور على «اختلاف» في الزاوية يمكنهم من احتساب البُعد ومن اقامة الدليل القاطع على صحة نظريتهم. وقدّر لاملهم هذا ان يبوء بخيبة طويلة.

وقبل غاليله كان تيخو براهي (Tycho-Brahé) قام بابحاث في هذا الحقل ولم يفلح. وقام بعد غاليله كاسيني[1] (وهو الاول من حاملي هذا الاسم) ولم يكن اكثر حظًا. وعقب انقضاء قرن من الزمن وُفِّق الانكليزي برادلي (Bradley) في رصده ورأى ان بعض النجوم ترسم في مدى سنة بالضبط على القبة السماوية (القبة الظاهرة) اهليلجاً نصف قطره[2] الرئيسي ٢٠،٥ من الدرجة. لكنه لاحظ ان كل نجم من النجوم يرسم اهليلجاً له نفس المحور الاكبر كأن النجوم كلها متساوية في البُعد. اذن لم يعثر على « الاختلاف » المنشود بل كان ما رآه خداعاً يعود الى ظاهرة انحراف الضوء في النجوم وظاهرة تأيل (او كبو) محور الارض اثناء حركتها. وان لم يفت برادلي ومعاصريه ما في اكتشافهم من جليل الفائدة لدعم نظرية كوبرنيك، فانه لم يحصل على ما كان ينشد.

وفي سنة ١٧٨٢ استطاع هرشل (Herschel) ان يكشف بمقرابه (او تلسكوبه) ذي المرآة المقعرة بقطرطوله ١٫٢٢ متر حركة اخرى في بعض النجوم شكلها خط منحنٍ ومُقفل حول مركز لا يُرى فيه شيء. لكن تلك المنحنيات ما كانت تُقفل الا بعد انقضاء سنوات عديدة: فنجمي « الذراع » (Castor) مثلاً يقتضي ٣٤٢ سنة! بينما تُتم الشعرى (Sirius) دورتها بسرعة اكبر، في ٤٩٫٩ سنة.

فلم يتوصل اذن هرشل الى اكتشاف ما كان يسعى الفلكيون لاكتشافه لكنه توفق الى اكتشاف ذي بال، اكتشف النجوم المزدوجة المسماة «بالثنائية» كالذراع المبسوطة والشعرى فان لكل منها جارًا او « رفيقاً » تدور حوله. واذا

١) يوحنا عبد الأحد كاسيني وُلد في ابطالية واستخدمه لويس الرابع عشر الى فرنسة. وكان اول مدير لمرصد باريس المؤسس سنة ١٦٦٧.

٢) استخدمنا كلمة نصف القطر الرئيسي للدلالة على نصف القوس الكبرى الاهليلجية.

كان ضوء الرفيق غائرًا او خافتًا بحيث لا تراه العين فالحركة التي يبعثها في النجم المشرق تشعرنا بوجوده وتساعدنا على قياس كتلته .

واخيرًا في سنة ١٨٣٨ اي بعد غاليله بقرنين اكتشف الفلكي الالماني بِسِّل (Bessel) بمدينة كونسبرغ (Kœnigsberg) حركة نجمية لم تكن ناتجة عن ظاهرة انحراف النور ولا هي دورة نجم حول آخر بل هي حركة زاوية اختلاف حقة تتبع مسارًا اهليلجيًا ينتقل في مدى سنة بالضبط وبالاستطاعة تعيينها بالمقارنة بينها وبين النجوم الضئيلة النور في جوارها والتي هي لا تتحرك بتاتًا . والعلماء الذين تقدموا بسل معذورون اذا هم لم يتوصلوا الى اكتشاف هذا الاهليلج لانه في منتهى الصغر فلا يعدو نصف قطره الرئيسي ٠٫٣" من الدرجة .

لو فرضنا اننا نزيد فرش مساحة القمر ليلةً تمامه باهليلجات بكبر هذا الاهليلج لافتقرنا الى عشرة ملايين منها نلصقها بها ككريات على لوح الزجاج . ويفيد هذا ان فلك الارض حول الشمس (ونذكر انه ٢٩٩ ٣٥٠ ٠٠٠ ك.م.) يبدو لراصده من هذا النجم هنة حقيرة اذ لا يكون الا جزءا من عشرة ملايين جزء من قرص القمر !!

ففي مقدورنا الآن قياس هذه المسافة . لكن الكيلومتر وحدة صغيرة جد الصغر فلا بد من اعتماد مقياس آخر ، وليكن سرعة النور . فالنور يقطع ٣٠٠ ٠٠٠ ك. م. في الثانية . فيصل

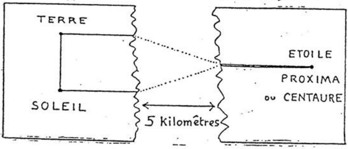
من القمر الى الارض ، بثانية وثلث	: ١٫٣"
ومن الشمس الى الارض ، بثماني دقائق	: ٨'
ومن بلوطون ابعد السيارات ، بخمس ساعات	: ٥ ساعات
ومن النجم ٦١ من الدجاجة (Cygne) باحدى عشرة سنة	: ١١ سنة

وسنعتمد فيما يلي « السنة النورية » وحدةً لقياس المسافات وتساوي السنة النورية المسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة اي ما يعادل تسعة آلاف واربعمائة مليار كيلومتر (٩ ٤٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ك. م.) .

وكان من الحظ ان عالج بسل نجماً من مجموعة هي اقرب مجموعات النجوم منا . ولكن الحظ لكان اوفر لو رصد الشعرى وهي على بُعد ٨ سنوات نور او لو رحل الى قطب الجنوب يرصد « الفا قنطورس » (α du Centaure)

على بعد ٤ سنوات نور فقط، ونجم آخر على مقربة من هذا يسمى « قريبة قنطورس » (Proxima du Centaure) على بعد ٤ سنوات نور ايضاً وهذه « القريبة » هي ادنى النجوم كلها الى الارض كما يدل عليها اسمها .

لئن تمكن بِتيل من قياس زاوية اختلاف لها ٠،٣٠ من الدرجة فان نجاحه ليُعد



الرسم ٧ – زاوية النجم « Proxima »

نجاحاً خارقاً ما كان من السهل ان يتجدد (اللوحة الثانية) . ولكن من حسن الحظ ان لم تمض خمسون سنة حتى استطاع العلماء تطبيق التصوير الشمسي على علم الفلك فسهل عليهم واستغنوا به عن ان يقيسوا باوقات مختلفة من السنة صعود النجم المستقيم او ميله . فاصبح يكفيهم ان يصوروا في كل مرة المنطقة الفلكية التي يشعّ النجم فيها ثم يظاهروا بين الكليشيات (لوحات التصوير الفوتوغرافي) بحيث تستقر الثوابت العديدة التي لا زاوية اختلاف لها في مواضعها فتبرز عندئذ بينها على اللوحة مواقع النجوم المرصودة موقعاً تلو موقع . ولدينا الآن جدول « الاختلافات » الذي وضعه فرنك شليزنجر (Schlesinger) . وهو يطلعنا على ابعاد ٥٠٠٠ نجم .

فالشعرى الشامية (Procyon)	بعدها ١١ سنة نور .	
والنسر الطائر (Altaïr)	« ١٦	«
والنسر الواقع (Véga)	« ٢٦	«
والسماك الرامح (Arcturus)	« ٤٠	«
ومنكب الجوزاء (Bételgeuse)	« ١٩١	«
ونجم القطب (Polaire)	« ٦٠٠	«
ومثلها النجم الوهاج رجل الجبار (Rigel)	« ٦٠٠	«

وهذا الاخير زاوية اختلافه ٠٠٠٠٥،٠ من الدرجة وهي اصغر زاوية يستطاع قياسها بدون تهور مفرط في الخيال . ولكن اليس من وسيلة تمكنا من الذهاب الى ابعد من ذلك ؟

القياس الطيفي

التحليل الطيفي هو الوسيلة المنشودة . انا مدينون بهذه الوسيلة الجديدة للفيزيائيين الالمانيين فرونهوفر (Fraunhofer) وكيرشوف (Kirchhoff) استنبطاها حوالي سنة ١٨٢٠ وتقوم طريقتها على تحليل شعاعة نور مركبة الى عناصرها : وذلك ان اشعة النور اذا انكسرت في موشور او انعكست عن مرآة محززة تسمى « شبكة » ، فانها تتفرق في اتجاهات مختلفة فترسم على لوحة التصوير خطوطاً متوالية وفقاً لطول الموجة . وحوالي سنة ١٨٥٠ اخذ الاب سيكي (Secchi) اليسوعي يستخدم هذه الطريقة في علم الفلك ولاسيما في دراسة النجوم.

وبديهي ان المنظار اذا وضعنا فيه موشوراً او « شبكة » رأينا فيه سلسلة نقاط متعددة الالوان بدلاً من نقطة واحدة كما انه اذا سُلّط على صفيحة التصوير وتحرك النجم اثناء انطباع الصورة حصلنا على سلاسل بدلاً من النقط وصارت سلسلة السلاسل وشاحاً شبيهاً بما يحصل في المختبرات عندما يُطلقون شعاعاً من مصدر محجوب خلال خرق ضيق . (اللوحة الثالثة)

قال النبي قديماً :« النجم يمتاز عن النجم في البهاء » .

فتحليل طيف النجوم يزيد هذا التباين في النجوم . فمنها ما هو احمر او اصفر او ابيض . ومنها ما يمكن قياس حرارتها بالاستناد الى بعض ميزات الطيف . كما يمكن قياس قوة اشراقها الخاصة بالاستناد الى ميزات اخرى (كنصوع بعض الخطوط او قتمة خطوط الامتصاص). لان ما يُقال في الناس يصلح ان يقال في النجوم: فالجبابرة منها وان بعدت وظهرت بمظهر الوهن فلها ابداً مزايا الجبابرة . والاقزام منها وان قربت (كالشمس مثلاً التي هي من الاقزام) فلها ميزات الاقزام : وهذا لا يخفى قط عن الاخصائيين . (اللوحة الرابعة)

ويمكن هؤلاء ان يعينوا الاشراق الخاص بكل نجم بالاستناد الى بعض

اوصاف طيفه» (اللوحة الخامسة)» كما ان المتخصص بدراسة الخطوط ينبئك عن خلقك وقوة مزاجك بالاستناد الى بعض خطوط كفك . ويكفي بعد ذلك ان نقارن نوع اشراق النجم باشراقه الظاهر حتى نستنتج بُعد موقعه منّا . ولئن كنا وقفنا في قياس ابعاد النجوم عند حد الـ ٦٠٠ سنة نورية فانا نستطيع الآن ان نواصل السير الى الامام وان نقيم على طريقنا معالم اخرى تنتقل بنا الى مراحل جديدة تقاس بآلاف من السنين النورية ، تقارب الـ ١٠٠٠٠ سنة نور .

والنور الذي نريد تحليله؛اي تفريق نقطة منه الى الف نقطة على الشاشة ، يجب ان يكون على جانب قوي من الاشراق. وعدد كبير من النجوم ولاسيما في المجرة كثافة نورها تمكننا من رؤيتها ولكنها لا تمكننا من تحليلها ، كما لو جزأنا جوهرة صغيرة فلن نعود نرى اجزاءها . (اللوحة السادسة)

مدينة النجوم القيفاوية (Céphéides)

وقاطفة ثمارها الرشيقة

ومن الحظ ان يخف لارشادنا مرشد ثالث اجزأ من انكبوا على تدوين اختلافات الزوايا او على تأويل الاطياف فيعرض علينا ان نقوم معه بمراحل جديدة . وهذا المرشد هو الآنسة الاميركية لفيت (Miss Leavitt) التي قامت برصد بعض نجوم متغيرة تدعى القيفاويات او نجوم قيفاوس .

ولكن معلوماً ان بين النجوم من هنّ متغيرات متقلبات فصار من المحظور تعيير القدر ومعارضة تغيراته بثبات ضوء النجوم وكان الفلكيون قد لاحظوا تغيرات رأس الغول من صورة فرساوس (Persée) ، وتغيرات العجيبة من صورة الحوت (« Mira » de la Baleine) ، لكن النجم ذلتا δ من مجموعة قيفاوس لفت نظر العالمة لفيت لما رأت اشراقه يتغير تارة بالتزايد وتارة بالنقصان كما رأت اوصاف طيفه تتغير ايضاً .

في الواقع هذا النجم عرضة لتغيرات طورية فينتقل من الحرارة الى البرودة ومن الانكماش الى التمدد ، وهذه التغيرات يُطلق عليها اسم « النبَضان » . ولقد

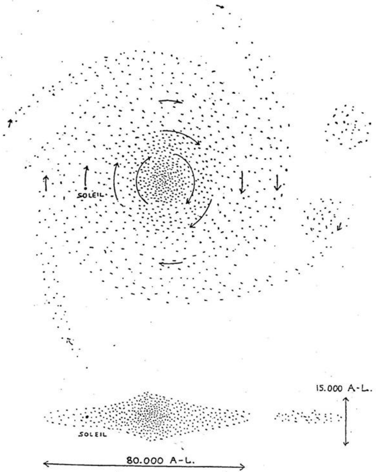
خلعت السيدة لفيت اسم القيفاويات على هذه النجوم بعد ان عثرت على عدد كثير منها . واستطاعت ان تتحقق ان مدة « نبضانها » تطول بقدر ما يكون اشراق النجم شديدًا وتقصر في عكس ذلك . فالنسبة بينهما مضبوطة ضبطًا لا بأس به ، والنظريات الفيزيائية تعللها تعليلًا كافيًا يخولنا تعميم هذا الناموس المستمد من رصد القيفاويات القريبة المعروفة زاوية اختلافها على القيفاويات البعيدة .

واذا كان ثمة بين النجوم البعيدة التي يُرى اختلاف زاويتها ولا يُنظر طيفها نجوم اخرى تتغير كالقيفاويات فما على الفلكي الا ان يعين النهاية الكبرى والنهاية الصغرى من تغيرها وبعد ما بينهما من الايام ليعرف مبلغ ضوئها الخاص بها ، ثم يقارن هذا الاشراق الحقيقي بالاشراق الظاهر فيحصل له بُعدها . هذه ثمار المعرفة التي اقتطفتها الآنسة لفيت من حديقة القيفاويات ولا شك انها لا تقل قيمة عن الثمار الذهبية التي طالما حلم الاغريق في اساطيرهم باقتطافها من جنة « الهسپريد » وهن بنات اطلس وهسپريس الثلاث .

من فوائد هذه الطريقة انها جعلت في متناولنا قياس ابعاد من ١٠ و ٣٠ و٦٠ الف سنة نورية ونيف . وهنا يجدر ان نتوقف لحظة لنحصي ونحقق ما قد كسبنا . لانا قد بلغنا حدود مجموعة كبيرة من النجوم ندعوها المجرة . (Galaxie)

لم يتفق الفلكيون في شأن ابعاد المجرة واتساع مداها الا من زمن قريب اي في سنة ١٩٣٧ . فالبعض منهم قالوا برأي مبالغ فيه جدًا وهو امر يندر وقوعه في علم الفلك . لانهم لم يستطيعوا ، وهم يظنون ان الفضاء بين النجوم صاف شفاف ، ان يعللوا ضعف الاشراق الظاهر في البعض من النجوم الا بقولهم بان هذا البعض بعيد جدًا . على ان الواقع يثبت ان الفضاء بين النجوم ليس شفافًا ولاسيما في نطاق مجموعة المجرة . فان هذا الفضاء مشتمل على شبه غبار وسحابات كثيفة كما سيأتي في كلامنا . ويقول الفلكيون ان شكل المجرة كرة مسطحة غاية التسطيح تشبه قرصًا او خذروفًا افطح ، وان قطرها ثمانون الف سنة نورية وسماكتها الكبرى خمسة عشر الف سنة نورية . وتقع منها شمسنا وسيّاراتها بين المركز والطرف . ثم يقدرون ما فيها من

النجوم بـ ٣٠ مليارًا لم يُظهر لنا منها اعظم ما لدينا من تلسكوبات الا مليارًا واحدًا . . . لكن ينبغي علينا ان لا نغفل المليارات الباقية لا سيا الشاحبة النور منهـا اي الاقزام الحمراء التي تخفت وتغور ولو على بُعد قليل نسبياً .



الرسم ٨ – صورة تقريبية للمجرّة وضواحيها
(سطح فوق ، وقطع تحت)

وتشتمل المجرة على سُدُم منتشرة وسحب شفافة واسعة الرقعة (ويرصدون النجوم من خلالها كانها سحب من بخار) : ونجوم هذه السحب بعضها منير وبعضها تنعكس عنه الانوار والبعض الآخر قاتم خافٍ. لكن يُستنتج وجود الخافيات مما يطرأ على السماء في بعض نواحيه من ظلام غير منتظر يُحدث في المجرة جيوباً سوداء او «اكياس فحم» . ولقد اخذ العلماء اليوم يتحققون من وجودها ويعينونها بدقة متزايدة معولين على ما ينبعث عنها من موجات كهرطيسية تستطيع التقاطها جهازات الرادار التي تم صنعها اثناء الحرب الاخيرة . وتنطلق هذه المجموعة مندفعة في حركة سريعة وتدور على ذاتها كالإعصار . فتسنا تجرنا خلفها بسرعة ٢٧٥ كلم في الثانية في دورة لا تستطيع اتمامها الا في ٢٢٠ مليون سنة. والنجوم القريبة من مركز المجرة سرعة دورانها الذاتي ازيد فهي تدور على شاكلة دقائق الماء والهواء في الاعاصير البحرية والجوية . اما النجوم التي على الحاشية فسرعتها الذاتية اخف ويبدو بعضها كانه يحاول الابتعاد عن المركز «والتملص» .

ضاحية المجرة وطرفانها الواسعة

وعلى جوانب المجرة وخارجاً عنها حيث لا يتجاوز بعد النجوم الست او السبع سنوات نور نجد الاشعة قد طال مداها لان كثافة الذرات المنتشرة في الفضاء تقل الف ضعف عن كثافة مصابيحنا المفرغة من الهواء . لكنا نعثر ايضاً على بعض نجوم كبار او جبارة بل على كتل من الجبابرة ليس بعضها الا صورة مصغرة للمجرة . فمنها ما يشبه جماعات نحل صغار تدور مطنطنة حول الثول الكبير ومنها ما يستطيل بشكل قطارات تصطف موازية لمساحات افلاك نجوم المجرة فهي جزء من المجرة كما ان شوارع الضواحي جزء من المدينة مكبر لرقعتها (اللوحة السابعة) . وهي تضفي على مجموع المجرة شكل لولب او شكل شمس تنطلق عن محيطها اسهم نارية . اشهر هذه الكتل صورة هرقل او الجاثي وقد تدعى ايضاً مسيه ١٣ (Messier 13) : لقد احصي فيها ٤٠٠٠٠ الف نجم كبير واضح تام الوضوح، ولا يماري احد ان الوضح العريض الممتد وسطها يحوي عدداً اكبر .

ويحسن ان نذكر « مدينتين » في الضاحية على وجه التخصيص لانها صورة مصغرة للمجرة ولانهما اثارتا العجب والدهش عندما ذهب الملاحون يجوبون المحيطات في القرن السادس عشر فاطلتا عليهم وكان لسان حالهم يهزج بقول الشاعر : « في سما، مجهول ، من اعماق المحيط ، طلعت عليهم نجوم جديدة » . واطلقوا عليهما اسم اكبر مشاهيرهم فدعوهما سحابة « مجلان » الكبرى وسحابة « مجلان » الصغرى . هما على بعد ٠٠٠ ١٠ و ٠٠٠ ٩٥ سنة نورية . وانا نجد في الكبرى اشد النجوم المعروفة اشراقاً وهو النجم « ابو سيف » او S الدورادو (S de la Dorade) . وقوة اشراقه تعادل اشراق ٠٠٠ ٣٥٠ شمس .

بطاح اللولبيات

ويكشف لنا التلسكوب وراء ال ٠٠٠ ١٠ سنة نورية عن اشياء جديدة هي كلف صفراء مضيئة تستطيع العدسات المكبرة ان توسعها على حين ان آلة لم تستطع حتى اليوم تكبير صورة نجم ما . وحوالى سنة ١٧٨٠ وضع العالم الفرنسي مسيه (Messier) جدولاً باسماء هذه الكلف وقد دعاها « السُدُم » لانه لم يميز بينها وبين السحب البخارية المضيئة تلك التي اشرنا اليها في داخل المجرة .

واستطاع هرشل ان يرصدها بتلسكوبه الكبير رصداً افضل من مسيه فقال ولم يمكنه دعم قوله بدليل بانها كتل نجوم ابعد من كل التي ظهرت بالرصد من قبل . ثم جاء اللورد روس (Ross) سنة ١٨٤٠ بتلسكوب اكبر من تلسكوب هرشل فرأى انها لولبية الشكل . وظل رأي هرشل فرضاً معلقاً حتى قيض للاميركان واتقوا صنع تلسكوب مونت ولسون الكبير في كاليفورنيا (الولايات المتحدة) . فهذا التلسكوب المزود بمرآة شلجمية قطرها متران ونصف المتر والمصبوب في مصانع سان كوبان (Saint Gobain) قد مكن الفلكي الاميركي هوبل (Hubble) سنة ١٩٢٥ من التوصل الى « تفصيل » بعض هذه السدم اللولبية ، اي انه استطاع ان يأخذ لها صوراً فوتوغرافية راى فيها انها مكونة من نقاط نورية منفصل بعضها عن بعض فاستنتج انها كتل من نجوم . ومن الواضح الجلي

ان هذه النقاط المنيرة المتميزة بعضها عن بعض ليست سوى نجوم « جبارة » . واذ كان بعضها من النجوم المتغيرة ، خلص الى انها على شاكلة القيفاويات تنطبق عليها قاعدة السيدة لفيت . وهكذا استطاع علماء الفلك اقامة معالم جديدة تساعد على مواصلة السعي في ارتياد السماء .

واقرب هذه « اللولبيات » منا لولبية « المرأة المسلسلة » (Spirale Andromède) المرئية بالعين المجردة اذا ما كان الجو صافياً . وهي تشغل درجتين من دائرة الفلك اي ما يعادل اربعة اضعاف قطر القمر متى كان في تمامه . والأولى ان يقال انها كانت تشغلها قبلَ ٧٥٠ ٠٠٠ سنة . لان النور الواصل الينا منها قد استغرق هذا الزمن حتىَّ وصل الينا . اما عرضها المرئي فهو ٢٥ ٠٠٠ سنة نورية ، على حين ان عرضها الحقيقي اكبر من ذلك كما يُستدل من دراسة صورها . فهو زهاء ٨٠ ٠٠٠ سنة نورية . فهي صنو مجرتنا ونظيرتها .

ثم هناك خمس لولبيات اخرى هي « اللولبيات الموضعية » (Groupe Local) تبدو على بُعد لا يزيد كثيراً عن مليون سنة نورية . فهذا يكون للمجرة فضلًا عن الضاحية المشار اليها منطقة « ريف » .

وعلينا ان نتوغل في بحثنا الى ابعد من هذا لان العلماء قد احصوا ٤٤ ٠٠٠ من هذه اللولبيات ويقدّرون ان تلسكوب مونت بالومار سيمكنهم من رؤية ٦٠ مليوناً منها . على انهم لم يستطيعوا حتى الان ان « يفصلوا » منها اي ان يميزوا نجومها نجماً نجماً ، الا ١٥٠ لولبية . ولذا لم يتح لهم ان يجنوا عدداً كبيراً من القيفاويات من تلك الحدائق النائية .

المنائر الاخيرة

قد يتفق لنا احياناً ان نرى في المجرة نجماً جديداً ، وهو في الواقع نجم من النجوم غير المرئية او من النجوم الضئيلة النور اخذ يحترق وفي بضعة ايام ازداد اشراقه ١٠ ٠٠٠ ضعف . ثم ما هو الا بعض الوقت حتى يأخذ نوره في التضاؤل شيئاً فشيئاً فيعود النجم الى حالته الاولى ويلبس شكله السابق . ومنذ شرع الفلكيون يرصدون هذه الاشتعالات وجدوا انها تحدث مراراً

عدة كل سنة ، لكننا لا تتناول الا طائفة معلومة من النجوم وما برح تعليل هذه الظاهرة فيزيائياً في عالم الغيب . وما لا شك فيه هو ان هذا الاحتراق يبدّل حالة النجم فتنجُم عنه قوة لا يعطي انفجار القنبلة الذرية الا فكرة ضعيفة كل الضعف عنها . وشوهد في العصور القريبة اغرب من ذلك ولكن مرتين لا غير اذ ظهر في السماء في سنة ١٥٧٢ وسنة ١٦٠٤ نجمان لا من نوع « الجديد » فحسب بل من نوع « فوق الجديد » .

وعامة المعلومات التي لدينا عن اللولبيات الخارجة عن نطاق مجرتنا تيسر لنا مشاهدة هذه الظاهرات في هذه وفي تلك. وظهر منها في « المجموعة الموضعية » عدد وافر حتى ان العلماء وجدوا من المفيد القيام بدراسة احصائية لها . فاستخلصوا انا لا نخطئ كثيراً اذا قدرنا بالاستناد الى هذه الدراسة ان قوة الاشراق في النجم « الجديد » تعادل ٦٠ ٠٠٠ مرة اشراق الشمس وان الاشراق في النجم « فوق الجديد » يعادل ٦٠ ٠٠٠ ٠٠٠ مرة الوحدة نفسها . فحسبنا اذن ان نُفاجأ في احدى اللولبيات السدمية النائية بظهور نور غير مألوف حتى نقول بظهور نجم جديد او فوق جديد . ثم نجعل منه مقياساً جديداً للمسافات بالاستناد الى قوة اشراقه البادي ودلالتها على قدر البُعد . وما هذه الانفجارات الهائلة في نظر الفلكيين الا مناثر تنبئ بوجود عوالم بعيدة .

فاصبحنا نعلم بالاعتماد على هذه الطريقة ان مجموعة من اربع لولبيات تقع وراء برج « الاسد » على بُعد مقداره ٧ ملايين سنة نورية . وعلى البعد نفسه نشهد وراء برج « العذراء » ٥٠٠ لولبية . ونشهد وراء صورة « الفرس » ١٠٠ لولبية على بُعد ٢٥ مليون سنة نورية .

وبما ان جميع هذه اللولبيات لها اشراق واحد مساوٍ لاشراق نجم « فوق جديد » في اشد درجات احتراقه فانا نستطيع بتعميم قاعدة التناسب القائمة بين قوة النور البادي وبين بُعد مصدر النور ان نقيس بُعد اللولبيات النائية جداً قياساً مأموناً لا يتجاوز مجال الخطأ فيه اكثر من ٢٠ ٪ . وبما ان هذه اللولبيات تبدو لنا كتلاً فمن الممكن ان نعاود قياس المسافة نفسها مرات متوالية فنستخرج منها معدّل البعد العام .

ورأى الفلكيون ان في كتلة «شعر برنيقا» ٨٠٠ لولبية على بعد ٥٣مليون سنة نورية. وان في «الاكليل الشمالي» ٤٠٠ لولبية على بُعد ١٢٥ مليون سنة نورية . وان في كتلة «فرساوس - المسلسلة» ١٨٠٠ لولبية . . . الخ. وابعد اللولبيات التي كشف عنها تلسكوب مونت ولسون يبدو اشراقها مساوياً لاشراق نجم حجمه في المرتبة الـ ٢٠ وهي على بعد ٣٥٠ مليون سنة نورية (الكتلة X ٩٢ = Amas X. 92)

وتلسكوب مونت ولسون ومداه ٥٠٠ مليون سنة نورية لم ينته من استنفاض مجاهل السماء التي يبلغ اليها ، على ان الصدارة انتقلت الى تلسكوب مونت بالومار وبه مرآة مقعرة قطرها ٥ امتار وستكون قوته ضعفي السابق اي ان الفلكيين سيقيسون بواسطته مسافات على بُعد مليار سنة نورية . واولى التجارب التي اجروها لاختبار قوته مكنت الراصدين من رؤية سدم لولبية لم يتفق لهم قط ان رأوها حتى الآن . ولكن...

الهرب في المجهول

هنا مفاجأة جديدة يفاجئنا بها الاب العالم لومتر (Lemaitre) احد اساتذة لوفين والعالم هوبل في مرصد مونت ولسون . فانهما اكتشفا ، عن غير تواطؤ بينهما ، الاول بواسطة حساباته والثاني بكليشياته ظاهرة غريبة سمياها «ظاهرة الهرب» . فقد لاحظا ان اللولبيات البعيدة حيثما اتفق ظهورها هي في هرب متصل لا تنفك تبتعد عنا كأنها تبحث عن فضاء جديد وكأن عالمنا آخذ بالاتساع كالبارود الذي ينفجر .

وعكنا اذا شئنا البحث في هذه اللولبيات ان نعود الى طريقة التحليل الطيفي التي انصرفنا عنها عند تخطينا حدود المجرة لما اصبح نور النجوم المنفردة ضئيلاً . الحق يقال اننا لا نتوقع البتة ان نجني اموراً مدهشة من فحص طيوف عادية مبتذلة قد تخالطت فيها اشعة مليارات من النجوم . ومع ذلك فان هذه الاشعة قد طرأ عليها تغير ملحوظ في طيفها وهو انحراف في خطوط الكلسيوم H و K . وليس التغير الطارئ على هيئة الطيف بانتقال احد الخطوط عن مواقعها

المألوفة مدعاة للاستغراب . لان النور اشبه شيء بصفير القطار . فهذا حادّ صاعد اذا ما كان القطار مقترباً ، وثقيل هابط اذا ما ابتعد القطار . فكذلك يتقبض طول موجة النور اذا كان مصدره قريباً وتطول اذا كان مصدره بعيداً . فاذا حصل انحرافٌ في الطيف كان ذلك دليلاً على اقتراب النور او ابتعاده .

وفي الواقع اطياف اللولبيات تبدو فيها علامات الهرب المتسارع بازدياد البعد . ولا يُستثنى منها الا لولبيات « المجرّعة الموضعية » فهي وحدها لا تهرب منا كأن الجاذبية تشدها والمجرة داخل منطقة قطرها مليون سنة نورية . بيد ان سائر اللولبيات هاربة جادة في الهرب كلما بعدت الشقة بينها وبيننا . ونسبة السرعة الى المسافة كما يلي : كلما قطعنا مسافة مليون سنة نورية ازدادت سرعة الهرب ١٦٠ ك.م. في الثانية .. حتى نصل الى كتلة « التوأمين » التي مسافتها ١٣٠ مليون سنة نورية فتبتعد عنا بسرعة ٢٠ ٠٠٠ ك.م. في الثانية .

فلولبيات الكتلة X ٩٢ وهي اضأل من ان يظهر لها طيف يترجح ان تكون سرعة هربها ٦٠ ٠٠٠ ك.م. في الثانية . هنا يعترضنا سؤال :

اذا توصل الفلكيون الى رؤية نجوم بعيدة عنا مليار سنة نورية بواسطة تلسكوب بالومار (Palomar) المدشن حديثاً أفينبغي ان تكون سرعة هربها ١٦٠ ٠٠٠ ك.م. في الثانية ؟ هذا الارجح . اذ لو كان الامر على خلاف ذلك لوجب التسليم بان الكون يتمدد في مركزه ويتكتل على جوانبه ، كأنه محصور ضمن جدران مرصوصة . غير ان هذا الافتراض بعيد عن المعقول . ونتساءل : لئن اوصلت تلسكوبات الاجيال المقبلة الانسانَ الى رؤية نجوم على بعد مليارين من السنوات النورية عنا فماذا سوف يرى فيها ؟

هذا سؤال لا يتصدّى احد للجواب عليه لان القاعدة التي وضعها لومتر وهوبل تفيد ان سرعة هرب تلك النجوم ينبغي ان تكون ٣٢٠ ٠٠٠ ك.م. في الثانية وبما انها تفوق سرعة النور ، فما من احد يجرؤ ان يتصور جسماً مادياً يسير بسرعة اعظم من سرعة النور . حتى ان اينشتين (Einstein) جعل من هذه الاستحالة دستوراً اساسياً ترتكز عليه فيزياؤه الخاصة .

لذلك مهما كان مبلغ دهشتنا حيال المعلومات التي قد حصلنا عليها فانه يجب علينا ان نكون على استعداد لا اقول لمواجهة اكتشافات معينة قد يعز علينا التكهن بها ، بل لمواجهة مفاجآت جديدة قد تقتضي منا العجب . وهذا هدف جدير بالاجتهاد والايغال في البحث فيه .

في زرقة السماء . . . ابونا

ايها الاخوان في زرقة السماء
اتخذ ابونا مقامه
طأطئوا الهامَ يا ابناءَ البشر
واعلموا ايها الناس اين يملك الرب » .

(شيلر : انشودة الفرح)

وعلى انتظار ما يحمله الغد في ثناياه من مدهشات لا يدري احد ما ستكون فلنتوقف قليلاً عند اكتشاف لومتر الذي جعل من هملت شكسبير درساً مليئاً بالعبر نستطيع ايجازه بالكلمة التالية : « ان الكون ليعظم في هذه اللحظة التي اخاطبكم فيها ويكتسب أفضاء اوسع من هذا الحيز الذي تقضون فيه ايامكم » ولئن كبر الكون مع الزمن فهذا يعني انه كان اصغر مما هو في الماضي . وكلما كبر الكون في المستقبل صغر وضؤل حجمه في الماضي . الى ان نرجع به القهقرى الى الانفجار الاول الذي تذف في الفضاء المجموعات اللولبية بانجمها وسياراتها . وبما انه يستحيل الرجوع الى الوراء رجوعاً لا نهاية له فيلزم عن ذلك ان العالم ليس سرمدياً . فالصمد السرمد الواجب الوجود لا يجوز ان يكون هذا الكون ولا هذا الهباء المتوهج ولا هذه العجائن المتقدة او تلك الغازات المنحلة ، وانما شيء مغاير لهذا العالم هو ما نسميه الله .

فمن خلال الافتراض الشديد الاحتمال الذي اتحفنا به لومتر وهوبل ومآله ان العالم آخذ بالاتساع ، ارى الله السرمدي الفرد الذي فطر العوالم . ولقد عرفناه واقررنا بوجوده لكن علوم الفلك وسائر العلوم البشرية تساعد على اكتشافه روحاً مبدعاً قد جعل بين العالم المادي وعقل الانسان عروة اتصال وتكامل .

من الاكيد ان عالم النجوم لم يخلقه عقل الانسان كما زعم بعضهم على سبيل المجاز في القول، وكيف يخلق العقل عالماً يستعصي عليه تفهمه ويحيّره . ومع هذا فالعالم من مقتضيات التفكير الانساني ، العقل يغزو العالم ويتفهمه والعالم يتفتح للعقل ولا يمتنع عليه .

ففي نهاية هذه الطريق المزدرعة نجوماً والتي نحن فيها ماضون وجدنا شيئاً آخر غير الفضا. والذرات . لان الفرض الجري. الذي ما زال قيد المناقشة وان كان يتوطد يوماً بعد يوم يرينا الله في اصل كل الاشيا. كما ان ازدياد المعرفة الانسانية يرينا الله مصدرًا واحدًا للاشيا. وللعقول .

القاضي امام مهنته وامام ضميره *

بقلم الرئيس الاول شكري قرداحي
وزير العدلية سابقاً
استاذ في المعهد الحقوقي في بيروت
عضو مجلس ادارة الاتحاد العالمي للمؤسسات الحقوقية الدولية

« من هو ذلك العادل الذي فيه من الالوهية
ما يخوّله ان يقوم قاضياً في الناس » .

ما درى كاتب هذا البيت انه سيلتقي على صعيد واحد مع الكتاب المقدس (سفر الخروج ٢٢ : ٨) الذي يعطي هذه الصفة من نُصبوا قضاة للشعوب .

لقد قامت على هذه المهنة نزعة ادبية لم يأخذها زمان او مدى اذ لا تزال منذ عهد ارسطوفان حتى عصرنا الحاضر تجد ممثلين لها اكفاء يصلون القضاء ، مع ما يفرضه من مسؤوليات جسيمة مهولة ، سخرية محضة . ذلك انه يشق علينا ان نقر لبشر مثلنا بميزة تجعله في مرتبة فوق البشر حيث يصير مطلعاً على خفايا القلوب مقرراً لمصير حياتنا وشرفنا ، حريتنا واموالنا . وهذه السلطة التي توليها الضرورة الاجتماعية لفرد بشري ، اذا لم يكن مردّها الى الله فمن العسير ان يذعن لها عن رضى وارتياح ، لا عن طريق الاكراه الجائر ، وان يخضع الناس ، وهم متساوون متشابهون ، لاحكام تميس . فما يكتنف هذه الالهة من مظاهر الابهة وما يرتديه عمالها من اوشحة فضفاضة براقة بالذهب والارجوان غير مبالين بسخيف زخرفها ، كل تلك المشاهد الاحتفالية لا تستطيع ان تؤمن للعدالة هيبتها وجلالها ما دامت منقطعة عن معينها الروحي فانما منه تستمد القوة والسلطان .

يتبين لنا ، والحالة هذه ، ان القاضي وهو مدعو الى الاضطلاع باشرف

* محاضرة أُلقيت بالافرنسية بحضور حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية اللبنانية المعظم سنة ١٩٤٦

المهات لا ينبغي ان يكون ذا علم واسع متنوع ، وذا تفهم نفساني دقيق زاده الاختبار دقة وإرهافاً فحسب ، بل مثالاً ايضاً باستقامة حياته الشخصية وبعقل وقلب تحلّياً بفضائل شتى جعلته اهلاً لثقة الدولة .

ها نحن نواجه الموضوع الذي لي الشرف ان اعالجه امامكم . ولم يكن ليخطر ببالي ان احصر في محاضرة لن تستغرق اكثر من ساعة كل النواحي الفنية من هذه المهنة ولا ان اسهب في الكلام عن المنزلة الرفيعة التي تحتلها سيّما انه قُدّر لنا ان نرسم في ظرف سابق خطوطها التاريخية الكبرى وميزاتها .

فجلّ ما نبغي التوقف عند فصل من هذه الملحمة القضائية الرحبة الذي لم نكتشف مجاهله الى الآن .

اولًا : الواجب المهني ، الواجب اليومي مع ما يتطلبه من صفات ادبية يُعالَج على ضوئها . وهذا ما يتعلق بالقانون .

وثانياً : الواجب الوجداني الذي يتعلق من هذه الناحية بالسنة الاخلاقية . وهكذا سنبين ، من جهة ، الواجبات التي تلزم الحاكم اثناء القيام بعمله ، ومن جهة ثانية قضايا الضمير الاكثر وقوعاً ، التي تعرض للحاكم في رسالته . وانه لمن الغرور ان اريد الالمام بهذه الحوادث في مدة من الوقت كهذه وجيزة .

انما امام واجبين متآخيين في بعض الاحيان ان لم اقل في اكثرها : فان ما تفرضه المهنة باسمها هو ايضاً ما يحبّذه قاضي القضاة الباطني : الوجدان .

ذلكم هو ، يا سادة ، موضوع محاضرتي .

ولزام علي ايضاً ان اتيكم ببعض نقاط توجيهية ترشد انتباهكم فلا يتيه الطريق .

سأبحث امامكم واجبات القضاة على مر العصور ، وهي الاستقلال ، وعدم التحيّز والتأثر ، والاعتدال والرفق . وبعد الانتباه من هذه الواجبات التي كثيراً ما لا يفترق مفهومها عن مفهوم الفضيلة بشكل عام ساحدثكم عن الواجبات المهنية في تطبيق العدالة ثم عن العقوبات التأديبية . وهذا القسم يتعلق بالوجهة المهنية البحتة .

اما من حيث الواجب الضميري فاننا سنعرض لمشكلة يصطدم بها الحاكم

عندما يطبق قانوناً قد يكون بيّن الاجحاف : اي مسلك عليه ان ينتهج عندما يكون تناقض بين مبادئه الشخصية ومبادئ القانون .

وسنعالج هذه المسألة من حيث البيّنة ايضاً : فقد تكون هذه قائمة قانوناً وهو غير مقتنع بها وبالعكس

القسم الاول

لمحة تاريخية

قديماً ، كان للناس سواء في الشرق ام في الغرب فكرة سامية عن القضاء . فالاسلام ، بحسب قول الفقهاء ، يقدمه على الصلاة في الترتيب الروحي وقد قال احدهم : يوم للعدل بين الناس خير من سبعين سنة عبادة .

ذلك ان مهمة القاضي محفوفة بالاخطار ومن احسن القيام بها فقد برهن عن فضائل جمّة . وقد لاحظ النبي هذه الصعوبات التي تعترض كل قانوني فعبّر عنها في قوله : كل ثلاثة قضاة ، اثنان منهما للنار وواحد للجنة .

فلا عجب اذ ذاك ان لم يسعَ الساعون وراء هذا المنصب سيّما وان من رغب فيه لم يعد اهلاً لتقلده كما هو صريح العبارة في كتب الفقه . فما ابعدنا عن التسابق سعياً وراء المناصب القضائية . واذا كانت تلك العقلية الغابرة قد طوتها الايام والعادات الا انها تفسر تصلب الشريعة في حقل السنن النظرية اذ نراها تصر على تجرد القضاة المطلق . وهناك القول المأثور في كل من تبوأ مركزاً قضائياً : « لقد بلي بالقضاء » اشارة الى ما يحيط بتلك المهمة من اخطار .

من جسيم الخطأ ان نتوهم ان تلك كانت دائماً حال القضاء . فكم من منظومة راحت تعبث به منددة بشاهد ضعفه دونما نظرة الى ما مر به من مراحل المجد .

ونحن في صدد الفضائل القضائية كيف نسكت عن ذكر الفقهاء الشرقيين امثال ابي حنيفة والشافعي ومالك وغيرهم . يستفاد من اقوال مؤرخي الامام الاعظم انه لم يقبل بارتقاء سدة القضاء الّا مكرهاً بالسجن . ويُروى انه رفض النظر في دعوى استظل بيت صاحبها من لفح الهجير او ارتاح في فيّ جدران

البيت من عيا. سفرة لانه كان يخشى ان يكون لهذا الحادث الطفيف ما يدفع به الى التحيّز . — وان كان هذا التزمّت المبالغ يثير اليوم ابتسامنا فانه لدليل واضح على إرهاف وجدان ذوي الالباب الاول .

واني لا ازال اذكر قصة قرأتها في احد الكتب مؤدّاها ان روجه باكون كان يغض نفسه ان يحتفظ بقلم رصاص اعتقادًا منه بعدم حقه بامتلاك شيء بعد ان عاهد النفس على الفقر الكامل .

وكم غيره في الغرب من وجوه سامية تجسم فيها الاستقلال والنزاهة والانصاف. فمن منا يجهل داغيسّو (d'Aguesseau) ولا موانيون (de Lamoignon) ودورميسون (d'Ormesson) والرئيس (Haurion de Pasey). — ومن لا يذكر وقفة البطولة التي كانت تقفها المجالس القديمة بوجه السلطة الملكية فابطلت الكثير من الشرائع الظالمة او الاعتباطية ، ووفرت الفرائض الشاقة بل والغاشمة احيانًا على شعب كان يدفع الضرائب ويقوم باعمال السخرة بحسب اهواء المتسلطين .

ويلذ لي ان اذكر نصائح لاروش فلافان (La Roche Flavin) الى قضاة زمانه . فبعد ان يحضهم بها على النزاهة والتقيد بمواعيد الجلسات وان يكونوا قدوة في سلوكهم وما عليهم للمتداعين دالة يذهب الى ابعد من ذلك . فينصحهم بالامتناع عن الصيد — وذلك مبالغة اذ لسنا نرى عيبًا في هذه التسلية الرياضية — واللعب بالورق — وهذا امر معقول — ولبس الشعر المستعار والتطيّب لان القضاء ارفع من ان يتدنى الى مماشاة الدهماء الطائشة — شأن بعض الناس — وعن الضحك ، لان وجه القضاء لا يتأثر بشيء .

ان هذه المبالغة في تقييد القاضي للحفاظ على كرامته من شأنها ان تفصله عن المجتمع فتسجنه في برج عاجي يعيش فيه انسانًا اسمى على هامش الحياة ككاهن برهمي ذي حركات معينة وابتسامة جافة عديمة الطبيعية ، متحذلق في لغته ، متصنع في مشيته ولنا شاهدة على ذلك مقطوعة هجاء . وقعت بين يديّ منذ قليل وهي للشاعر فرنسوا ميتار (François Meynard) الذي يشهد له لاروس بصفاء انشائه اللبق . — واننا لنشك في زعم لاروس عندما نقرأ هذه القطعة

اللاذعة التي اقل ما يقال فيها اليوم ان من شأنها ان تحيله الى المجلس التأديبي. منها مقطعين في تصوير القاضي :

«انه يزن كلماته
ويقيس بالبركار سماله
وليس عده لكلماته
باكثر دقة من عده خطواته .
«ولستطيع ان نقول بصواب
انه لم يوجد انسان قط
اكثر رصانة منه
في حماقته المضحكة».

وبعد هذه الجولة في عالم القضاة الاقدمين يليق بنا ان نلتفت اليهم لنشاهدهم يتطاحنون مع صعوبات وظيفتهم القاسية . فالقاضي الذى يعتلي هذه المنصة بعد ان يكون نزع من صدره الطموح المشير بالسوء – وما ذلك بيسير لمستعطف توصلًا للمناصب العليا – ومن بعد ان يكون طرد من فكره كل عاطفة ، عليه ، في هذه الرسالة السامية التي تربطه بالالهة ، ان ينكبَّ على عمله باستقلال تام واهتمام كلي بعدم التحيّز . .

الاستقلال التام

هذه الصفة الرئيسية ، على القاضي ان يُظهرها في كل اعمال رسالته حيال المتقاضين ، حتى ولو كانوا من اصحاب السطوة والنفوذ ، وان لا يخشى ان يعرّض مركزه للخطر في سبيل نصرة الحق، وذلك ما قد يحدث عندما تكون الدولة ذاتها هي الخاسرة او احد الرجال السياسيين الذين يتعلق مصيره بهم . تلافياً لمثل هذه الاخطار وتأميناً للضمائر السريعة الخوف من بطش السلطة ، قررت اكثرية الدول ، وبينها لبنان من امدٍ قريب ، ان يكون القاضي ثابت المركز لا عرضة للعزل . وهذا ما يجعلهم في مأمن من انتقام رجال الدولة او السياسة السافل. وما اجمل ان نردد كلام غيزو (Guizot) القائل: «متى ولجت السياسة ضمن جدران المحاكم ، فعلى العدل ان يخرج منها».

وبديهي ان القاضي اذا تقاعس عن انجاز واجباته ، اذا اقتبل الرشوة ، وهذا نادر لحسن الحظ، انزل به العدل قصاصاً صارماً..

والشرع الفرنسي شديد القسوة من هذه الوجهة اذ لا يميّز بين ما اذا صدر

الحكم جائرًا ام عادلًا :متى ثبتت الرشوة فالقصاص واحد . هناك قوانين لا تأخذ بهذا الرأي ،وهي على صواب ، ومنها قانون الجزاء اللبناني والالتوني فهي اشد صرامة بحق القاضي الذي يخون وظيفته لقاء وعود قُطعت له بالهبات والهدايا منه بحق القاضي الذي يرتشي ليأخذ عليه امر في وظيفته ، قانوني بحد ذاته ، ولكنه نتيجة اجراءات غير مسموح بها . اما العقوبات التي كان تنزلها الشرعات القديمة بحق الراشي فقد كانت من نوع آخر اشد صرامة . فكبار قضاة اليونان لدى مباشرتهم الاضطلاع باعباء وظيفتهم يقسمون اليمين على ان يحافظوا على الشريعة ولا يرتشون.ومن حنث ، غرم بما يعادل اقامة تمثال له من ذهب . انه لقصاص لا يستهين به اناس عصرنا .

وعلى ذكر المناورات المختلفة التي يعمد اليها الراشون لاغراء القاضي وافساد وجدانه لم اجد امرّ من التأنيب الذي وجهه مونتسكيو في غضون رئاسته القضائية الى المحامين الذين يدأبون في الاسترحام . وان في كلامه نَفَساً يذكر بوسيه الكبير اذ هتف قائلًا : « الا يا من تستخدمون خداعنا كل ما يخيل اليكم اننا لا نستطيع ان نتّقيه فتعمدون الى المراوغة والدنايا،ونفوذ المتنفذين وصداقة الاصدقاء، وتأثير زوجة عزيزة او تعمدون احياناً الى سلطة اقوى فتختارون اهواءنا لتهاجموا قلبنا من اضعف جوانبه ، ألا ليتكم تفشلون في كل خططكم وتخزون في كل محاولاتكم ، فلا نحتاج اذاك الى ان نوجه اليكم التأنيب الذي يوجهه الله في الكتب المقدسة ،الى الخطأة اذ يقول لهم : « لقد استخدمتموني وسيلة لبلوغ مآربكم الباطلة ».

عدم التأثر

وعلى القاضي المستقل ايضاً ان لا يستشعر البغضاء والحب ويحترز من اصدار احكامه عن القلب، ذلك القلب الذي ندد به الحكيم لاموانيون(Lamoignon).

وهنا ايضاً يجب على الحاكم ان لا يفرط بما هو عكس ذلك وهو التهرب من كل نفوذ او تدخل اجنبي .(وهذه الكلمة الاخيرة كم هي معروفة عندنا اليوم ، لان الوساطات والتوصيات لم ننبذها بعد من محاكمنا) فلكي لا ينحرف القاضي عن جادة الصواب فيبقى عادلًا عليه ان يتحرز من الانقياد الى ذلك

الشعور القائل بان الراشي لو كان على حق في قضيته لما لجأ الى الرشوة .

ولقد لاحظ باسكال بحق ان الحب والكره يغيران مجرى العدل . وزاد قائلًا :« اني اعرف قضاة ذوي عقلية غريبة ، اذا حاولوا ألّا يقموا في نقص افرطوا في عكسه وكانت احكامهم اظلم الاحكام ؛ اذ كان يكفي ان يأتيهم احد بتوصية من اقاربهم ليخسر دعواه وان كانت تلك الدعوى عادلة المطلب.

بجانب الاستقلال وكنتيجة له تقوم المزية الرئيسية وهي عدم التحيّز. وقد حرص الشافعي على ان لا يتسرب شيء من الريبة حول هـذه المزية . فامر القاضي بالا يشتري حوائجه بذاته بل يعهد بذلـك الى من يقوم به مقامه من دون ان يعلم الناس بالوكالة ، خوفاً من ان يظهر التجار تساهلهم في المعاملات استعطافاً للموكل اذ قد يجدون يوماً انفسهم بحاجة اليه وذلك مما قد يدفعه للتحيّز.

وعملًا بهذه الاعتبارات فقد قالت المادة ٣٨٧ من قانون الاصول الفرنسي بعدم صلاحية النظر في الدعوى «اذا كان القاضي سيد احد الطرفين او مؤاكله او منادمه في بيته ».

سلوك القاضي في الجلسات . واجباته نحو المحامين

ومـا خلا هذه الصفات التي يجدر بالقاضي ان يكون متحلياً بها ، هناك واجبات اخرى ناجمة عن وظيفته في اثناء الجلسات : على القضاة أن يكونوا منتبهين آبان المرافعات وان يعرفوا كيف يصغون ، وهذا يتطلب فنًا حقيقيًا— ان الذين لم يجلسوا ابدًا ساعات متتابعة لا يمكنهم ان يدركوا عناء المستمع ، اذا كان هذا صاحب ضمير حي ، وكم من المرافعات التي تسير على وتيرة واحدة مملة تستدعي النعاس . وهناك نبرات صوتية رخيمة ناعمة لا يستطيع معها السامع ان يتغلب على سلطان النوم — ومنذ القديم لم تبرح لذاعة الهجائين تجد لها موضوعاً في النعاس اثناء الجلسات .

ولكي لا اذكر لكم الا واحدة من بين المئات، اسمح لنفسي بان اذكركم كيف استطاع هنري بوردو ان يحرز نجاحه الاول امام المحكمة ، اذ كان يتولى الدفاع — وهو لا يزال متدرجاً — عن المدعو سابرستيني . فقد لاحظ

المحامي ان القضاة ، وقد نال منهم الحر مناله ، لا يصغون الى دفاعه . فقد استولى سلطان النعاس عليهم واحداً فواحداً . فاغفى العضو الاول ثم الرئيس الذي حاول دون جدوى مغالبة النوم فتارة كان يغمض عيناً وطوراً يفتح الاخرى كأنه يقوم بتمرين على الرماية ، واخيراً جاء دور العضو الثاني ، فنام ، وفقاً لعادته باتباع رأي الاكثرية. اما المتهم فقد بقي وحده مستيقظاً — فاغتنم فرصة غطيط الحاجب الذي كان يحترم السلطة فيتشبه بروسائه المستغرقين في النوم على نغمة غطيطه ، وفرّ هارباً . وما دروا بفراره الا بعد فوات الوقت فلم يعدم الرئيس الحيلة وكان ملئ الجعبة بالحيل لانقاذ الموقف فاصدر امره بتبرير المتهم واطلاق سراحه للحال متذرعاً بعدم توفر الاسباب لتوقيفه.

يتلافياً لتعداد مثل هذه المشاهد المبالغ في وصفها قصد إظهار النقص المشجوب فيها ، على القاضي ان يكون متيقظاً كل التيقُّظ خلال تلك الجلسات التي تُعقد عادةً في باريس حوالي الساعة الثانية بعد الظهر اي في اثناء عملية الهضم حيث يكون العقل اقل استعداداً منه في غيرها لاستيعاب مشاكل الشرع المتعبة فيجدر بالقاضي ، لكي يحفظ انتباهه ولا يدعه يشرد في عالم الاحلام ، ان يمسك القلم ويدوّن ابرز نقاط الدفاع — وانها لخطّة بيّن الاختبار لي انها ناجعة .

وفضيلة القاضي تظهر ايضاً لدى استماعه الى محامين غزيري المادة يعيدون ، اثارة منهم لاعجاب الجمهور ، عشرات المرات ما يكونون قد اتوا على ذكره . وشبّه تاين (Taine) ما يعانيه اذ ذاك القضاة من العذاب بخازوق داخلي يلوي شفاههم ورؤوسهم بينما المحامي مدة ساعتين او ثلاث متتابعة لا يبرح يخرقها باسم القانون . ولكن القاضي يستطيع ان يقاطعهم ويطلب منهم الايجاز في كلامهم . فان ذلك حق له بصفته مديراً للجلسة التي يرأسها ومسؤولاً عن الامن فيها . وانما عليه ان يكون حكيماً في استعماله هذا الحق — فليحترز في مقاطعة المحامين الواضحين الصريحين في دفاعهم والذين يتجهون مباشرة الى صلب الموضوع. وفي عداد هؤلاء المحامين كان السيد فالاتوف (Falateuf) وكم اصاب من توفيق في جوابه على قاضٍ طلب منه ان يوجز في الكلام فقال: «لا حاجة للايجاز فقد انتهيت: دعواي عادلة وانت قاضٍ عادل ، فاحكم» . وعلى كل

حال فالنزعة السائدة اليوم في الحقوق الجزائية ترمي الى اعطاء المحكمة الحق بتعيين وقت المرافعات وتحديده . وهذا ما اقره المؤتمر الدولي الذي انعقد في برلين عام ١٩٣٧ . وفي ايطاليا وضعت الحكومة قانوناً حددت فيه مدة كلام المحامي بنصف ساعة لا اكثر تفادياً للاسهاب في المرافعات الجزائية حيث العادة باطلاق العنان للفصاحة .

تلكم هي الصفات التي يجب ان يمتاز بها القاضي في تطبيق مهنته . ولنتوغل الى ابعد من ذلك في بحثنا لنرى كيف عليه ان يمارسها .

وانه لمن الغرور الباطل ان ندعي جمع مختلف المهمات المهنية في بضعة اسطر. فذلك يتطلب مؤلفات ضخمة وحسبنا القول ان على القاضي ان يطبق القانون— وسنعرض فيما بعد للمشكلة التي يثيرها هذا القانون اذا كان يناقض وجدان القاضي— ولهذا يطلب من المدعي اقامة البيّنة . ذلك ان الناس ليسوا عادة وبصورة عامة مدينين ودائنين فيما بينهم . فعلى من يقول بما يخالف تلك القاعدة العامة ان يقيم البينة . والشرعات مجمعة على اقرار ذلك المبدأ غير ان بنتام (Bentham) المعروف ببعد نظره ينكر هذا المبدأ ويقول بجعل البيّنة على عاتق المدعى عليه في الدعاوى العينية—ولا يخلو هذا القول من شيء من التناقض والغرابة .

ومن حيث البيّنة ، فان جميع القوانين تحتّم على القاضي ان يستند الى الحجج الشرعية فقط ، لا الى معلوماته الخاصة او الى التحريات الشخصية التي يكون قد قام بها خارجاً عن المحكمة وعن الطرفين . اما وجهة نظر الحقوق الانكليزية فانها تعاكس ذلك .

على ان بعض القوانين تبيح لاعضاء السلك القضائي ان يبنوا احكامهم على معلوماتهم الخاصة كما يبنون تلك الاحكام على البراهين التي يقدمها المحامون في الجلسة . ولهذا السبب يستطيع القاضي، اذا كان لديه معلومات خاصة عن النقاط المختلف عليها بين المدعين ، ان ينزل عن المنصة فيقسم اليمين ويؤدي شهادته — وهذا لا يمنعه من الاشتراك باصدار الحكم . اما الشرع الاسلامي فانه لا يبيح للقاضي ان يسند حكمه الى معلوماته الشخصية لان هذا يضاعف شخصيته فيجعله شاهداً وحاكماً في وقت واحد .

والحقوق الانكليزية رغم رحابتها لا تروق لتشسترتون (Chesterton)، وكل يعرف حب هذا الناقد للمتناقضات وميله الى الغرائب والمتنافرات التي كانت تسطرها ريشته بفكاهة لاذعة . واننا نعثر بين متناقضاته على ملحوظات هي غاية في الدقة ، وتشسترتون يحمل بقساوة على الاصول والاوضاع الشكلية التي تقيّد القاضي في اعماله وحركاته . فلقد تكلم بلسان حاكم، اقل ما يقال عنه هو انه غريب ، هذه الكلمات :« كانت تمر بي كل يوم قضايا صعبة ومحتدمة، علي ان اعالجها بالزج حمقاً في السجن ، على اني كنت اعرف على ضوء الذوق السليم انه كان بمقدوري اصلاحها بواسطة قبلة او صفعة او ببعض الايضاحات او برحلة الى وست هايلندس (West Highlands). وكل كلمة كنت اسمعها في الجلسة كانت تبدو لي اقرب الى الحياة الحقيقية من كل ما كنت انطق به — الى ان كان اليوم الذي لعنت فيه كل هذه الحماقات جهاراً ، فعُددت في مصاف المجانين واحتجبت عن الحياة العامة ».

اما عهد البينات الشرعية فلحسن الحظ قد طوته الايام ولم يبقَ منها اجمالاً الّا ما قام على اقتناع داخلي .

وهناك قاعدة اخرى مطبقة في الجزائيات فقط ، تقول ببراءة المتهم ما لم تقم البينة كاملة على تجريمه لان المتهم مهدَّد في حياته وشرفه وحريته وكل ذلك متوقف على كلمة القضاء . فالعـدل يقضي بان يستفيد من ادنى شك يساور القاضي ، عملاً بالمبدأ القائل :« تبرئة عشرة مجرمين خير من معاقبة بريء واحد». والسنة الاخلاقية تؤيد ذلك فلا يجيز الضمير اصدار حكم عـلى متهم ما لم تثبت التهمة بالتأكيد .

وقبل ان ننتهي من الكلام عن البيّنات ، يجدر بنا ان نقول كلمة عن المسألة التالية التي تتشاطر الحقوقيين : هل يستطيع القاضي الجزائي ان يحوّل المتهم الى شاهد على ذاته باليمين ؟ وانه ليطول بنا الحديث اذا تعرّضنا لهذه المسألة التي لم يحلّها المؤتمر الدولي المنعقد في بالرمو (Palerme) فترك لكل دولة حرية العمل بما يماشي عوائدها وتقاليدها العدلية . وجدير بنا ان نذكر ان القوانين الانكليزية تسمح للمتهم بقسم اليمين بناء على طلبه . ووجهة النظر هذه

لا يرفضها القديس توما الكبير لانه يطلب من المتهم ان يقول الحقيقة مهما كانت نتائج صراحته . ونلاحظ ان هذه الاصول لا تتفق وتعاليم السواد الاعظم من علماء الاخلاق . فهؤلاء يقولون انه بوسع المتهم ان ينكر الجرم المتهم به ، مع انه يليق به من الوجهة العدلية الصرفة ان يقول الحقيقة امام المجلس القضائي. والمعترف به اجمالاً هو ان المتهم لا يعتبر كاذباً اذا اكد براءته لان تصريحاته، حسب قول اللاهوتيين ، لا يمكن ولا يجوز ان تؤخذ بحرفيتها نظراً للظروف التي ترافقها . فجوابه يعني شيئاً واحداً : لم تثبتوا عليّ جرماً وانا لا اقر بشيء من ذلك بل انكره . وبما انه يحق للمتهم ان ينكر جرمه ، فمن البغي ان يُحلَّف عليه وان فعل لا تلزمه اليمين .

ولا حاجة الى القول بعد هذا ان كل البلدان تستنكر اكراه المتهم على البوح بجرمه تحت تأثير التهديد بحكم مضاعف عليه :

١ً — من حيث انه مرتكب الجرم الذي انكره ، هذا اذا قامت البينة عليه .

٢ً — من حيث انه اقسم اليمين كاذباً .

على ان ارغام المتهم على حلف اليمين كما كان يحدث في عهد النظام القديم في فرنسا قد ألغته ثورة ١٧٨٩ ، واصبح بعد قرار محكمة التمييز الفرنسية الصادر في ٥ كانون الثاني عام ١٩٢٣ قاعدةً الزامية لا يحق للمتهم نفسه ان يتنازل عنها .

ولنفترض الآن ان البينات اصبحت واضحة على المتهم واقتنع القاضي بها ؛ فانه يبقى عليه ان يصدر الحكم ويعلّله .

وينصح علماء الحقوق القضاةَ بان تكون الحيثيات واضحة جلية وان لا يُغرقوا في الاعتبارات الخارجة عن الموضوع ليُكثروا شعبيتهم ويكوّنوا حولهم جمهرة صاخبةً من الانصار ، كما كانت الحال مع الرئيس مانيو (Magnaud) الشهير . والتعليل هو ايضاً قضية اعتدال . هنالك بون شاسع بين رئيس محكمة — وقد عرفت واحداً من هذا النوع — يرجئ الجلسة الى خمسة اشهر ليعطي حكماً هو بمثابة مؤلَّف حقوقي ، وبين رئيس آخر متحذلق يلمس طوراً

كتاب القانون وتارة جبهته ، ويعطي على هذا الشكل قراراته : ان المحكمة تطبيقاً للمواد الموجودة هنا واستناداً الى الاسباب الموجودة هنـاك تحكم على الظنين بالعقوبة الفلانية. فلا كان ذلك الإفراط في المحافظة على العدل ولا كان هذا التقصير بالواجب وعدم الاهلية .

ونصل الان الى نقطة هي حجر عثرة ، على القاضي ان يتحاشاها لانها تصبح مصدر ظلامات عديدة ، واعني بها التشويه المهني .

على القاضي ان يعارك ضد التعوّد ، الذي هو مرض المهنة وسبب اخطاء قضائية جمّة . وقد توصله كثرة الاحكام التي تعوّد عـلى اعطائها ، الى التصلّب وتحجّر العاطفة ، وينتهي به الامر الى حدّ يجعله يرى في كل من يمثل امامه مجرماً . وللافاة هذه الشائنة رأت الحكومات بان لا تـترك القضاة مدة طويلة في مكان واحد بل ان يتتابعوا في كل دوائر المحكمة التي اليهـا ينتسبون — بيـد ان هذا العلاج لم يثبت ناجعاً .

فرغم هذه الاحتياطات ، كثيرون هم القضاة خصوصاً في المحاكم التأديبية ، الذين لا يتصورون امكانية براءة من يمثل امامهم . لان ذلك يناقض حكمة موظفين كثيرين ساهموا في الاتهام: من مدوّن محضر الدعوى الى ذلك الموظف المسكين الذي سلقه اناطول فرانس بلاذع نقده ، اعني قاضي الاتهام ...؟ فكيف السبيل الى مناقضة هذا الاجماع ؟ وكيف القيـام على التهمة ، تلك الالهة الرسمية التي تطلب ان نضحي لها دون تذمر ؟

ان هذا الاساس الفاسد وهذه العقلية المضللة التي تناقض روح الحياديـة المتطلبة من كل قاض (ألم يقل افلاطون ان القاضي عليه ان يكون عقلاً لا يزعزعه الميل والتحيز ؟) من شأنها ان تفسد احكام القضاء وتطوّح بالعدل . ومما يُروى ان بعض محاكم الاستئناف قـد اعتادت تثبيت جميع القرارات المرفوعة اليها ، الى حد جعل المحامين ، اولاد قصر العدلية المزعجين ، ان يسموها محاكم الاساقفة . ولنقلها عرضاً ، كم من الاحكام التي لم تكن لتصدر بحق المتهم لولا ارادة المحكمة بتبرير قرار توقيفه ؟

، ان رجال العدلية في اغلب الاحيان متضامنون لانقاذ مواقف بعضهم بعضاً. والعدالة نفسها ايضاً لها نقائصها . فلتحترز المحاكم من الوقوع في تفريط ذلك القاضي الاثيني الذي كان يحكم بالاعدام دون تمييز على كل من يمثل امامه . واذ ألفتوا نظره الى ان بين المجرمين من هو اقل ذنباً من غيره ، اجاب : نعم، ولكن الذي هو اقل ذنباً يستحق الاعدام ، واني لم اجد عقوبة اكبر لانزلها بمن هو اكبر ذنباً منه . وهذا ما يذكرني بقصة « الذئب المدافع عن الثعلب امام القرد » وهي تنتهي بهذين البيتين من الشعر :

زعم القاضي ان الحكم ولو مخطئاً
لا يجحف بحق سيئ الاخلاق

ويوسعنا ان نعلق هذين البيتين تحت بعض الاحكام الاعتباطية العجلى .

ولكي ننهي هذا البحث في الواجب المهني وفي فن القضاء ، يمكننا ان نذكر ان هذه الواجبات المهنية تجر عقوبات تأديبية ولا تتناول دعوى التأديب الاخطاء المهنية فحسب بل زلات القاضي في حياته الخاصة ايضاً اذ قد تكون عاراً ملطخاً لسمعة القضاء .

والقوانين التي تقول بهذا عديدة : قانون باد (Bade) المادة ١٠ ، قانون بافاريا المادة ١١ ، قانون هولندا المادة ١٣ ، قانون البورتغال من المادة ١٠٠ الى ١٠٩ .

فلا داعي للاستغراب اليوم اذا وجد القاضي في حالة سكر في محل عام فاوقف عن عمله او عُزل . وهناك بعض قوانين ومنها البورتغالي يفرض القصاص على القاضي الذي يتعاطى لعب الورق — وهذا مما يذكرنا بالعادات القديمة الصارمة وبنصائح لاروش فلافان (La Roche Flavin) — اما الاجتهاد الفرنسي فانه اكتفى بشجب الاحتيال في لعب الورق (قرار محكمة التمييز ١٠ حزيران ١٨٧٦) وهذا اكثر انسانية وابعد نظراً ، لانه لولا البريدج وبعض تسليات بريئة ، لاصبح القضاة البطالون ، وما اكثرهم في عهد الاقتراع العام ، فريسة الضجر والملل — ونظراً الى تطور العقلية العامة ، لم تعد رؤية

قاض يشهد رواية تمثيلية مبعثاً للريبة به ، خلافاً للزمن الماضي حيث كان مثلاً قاضي البلاط الملكي ده سبايس (d'Espaysses) نحو عام ١٥٨٧ يحظر على القضاة ارتياد اماكن الملاهي او الحضور في اسواق الباعة او في الروايات الهزلية .

القسم الثاني

ولننتقل الان الى القسم المتعلق بالوجدان اكثر منه بالنصوص. فنتوغل في قرارة الضمير :

السؤال الاول: هل يستطيع القاضي ، بحسب المبادئ الاخلاقية الكاثوليكية ، ان يطبق القانون الذي يبدو له غير عادل ؟

السؤال الثاني : هل يستطيع القاضي ، في اصدار احكامه ، ان يستند الى البينات القانونية فقط وان ناقضت صراحة اعتقاده الباطني ؟

السؤال الاول – فيما يتعلق بتطبيق القانون الغير العادل

لا يجهل احد ان مهمة القاضي في السنوات الاخيرة انفسح لها مجال واسع ، فلا تعتبر اذ لم تعد تطبيقاً حرفياً للقانون او عبدة لنصوصه ، بل بالعكس فان القاضي يحكم بحسب روح القانون ، ولو اتبعنا نظريات الرئيس الاول بالو بوبره (Ballot Beauprès) المفرطة ، تلك التي احدثت ضجة كبرى في ايامها لاستطاع القاضي امام نص غامض ان يؤوله لا كما شاء واضعوه بل كما كانوا يفعلون لو دعوا لوضعه وفقاً لمتطلبات الحالة الحاضرة .

وقد ذهبت بعض الشرعات الاجنبية بنصوص صريحة الى اقرار تلك الجرأة في كيفية تطبيق القانون كما هي الحال في سويسرا التي اتخذها الكثيرون مثالاً لهم .

اذاً للقاضي حرية كبرى في تطبيق القوانين وغالباً ما يستطيع ان يستغل تلك الحرية للتوفيق بين القانون ومتطلبات العدل – ولكن اذا ما اصطدم بمادة تفرض عليه بصراحة ووضوح تطبيقاً لا يتفق ومعتقده الشخصي وايمانه ، فهل يجب عليه ان يرفض تطبيقها ليسلم ضميره من الخطأ ؟

اولاً : متى يكون القانون غير عادل في نظر المبادئ الاخلاقية ؟

انه لسؤال ضخم لا يستوعب حتى في حقل اللاهوت وحده . – وهنالك حقوقيون عديدون ، على غرار افلاطون وشيشرون ، وسينكا يرفضون الاقرار، في بعض الظروف ، بان ارادة السلطان ، أكان ملكاً أو حاكماً مطلقاً او مجلساً منتخباً بالاجماع ، هي شريعة يجب التقيد بها ضميرياً . وكان احد النقاد الدينيين يدعي « بان الشعب هو تلك القوة الوحيدة التي لا تحتاج ، كي تصبح اعمالها مشروعة ، لان تكون على صواب فيها » فاذا ببوسيه (Bossuet) يجيبه بهذه الكلمات القاطعة : « الله ذاته بحاجة لان يكون على صواب » .

واذا كانت الاكثرية اليوم متفقة على ان القانون ليس له السلطة المطلقة بل ان هنالك سنن على الشارع ان يحترمها، فان فلاسفة القانون بالعكس لا يتفقون على المبادئ الاولية العليا التي على ضوئها يبحث العمل التشريعي نفسه .

وما خلا بعض الفلاسفة نظير هوبس وروسو وفي يومنا نظير اسماين ، وبرتلمي وبابير الذين يرتأون ان ليس بمقدور احد الخروج على القانون وإن ظالماً طالما لم يُعدَّل ، نرى في ايامنا امثال هوريو وريبير ودوجي ودابن وجيني ولوفور متفقين على دحض هذا المبدأ ويدلون باراء تختلف في تفاصيلها الظاهرة ولكنها مستقاة من وجهة نظر واحدة .

وفي رأي بعضهم ان احكام السلطان لا تستطيع ان تقيد الرعية ما لم تكن الاحكام منطبقة على القانون – وهذا ما ايده السيد تيدجن (Teitgen) وزير الانباء في الجمهورية الفرنسية في خطاب حديث قرأته في صحيفة اسبوعية باريسية بتاريخ ١١ تشرين الثاني عام ١٩٤٤، وهي اول صحيفة فرنسية وصلت الى البلاد بعد تحرير فرنسا ، وقد قال فيها :« ان فرنسا تؤمن قبل كل شيء بالحق الطبيعي ، وهي الامة التي تعتقد بان ثمة قوانين اخلاقية تقيد الرجال والعيال والدول وانه لا تستطيع اية دولة كانت الخروج على تلك القوانين التي تخط لكل الدول ايضاً فروضاً وواجبات . » اما السيد لو فور (Le Fur) الذي يؤيد هذا الرأي، فانه يقول بحق مقاومة كل سلطة غاشمة تخرق القانون الطبيعي الاخلاقي . ومنهم ، مع السيد هوريو ، من يرتأون انه ينبغي قبل التذرع

بالوسائل العنيفة واللجوء الى المقاومة الخطرة واستخدام اعمال القمع، ان تؤلف محكمة عليا لتفحص القوانين وتلغي تطبيقها عند الحاجة اي كلما ناقضت مبادئ الحضارة الفرنسية الاساسية التي تجد اساساً لها، كما يقولون، في اعلان حقوق الانسان وفي تاريخ فرنسا الغابر.

واودّ ان اتوقف قليلاً عند وجهة نظر فيلسوف الكنيسة الكاثوليكية القديس توما الاكويني في هذه المشكلة. لقد شجب القديس توما كل استبداد في القضاء. كما شجب كل قانون ينافي الشرائع الالهية وكل قانون استبدادي لا يؤول الى الخير العام (وهنا يميّز بحسب الظروف) لا يُرغم الانسان على الخضوع له، إلّا اذا نتج من ذلك شك الآخرين واضطراب. فعندئذ نصبح مجبورين على التخلي عن حقنا.

اما الآن وقد وضحنا هذه المبادئ واتخذنا فكرة اجمالية عن هذه المسألة المتعلقة بما سمّوه «حقوق القانون» من وجهتيها العلمية العلمانية والاخلاقية، فلم يبقَ علينا الا ان نتوغل في وجدان القاضي حيال قانون ظالم عهدت اليه المهمة القضائية بتطبيقه.

ان المشكلة من ادق المشاكل، فما نحن امام مواطن يستطيع مباشرة او بصورة غير مباشرة مقاومة القانون بواسطة الحيل (ووسائل التهرب عديدة) وانما نحن امام قاضٍ توجب عليه وظيفته ان يفرض القانون على احترام الجميع.

فما يستطيع وما عليه ان يعمل؟

اذا كان الحكم الذي عليه ان يتخذه، من حيث هو حاكم، يجرح وجدانه جرحاً بليغاً، فلا شك انه يستطيع، لا بل، في نظر رانسون (Ranson)، عليه ان يتخلى عن وظيفته، مهما كانت هذه التضحية قاسية. ففي قضية وضع البيانات مثلاً، رأينا الكثيرين من القضاة يقدمون استقالتهم لكي لا يكون لهم اصبع في عمل اعتبروه ظلماً واعتسافاً لا يقره العدل. وانها لبادرة فيها الكثير من البطولة اذ ان كثيرين منهم تخلّوا عن وظيفة كانت تبشر بمستقبل زاهر. ومن يجهل تلك الاستقالة الرنانة التي قدّمها رئيس محكمة التمييز كيناي ده بوربيار (Quesnay de Beaurepaire)؟ فلكي لا يترك للناس مجالاً للافتراض بانه

ساهم في إرجاع الحقوق لدريفوس (Dreyfus) ، وكان يعتبرها قضية غير عادلة ، فضل التخلي عن منصب من اعلى مناصب القضاء ، واصبح ناسخاً عند محرر لوائح لكي يحصل على لقمة خبزه اليومي .

لقد اجمع الكثيرون من علماء الادب على هذا الحل ، فقالوا ان كل قانون ظالم ، اي ما كان منافياً للشرائع الالهية او الناموس الطبيعي ، هو فاسد في اساسه وعلى القاضي ان يرفض تطبيقه ويعتزل منصبه . وان بعض اللاهوتيين الذين يريدون تبرير القاضي وتجنبه مثل هذه التضحيه يقولون بانه ليس عليه ان يحكم على القانون بل بموجب القانون ، وهذا الرأي يجمع عليه قضائيو مدرسة التنقيبات القضائية . الى مثل هؤلاء يتوجه نولدين المؤلف في اللاهوت الادبي قائلًا ان القانون من حيث هو شريعة عامة ليس له مفعول الا اذا طبّقه القاضي وكيّفه حسب القضايا المعروضة عليه ، فاذا تقيّد بتوجيهاته الظالمة ودعمها بكل ما لديه من سلطة يكون قد تبنّاه وأيّد الشارع في عمل ينبذه الوجدان . وهكذا فانه يخالف المبادئ السامية التي يجب التقيد بها وعدم الخروج عليها مهما عرض من الظروف .

على ان هنالك رأياً اكثر اعتدالًا يعطي للقاضي الحق ، وضمن شروط ، بتطبيق القانون حرفياً حتى ولو كان ظالما او فاسدًا ، وانما عليه ، اولًا ، ان يعمل عن قصد سليم وان لا يرضى ابدًا ، لا بقلبه ولا بارادته، عن القانون الفاسد . وثانياً ان لا يكون عمله الخارجي من حيث الشكل قابلًا للّوم ، واخيرًا ان يكون ثمة سبب خطير (كفقدانه حتماً منصبه) يدفعه الى تطبيق ذلك القانون الفاسد .

ولنرَ الان كيف تتحقق هذه المبادئ عندما يرى القاضي الكاثوليكي نفسه ملتزماً باصدار حكم طلاق . ومن المعلوم ان هنالك لاهوتيين مشددين لا يسمحون ابدًا للقاضي بتطبيق هذا القانون الذي تشجبه الكنيسة . ولكن ثمة آخرين مثل لهمكول (Lehmkuhl) وعدد كبير من الاساقفة ايضاً ، بينهم الكردينال غاسباري (Gasparri) الذي يُعدّ مرجعاً في هذه المادة ، يعتبرون انه في بعض الظروف لا حرج على القاضي، وهذا ما لا يتفق مع نظرية نولدين.

ويعتبرون ايضاً ان حكم الطلاق الذي يصدره القاضي ليس هو في الواقع الا فصم الوثاق المدني الذي يختلف كل الاختلاف عن الوثاق الديني الذي لا انفصام له . وبما ان الزواج المدني لا يقرّه الايمان ، فان الحكم بفصمه لا يؤبه له . ولكن مثل هذا الحكم يخلق حتماً وضعاً جديداً يخول الطرف الرابح القيام باعمال تنافي ايمان الكنيسة كعقد زواج جديد مثلاً وعدم القيام بواجباته الناجمة عن العقد الاول مع كونه ما برح قائماً في نظر السلطة الدينية ، ولكن هذه النتائج ليست الا نتائج غير مباشرة .

والحل المتطرف قد يؤدي بالقضاة الكاثوليك الى التخلي عن مناصبهم بينما قد تتطلب المصلحة العامة وجودهم في تلك المناصب لتحدّ من تطبيق القوانين الظالمة وتحول دون انتشارهـا . وربما استطاعوا ان يمنعوا فسخ الزواج ببذل جهودهم للمصالحة بين القرينين وحملها على احترام مبادئ دينهما .

وفي نظرنا ان هذه الطريقة على ما فيها من التوسيع هي خير الطرق وقد رحّب بها حقوقيون عديدون من الحريصين على ان لا تصبح وظيفة القاضي مستحيلة الممارسة نظراً الى تلك المناقضات التي لا حدّ لها بين الواجبات المهنية وواجبات الضمير .

هذه هي وجهة النظر الكاثوليكية . وهل من ضرورة الى القول بان المحاكم ليست عزلاء الى هذا الحد امـام القانون الذي يشجبه الحق الطبيعي ومتطلبات العدالة .

فالطرق المتبعة في استعمال القوانين تترك للقضاة امكانيات مرونة كبرى في تطبيقها ، وحتى في تكييف مفاهيمها ، مما يسمح لهم ان يؤمنوا العدالة دونما كبير عناء ، بتوسعهم في معاني النصوص لا اخذها بحرفيتها . فاذا كان هنالك مبدأ حقوقي يؤدي تطبيقه الى نتائج جائرة فان الاساليب القضائية ومداوراتها وحيلها ، ولا ننسى المعجزات التي حققها قديماً الرومان قديماً في هذه الناحية ، كلها وسائل لانجاح قضية العدل بالرغم من نص القانون .

وهذا ما يميل اليه لوغو (Lugo) رغبة في التوفيق ، ما امكن ، بين القوانين الوضعية والمتطلبات الوجدانية وبين العدل في نظر الله والعدل في احكام القاضي .

السؤال الثاني – وسائل البينات –

- والان فاننا نعرف في هذا الباب وجهة نظر القضاء العصري . فهل تتفق من حيث الضمير مع وجهة نظر الاخلاقيين ؟ فاذا كان تفاوت بين الوجهتين فاننا نعتقد انه لا يوجد تناقض كلي ، بل بالعكس لان هنالك بعض نقاط التقى فيها الاخلاقيون والحقوقيون على صعيد واحد واتخذوا حلولاً كثيرة التشابه ، وهنا كما في الحقل الحقوقي (وهذه هي الحالة دائماً لدى التبحر في الامور النظرية) نجد اراء تختلف بعض الشيء فيما بينها .

ويبدو ان الاخلاقيين يجمعون على نقطة وهي : اذا لم تقم اية بيّنة على المتهم (وننظر هنا الى الجزائيات) فمن واجب القاضي ان يبرئه مهما كان اقتناعه الشخصي حتى ولو ظهر له انه مجرم حقاً . ويجزمون بان على القاضي ان يصدر احكامه حسب القانون لا حسب استعلاماته الخاصة .

فيستفاد اذاً من هذا القول انه محرّم على القاضي اصدار حكمه بالاستناد الى معرفته الشخصية وذلك ما تنصه تقريباً كل الشرعات .

امّا وفي الافتراض المعاكس اعني متى كان القاضي مقتنعاً كل الاقتناع ببراءة المتهم الذي الصقت به الجريمة مؤيّدة ببينات عديدة وهو لم يرتكبها ، فهل يتوجب على القاضي ايضاً تجريمه والحكم عليه ؟

ان الاراء لشديدة التضارب حول هذه النقطة .

ويُؤخذ من نظرية تنتمي الى القديس توما الاكويني ان القاضي شخص عمومي عليه ان يحكم حسب القانون وحسب البينات القانونية لا حسب اعتقاده الفردي (الخلاصة اللاهوتية ، السؤال : ٦٧ ، المقال : ٢)

وهذه النظرية قيل ان القديس توما قد اكدها للقديس امبروسيوس في خطبة عن المزامير (مز : ١١٨) : « ان الحاكم الصالح لا يقرر شيئاً من تلقاء ذاته ولكنه يحكم بحسب الشريعة والحق . » (انظر الخلاصة اللاهوتية ، السؤال : ٦٣ ، المقال : ٢) فاذا جرّمت الشريعة متهماً يظنه بريئاً ، فالمحكمة تستطيع ان تحكم عليه وتنزل به العقوبة ولو بالموت .

والقانون الوضعي الذي لا يعتبر معرفة القاضي الشخصية بل البينات القانونية

لا ينافي في نظر هؤلاء اللاهوتيين الاخلاقيين مبادئ الحق الطبيعي الذي هو اساس كل شرع انساني ؛ ولذا فالقاضي يستطيع ان يطبق هذا القانون دون اضطراب وتشويش في الضمير لانه لا يخالف تعاليم دينه .

وهنالك رأي آخر ادق معنى واكثر انسانية لا يصل الى هذا الحدّ بل يفصل بين الجزائيات والمدنيات :

امّا في الجزائيات فلا يسمح للقاضي بان يحكم بالموت او بما يفقد الحرية على متهم يعتبره القانون مجرماً وهو كلّي البراءة في نظر المحكمة . وبالاستناد ايضاً الى الرأي ذاته لا يصح القول بان تقييد القاضي بنصوص القانون ليس بفاسد بذاته ، ولو ادى احياناً الى الحكم على بريء . فالمجتمع الذي يحكم القاضي باسمه لا يحق له ان يحرم بريئاً افضل ما يملك : الحياة ، الشرف ، الحرية ، فلا يحق له اذاً ان يفرض ارادته على المحاكم — واذا كان القانون غير عادل ، وقد تصدر عنه احكام ظالمة ، فلا يتقيد الوجدان باحكامه .

اما في الدعاوى المتعلقة باموال مادية ، تجارية او مدنية ، فيقول اصحاب هذا الرأي ان القانون اذا لم يستطع ان يؤمّن دائماً الانصاف ، فهذا لا يُستنتج منه انه ظالم او مناف للخير العام .

ان كل قانون هو عاجز ، مبدئياً ، عن ان يضمن العدالة في كل الاحوال ، وان تطبيقه قد يضرّ احياناً بمصالح مشروعة ، وقد يجرحها ويحطها ولكن هذا لا يمنعه ان يظل صالحاً .

وبسبب تضارب الاراء بين الاخلاقيين ، وبما ان المبادئ الواجب اتباعها ما برحت موضوع شك وجدل ، فالتعليم الذي يناصره لوغو (Lugo) والذي يُلقن اليوم يعطي للقاضي الحق في الجزائيات التي ترافقها مثل هذه الظروف ان يصدر حكمه على المتهم او ان يبرّئه بعد ان يكون اظهر بوضوح حقيقة براءته ، وفي المدنيات ايضاً له الحق ان يقبل طلب المدعي او ان يرفضه بعد ان يكون اظهر بصراحة حق المدعي الاخر ، وكل ذلك خشيةً ان يؤدي تطبيق القانون الحرفي الى الاجحاف (نولدين) .

وبعد ما قدّمناه من النظريات المتباينة يبدو لنا في النتيجة ان النظرية المسيحية

التي هي خلاصة تلك المناقشات تتفق كل الاتفاق مع توجيهات الشرع الوضعي. وذلك لان بينة الشهود التي هي سيدة البينات اصبحت خاضعة اليوم لاقتناع القاضي الشخصي الذي لم يعد مقيدًا كما في الماضي باعترافات الشهود. فالعبرة في يومنا الحاضر لقيمتها لا لعددها.

ولا خوف من ان تفرض نتيجة التحقيق فرضاً على القاضي دون اخذ باقتناعه الشخصي اذ له الحق بغض النظر عن كل شهادة يشك في صحتها وان يتبع الهام ضميره بعد ان يكون قدم الادلة القانونية.

ولا بد لنا من القول ان للقاضي في كثير من البلدان صلاحية واسعة، الا في فرنسا حيث لم يدخل بعد هذا الاصلاح، في التحقيق الاستكشافي حتى ولو لم يطلبه المدعي، وله السلطة في اتخاذ المعلومات اللازمة واستخدام التحريات المؤدية الى الحقيقة فيقارن بين الحقيقتين القانونية والواقعية، عاملاً ما امكنه على سد او على الاقل تضييق الثلمة الفاصلة بينهما.

وبعد النمسا والمانيا وايطاليا ومراكش، ادركت الامبراطورية العثمانية وايضاً لبنان قيمة ذلك. فقوانين هذه الدول تأبى ان ترى في المرافعة برازاً يشهده القاضي دون ان يتأثر به لتكون مهنته مقصورة على إعلان اسم الغالب فقط، بل بالعكس فانها تعترف للمحكمة بدور عملي في تسيير الدعوى وتأمرها باتخاذ كل الوسائل التي في متناولها لكشف الحقيقة. وهذه النظرية توفّق بين متطلبات القانون وبين حقوق الضمير.

لقد انتهيت، ايها السادة، وستكون خاتمتي مستمدة من رواية خيالية لاحد القصّاصين القضائيين روبو (Roubaud): المسألة القضائية) افترض فيها الالهة تاميس وهي العدالة نفسها في موقف المتهمين :

دوى صوت الرئيس : تقفي ايتها المتهمة !

وكان يُرى على مقاعد شهود الاثبات لابروير، وڤولتير، والكسندر دوماس، واناطول فرانس. اما هنري روبو فقد كان المحامي، بينما الادعاء المدني جماعة من ضحايا الاخطاء القضائية المشهورين : بلانجه، غوبر ده فريد، هيرتل — لاڤي، مونيايي، بارونه وغيرهم، وكلهم أعدموا قبل إعلان براءتهم.

وبعد ان تناقشت اللجنة ، برزت الالهة تاميس بستة اصوات مقابل ستة اي انها استفادت من اقالة الاسترحام . واود ان اتمم هذه اللوحة واتخيل دعوى اخرى تتابع الاولى ولكنها مدنية وتظهر فيها ربة العدل بمظهر المعقّبة المسؤولة عن المظالم التي ارتكبتها اثناء القيام بوظيفتها . انها لمظالم عديدة اجل ، ولم تطوَ صفحتها بعد . فربَّ حقيقةٍ في مكان كانت ضلالًا في مكان آخر.

والمحامي الذي يرافع في الامور الجزائية بوسعه ان يتحقق ان معظم الاحكام التي ظهر خطاؤها فيا بعد ، كانت تقضي بالاعدام ، وهذه العقوبة لا تسمح في طبيعتها بالتعويض على من نزلت به . ستقولون : اذًا يجب ابطال هذه العقوبة ؟ لقد ابطلتها بعض البلدان .

أيكون هذا هو الدواء ! لقد فكروا فيه منذ القديم ولكن هذه العقوبة التي اصبحت مقصورة اليوم على حوادث نادرة جدًا بينما كانت شائعة فيما مضى ، هذه العقوبة التي تقرّها كل الديانات من القديس توما ومن موسى ومن محمد ، تحاول ان تستمرّ على الاقل في فرنسة رغم طالبي ملاشاتها . وقد ظهرت ضرورتها ومنفعتها عندما تعدّدت الجرائم في فرنسة بعد ان عفا الرئيس فاليير (Fallières) عن مجرمين عديدين حُكم عليهم بالمقصلة وفي عدادهم كان الفاسق الوقح سولايلند (Soleilland) . وما كان العفو من قبل الرئيس الا مماشاة لشعور مجلس النواب النازع الى الغاء هذه العقوبة . ولماذا نذهب الى ابعد ؟ ان مجلس النواب هذا (سنة ١٩٠٦) المفروض فيه التعبير عن رغبات الامة لما دُعي للتصويت على مشروع الغاء عقوبة الاعدام اضطر تحت ضغط الحوادث الى اثباتها . وهنالك ما هو اطرف ... فالرأي العام بدوره عقب اشعار احدى المجلات الباريسية له طالب بابقاء هذه العقوبة وأسفر الاستفتاء عن ٣٢٩٠٠٠ صوت طالبوا بالغائها مقابل ١٠٨٣٠٠٠ طالبوا باثباتها .

واننا نرى ان الالهة تاميس تستحق تسامحًا اكبر ، اذا نظرنا بعين الاعتبار الى كل هذه العناصر واذا ادركنا بان هنالك اصلاحات ، جزئية بلا شك ، ولكنها مهمة ، ولا سيما اصلاحات ٥ اذار عام ١٩٣٢ ، مما يتعلق بتطبيق العقوبات ، وقد عملت بها محكمة الجنايات . فكيف اذا اضفنا الى هذا ان لجان العفو

تعني بتجريد كل حكم من صرامته قبل ان تسمح بتنفيذه . وإن الغاء اسباب الاخطاء القضائية لم يكن مردّه الا الينا . ذلك ما لم نصنعه ، ولم نكن على ضلال لان المصلحة العامة ، وقد اثبتنا الاختبار ، تقضي بذلك . فنظرًا الى هذه الظروف ، اظن ، وقد يكون ذلك ادعاء مني ، ان اللجنة التي تؤلفونها الآن وهي لجنة اكثر رقياً من تلك التي كانت تعقد في ساحة اثينا واكثر ملاءمة لروح العصر لانها تجمع بين افرادها نساء ، اظن ان لجنتكم ستبرئ قاضيها بالاكثرية المطلقة لا باقلية الاسترحام .

هذا فيما يتعلق بالجزائيات .

اما في ما يتعلق بالدعوى المدنية فيظهر لي ايضاً مع بعض التحفظ انكم ستصدرون نفس الحكم برفضكم قبول المدعي .

انكم بحق تتذمرون من التباطؤ في الاجراءات القضائية وانتم غير مخطئين حيال تقاعس المحاكم التي هي عبدة انظمة بالية ، لا تجرؤ على مخالفتها دون ان تخون واجبها مع انه قد قدّر لها احياناً ان تضع ذلك بمهارة وحكمة رغم جميع الروادع .

وانتقاداتكم — انكم توجهونها الى قاض ربما تألم من الشكليات على قدر ما تتألمون — ولكنكم ضللتم سبيلاً ، فعليكم ان تتوجهوا الى المشترع بمطالباتكم والامكم الحقة ، فهو وحده يستطيع ان يخلق اصولاً امينة ومختصرة .

وهو وحده بوسعه ان لا يجعل القاضي شخصاً مقدساً لا يجوز مسّه ، بل على غرار القانون الفرنسي الصادر في ٧ شباط ١٩٣٣ ، ضامناً لما تلحقه احكامه من ضرر بالغير . وعليه ان يحمل مسؤولية احكامه وتبعاتها كما تنص كل القوانين ومنها القانون اللبناني ، ولكن ليس فقط حيث يظهر سوء نيته وقصده الضرر ، بل ايضاً لدى كل تقصير خطير وكل غلط مبني ملحوظ ، وفي هذا يقوم الاصلاح .

أمن العدل مثلاً ان يكون القاضي المهمل غير مسؤول عن ضياع مستند هام كالحوالة لامر شخصي والسفتجة وغيرهما ؟ اما النتائج فقد تكون نتائج اهماله جسيمة يتحملها صاحب الدعوى المسكين الذي لا يد له في ضياعها .

واريد ان تكون المحكمة في مأمن من انتقامات المتقاضين المستائين وان

احميا من احقادهم ومن افكارهم الانتقامية . فلهؤلاء المتداعين مراجع قانونية يستطيعون اللجوء اليها لتلافي الغبن الذي قد يكون لحق بهم ، فليرجعوا اليها ، فكل ذلك من ضمن القانون والنظام .

فلهذا يجب ان يغطي القانون كل تلك الاهمالات التي لا تغتفر ، وكل تلك الاخطاء الجسيمة التي تشبه الخداع والتزوير ، وكل تلك التقصيرات الفاحشة التي ترتكب في اروقة العدل والمختلفة كل الاختلاف عن مجرد الاخطاء في الحكم ؟ ويبدو لنا من الواجب ، كما يعتقده القانون الفرنسي وكما تقدّمه كبار الاساتذة ، ان يكون القاضي مسؤولاً عن كل ذلك وبالتالي الدولة ايضاً ، على شرط ان تحصر المراجعة القانونية ضمن حدود معينة تلافياً لكل سوء استعمال حق .

وان تدابير كهذه من شأنها ان تخفف من حدّة المتعقبين للقضاء . ولكنها لن تستطيع إيقاف الانتقادات . فلا بد من صوت احتجاج .

اما انا فاني افهم معنى تلك الحسرة التي تحزّ قلب العامة المتعطشة الى العدالة وادرك تذمّر الفئة التي قد تكون الاحكام قد أخرت بصالحها المشروعة .

كلنا نتوق الى المطلق ونحلم بالمثل الاعلى – وإن في هذا القلق السامي شرفاً للانسان – فلنحاول على قدر المستطاع تحسين الجهاز القضائي فذلك حقنا وواجبنا ولكن لا يغرب عن بالنا اننا مهما صنعنا لن تكون عدالتنا الا بشرية اعني قصيرة النظر ، عرضة للخطأ والسقوط . وقد لا اكون بحاجة الى القول بان وراء هذه القبة المشمة بالكواكب يستقر العدل القائم بذاته ، العدل الحقيقي الذي نتزع اليه بكل جوارحنا وكل قوانا وهو ليس من هذا العالم . وتلكم هي التعزية القصوى لمظلومي هذه الدنيا .

واذا عرفنا ان للقضاء حدوداً وشوائب فلا يمنعنا ذلك من ان ننحني امام هذه المهنة الشريفة بين المهن لانها تحتقر التكسب الحسيس ولانها بين الوظائف العدلية اكثرها ترفعاً وتجرداً عن المادة ، وهي كهنوت حقيقي ، تتطلب من القائمين بها استقامةً في الحياة ومجموعة فضائل من نزاهة ، وتجرد ، واستقلال ، وعدم تحيّز ، لا تفرضها اية مهنة اخرى بهذه الشدة والصرامة ، وانها لجهاز اخلاقي تحدّى الوعيد والتهديد في ظروف عديدة ، وتحطمت عليه اوامر السلطان .

عقيدة انتقال العذراء بالنفس والجسد الى السماء

تطور هذه العقيدة

بقلم الاب فرنان ده لانفرسان اليسوعي

لمحة وجيزة في تاريخ نشوء عقيدة انتقال العذراء. والعيد المُقام للاحتفال به تُظهر لنا كيف تعرض في الكنيسة شيئاً فشيئاً المسائل الدينية وكيف يتوصل الشعورُ المسيحي بنور ايمانه وقيادة رعاته وبعون الروح القدس الى اكتشاف حلّها في وديعة الوحي الإلهي الذي سلمته اياه التقاليدُ منذ عهد الرسل بكل امانة دون ان تزيد عليه او تنقص منه شيئاً وهي مُطَّلعة بوضوح لا يزال يزداد جلاء على محتواه الذي لا ينفد. بهذا النوع يُعَدّ في الكنيسة اعلانُ العقائد الدينية اعلاناً رسمياً.

المسألة التي نهتمّ لها والتي قد عَرَضت في مدى الاجيال على الضمير المسيحي هي مزدوجة: اولاً هل اجتازت العذراء بالموت الى السماء. وثانياً هل هي اليوم ممجدة في السماء قرب ابنها نفساً وجسداً.

على السؤال الثاني فقط اجاب الحبر الاعظم بيوس الثاني عشر بتحديد عقيدة الانتقال. اما السؤال الاول فالجواب عليه عموماً هو ايجابيّ فان العذراء قد مرّت بالموت كما مرّ قبلها بالموت ابنها لكنْ للقيامة والارتفاع الى السماء. لكنّ بعضهم يرتؤون بان انتقال العذراء لم يسبقه وفاة.

غايتنا بهذه النبذة ان نعرض بايجاز على القارئ تاريخ المسألة بكلا وجهيها وسوف نتبع فيها مقالة الاب جوجي في موسومة « ماريا » مكتفين باختصار ما جاء فيها.

لم نجد من آثار هذه المسألة شيئاً الى الجيل الخامس

نصادف اذ ذاك عند بعض الآباء تلميحات سريعة الى موت العذراء. فان

اورشليم في ذلك الحين كانت في حالة اضطراب عظيم وكان المسيحيون فيها معرّضين كل حين لاضطهادات عظيمة والتبدّد والابتعاد عن المدينة فلم يبقَ عنهم تقليد ثابت مستمر بخصوص موت العذراء ومصيرها .

لم يبق لنا الا كنيسة في الجثماني يُقال انها مشيدة في موقع مسكن العذراء . ثم في اواخر الجيل الرابع كتب كاهن من اورشليم اسمه تيموتوس ردًا على من زعم ان العذراء استشهدت ما يأتي : ليس ذلك صحيحاً فان سيف سمعان لم يخرق جسدها المقدس لكن نفسها فقط فالعذراء الى اليوم غير مائتة . وفي نحو ذلك التاريخ عينه عاش في فلسطين ايضا القديس ابيفانيوس لكنه لم يجزم في الامر ولم يجوز ان يحتم بموتها او عدم موتها البتة .

يوجد ايضاً باسم تذكار مريم القديسة عيد قد يكون مصدره عادة للمسيحيين قديمة جدًا ان يقيموا حوالي اعياد المخلص ذكرى الاشخاص القديسين الذين اشتركوا بها . هذا اذا لم يكن هذا العيد قد جُعل للاحتفال بالذكرى السنوية لتكريس كنيسة مخصصة بام الله مبنيّة على الطريق المؤدية من اورشليم الى بيت لحم .

وقد يكون ايضاً منشأ اول احتفال بهذا العيد ما احتوته الكتب غير القانونية من روايات بدأت تروج في الجيل الخامس بخصوص « انتقال » العذراء . فتحولت هكذا « ذكرى مريم » الى عيد « رقاد » او « اجتياز » ثم «انتقال» .

ليس لهذه الروايات عن « اجتياز » مريم سند شرعي قط حتى والرواية منها الاكثر رزانة المدعوّة بالاوثيمّة والتي نقرأها بكتاب الفرض الروماني تظهر كأنها من وضع القديس يوحنا الدمشقي فانها برأي الجميع ليست له بل منحولة . ان مؤلفي هذه الكتب الغير القانونية قد اطلقوا العنان لخيالهم وعندنا منها نحو عشرين كتاباً بعضها يصور لنا العذراء قائمة من الموت وقد حملها الملائكة الى عرش ابنها وبعضها يقص علينا زيارة ابنها لها ليُنذرها بالانطلاق ويدعوها اليه وغيرها لا تتكلم عن عودة جسدها الى الحياة بل عن نقله سليماً صحيحاً الى « الفردوس » حيث ينتظر القيامة العامة .

غير انه ولو لم يكن لهذه الكتب قيمة تاريخية وضمانة العقائد فهي مع

ذلك شهود عن ايمان الشعب وهذا يعطي لشهادتهم ثمنها فانها رغماً عن افراطها في اطلاق العنان للخيال في رواياتها تُخفي وتحفظ حقائق قد رسخت في قلب المسيحي رسوخاً عميقاً . ان قلب المسيحي يشمئز من التفكر بان جسد مريم البتول الجسد الذي من جوهره اخذ ابن الله جسده يمكنه ان يكون عرضة لفساد القبر لذلك اذا وقع شك في مصيره فالفكر المسيحي يتجه اكثر فاكثر نحو مجد الجسد القائم من الموت كجسد الابن الذي قام من الموت فانه قد شارك المصاوب في اوجاعه بكل حواسه فيشاركه في انتصاره .

في الجيل الخامس عند انتشار هذه الكتب لا بد ان يوم ذكرى مريم القديسة تحوّل الى عيد الرّقاد وثبت التقليد القائل بموتها واعتُبر بيت الجتسماني قبر العذراء . قبراً مجيداً بمجد قبر الجلجلة .

وجد آباء الكنيسة بمواعظهم للشعب يوم عيد الانتقال فرصة ليبينوا ارتباط امتياز عدم الفساد في مريم مع سائر امتيازاتها فان اكثرهم يُظهرونها قائمة من الموت لتجلس في السماء بقرب ابنها لكن بعضهم ما زالوا موقنين بحفظ جسدها في الفردوس الارضي .

نرى السريان والكلدان متردّدين اكثر من ذلك اما القبط والاحباش والارمن فيعلنون بصراحة قيامة مريم من الموت لكننا نجد خصوصاً عند البيزنطيين الشهادات الاكثر صراحة واحسن البراهين اللاهوتية لاثبات هذا الامتياز .

تذكر براءة تحديد هذه العقيدة اسم القديس يوحنا الدمشقي والقديس جرمانوس القسطنطيني وعظة منسوبة الى القديس مودستوس الاورشليمي يُجهل صاحبها . هؤلاء يعتبرون كبرهان لا يُرد كون جسد مريم هو جسد بتول وجسد ام الله فيه مكث يسوع تسعة شهور . لذلك نرى ذكرى مريم يتحول اكثر فأكثر من رقاد الى انتقال ثم يُحتفل به كعيد انتقال .

علاوة على الآباء المذكورين في البراءة نقدر ان نذكر اسم القديس اندراوس اسقف جزيرة كريت (✝ ٧٤٠) والقديس قوزما المرنم (✝٧٤٠) والقديس تيوذوروس العودي (✝ ٨٢٦) ثم من الآباء اليونانيين المنشقين ميخائيل

غليكاس (نحو سنة ١٢٠٠) والبطريرك العلامة جناديوس سكولاريس الذي تمنع عن قبول اتحاد فلورنسا بنفوذ مرقس الافسسي لكنه في السنين الاولى من عهد الاتراك وقف وقفة شريفة ازاء السلطان محمد الثاني . انه في عظة له موضوعها رقاد العذراء يميل جليًا الى حقيقة انتقال العذراء المجيد ولو انه لم يحتم فيها حتمًا .

هذا كان ايضًا رأي الامبراطور موريس عندما اقام في مملكته عيد الخامس عشر من آب وذلك منذ اواخر الجيل السادس (٥٨٢ — ٦٠٢).

وقد اضحى هـذا العيد مذ ذاك عيد العذراء الاعظم وكان في الشرق كصدى لعيد القيامة يسبقه صيام خمسة عشر يومًا ويُحتفل به بجلال وابهة . واننا قد نجد التأكيدات الاكثر صراحة لتمجيد العذراء في الجسد في طقس فرض البشارة .

اما اليوم فان الكاثوليك والاورثوذكس سواء يرون دون ارتياب في هذا العيد انتقال العذراء المجيد نفسًا وجسدًا الى السماء .

لا ننكر ان عدم رضى بعض الاوساط البيزنطية بتحديد عقيدة الانتقال قد أخمد فيهم اليوم حمية تأكيدها الجهاري لكن ليس منهم من يمكنه ان لا يعترف بان هذا هو الشعور العام في كنيستهم وفي نفوس مؤمنيهم .

في هذه النبذة الموجزة التي ارسلناها في تاريخ نشوء هذا العيد وهذه العقيدة في الشرق نلاحظ جليًا مشاركة تقوى الشعب المسيحي فيه واهميته فانه يحس في اعماق نفسه ما لا يستطيع غالبًا التعبير عنه فيبقى هكذا لملما . اللاهوت ان يبحثوه ويوضحوه .

لكن هذا التقدم السامي في الايمان لا يتمّ للشعب المسيحي الا تحت رقابة رعاته وبقيادتهم . صار تحديد مجمع افسس علامة منها انبجس بقوة ما كان كامنًا في القلوب من التقوى نحو ام الله وفاض منها في الكتب الغير القانونية . اما سلطة التعليم في الكنيسة فتعرف ان تميّز في هذه الكتابات المتباينة

القيمة فلا تنتقي منها لصلواتها وطقوسها الا ما يطابق كلياً ما جاء به الوحي الإلهي وهكذا فتقوى الشعب نفسه يُصفّى وينقّى . بممارسات العبادة كما بالايمان تتضح شيئاً فشيئاً الحقيقة فتظهر كتراث الايمان تراث ثابت شرعي.

اما نشوء العقيدة في الغرب فلا يختلف مما هو عليه في الشرق .

اول تلميح صريح الى حقيقة انتقال العذراء وصل الينا صدر من غريغوريوس التوري (٥٩٤) وهو من اعظم رجال غاليا الرومانية القديمة فانه في المقتطف الذي الفه وعنونه بكتاب المعجزات كصدى احد الكتب الغير القانونية الذي قد أتاه من الشرق فتُرجم مذ ذاك الى اللغة اللاتينية.يقول : عند وفاة العذراء المباركة كان الرسل مجتمعين فظهر لهم الرب وامر الملائكة بان ينقلوا الجسد المقدس الى الفردوس حيث هو الآن متّحد بالنفس متمتع بخيرات الابدية .

يجدر بنا ان نلاحظ بان هذا الكتاب عينه كان قبل ذلك بجيل مذكوراً في قائمة البابا جلاسيوس في عدد الكتب التي لا تقبل الكنيسة بها بين كتبها القانونية .

لم يظهر في الغرب اثر للعيد الا في عهد البابا سرجيوس الاول (٦٨٧ — ٧٠١) وهو سوري الاصل كما يدل على ذلك اسمه : سركيس . فانه في عين الوقت الذي فيه اقام المجمع المعقود في ترولو في الشرق اعياد العذراء الاربعة اي التطهير والبشارة والمولد والرقاد امر بان يحتفل في روما بالتطواف في كل من هذه الاعياد .

فمن الشرق اذن اخذ الغرب عيد الخامس عشر من آب ومنه ايضاً اخذ اسم « رقاد » العذراء. و« ابداعها » و« مولدها » و« راحتها » وكلها تؤكد الاعتقاد بموتها . لما كنا لسائر القديسين نُسمّي يوم الموت يوم المولد للحياة السعيدة فهو اذن اهل ان يُحتفل به.

لا تذهب شهادات هذا العصر الى ابعد من ذلك فالقديس ايزيدورس الاشبيلي (٥٣٦) والطوباوي بيدا (٧٣٥) لا يذكران شيئاً لا عن نوع ميتتها ولا عن قيامتها المجيدة الا ان هذا يعرف بان المسيحيين يدلّون على قبرها في وادي يهوشافاط اما الزمان الذي فيه أُخذ منه الجسد ومن الذي اخذه فلا علم

بذلك ولولا تلميح القديس غريغوريوس التوري في شهادته عن اعتقاد المسيحيين لكان السكوت عن ذلك تاماً . ثم صار معنى العيد بعد اقامته يتضح قليلاً قليلاً حتى أبدل اسم الرقاد باسم الانتقال ويظهر ان في ذلك نصيباً عظيماً للامبراطور شارلمان فان اهتمامه بالامور الطقسية لم يكن اقل من اهتمام القياصرة البيزنطيين بها وقد ارسل اليه البابا ادريانوس الاول سنة ٧٨٤ اجابةً الى طلبه كتاب المراسيم الطقسية المسمى بالغريغوري فقرّر استعماله في الامبراطورية كلها والعيد يُسمى فيه عيد انتقال الطوباوية مريم العذراء .

لم يكن لهذا الاسم معنى صريح بخصوص موضوع العيد ومحتواه فالاعتقاد بقيامة جسد العذراء في نظر اللاهوتيين لم يكن له سند الا الكتب الغير القانونية التي لم تدرجها الكنيسة في قائمة كتبها الموحاة . نعم كانت هذه الكتب نوعاً ما صدى ايمان الشعب المسيحي والمجاهرة به لكن على رأي اللاهوتيين يوجد في روايات هذه الكتب ما يدعو الى الشبهة والارتياب . اذن رغماً عن تسمية العيد بانتقال العذراء بقي موضوعه مبهماً زماناً طويلاً .

لمن يتفحص عن كثب ويعرف مجادلات ذلك العصر يلاحظ بان الطقوس الغاليَّة للاجيال السابع والثامن والتاسع قد تمسكت قصداً بالتكتم يظهر فيها التلميح عن عدم فساد جسد العذراء صريحاً اما قيامته فلا كلام صريح عنها بل ايعاز اليها لا غير فاننا نقرأ فيها بان العذراء الطوباوية « ولو انها اجتازت بالموت فلم تُخذل به ولم تُصرع بوُثقه » وعبارات اخرى شبيهة بهذه . وان الطقس الموزارابي (الاندلسي) في العصر عينه يبين اكثر صراحة اذ يتكلم عن مريم « يرتفع بها ابنها الى مقرّ السماء حيث لم يُحمل قط انسان قابل الموت » او عندما يظهر لنا متكلماً بقصد عن « انتقال حقيقي الى مقرّ السماوات » الى حيث اخذ يسوع امه بعد سُبات الراحة وبينما في روما واسبانيا يُسمى هذا العيد نهائياً باسم عيد الانتقال الكثيرون في غاليا لا يزالون متمسكين بتسميته عيد الرقاد .

نعلم من كتب رتب الاحبار بان البابا باسكال (٨١٧ — ٨٢٤) اوصى بان يُصنع لكنيسة القديسة مريم العظمى وشاء عليها يصوّر دخول العذراء الى

السماء بعد قيامتها . والبابا لاون الرابع (٨٣٧ — ٨٥٥) زاد على يوم العيد سبعة ايام ذكرى تتبعه . والبابا نقولا الاول (٨٥٨ — ٨٦٧) في اجوبته المشهورة الى البلغاريين يشير الى الصوم الذي يسبق العيد استعداداً له .

لكن ظهر في غاليا في العصر عينه كتاب "جدلي" وُضع باسم القديس هيرونيموس بصورة رسالة منه الى بولا واوستوكيوم . اننا لنعجب اذ نرى اناساً نعتبرهم في عصرهم ممن يمثلون العلم الانتقادي يلجأون الى اساليب تثير فيهم الريبة عندما يلجأ اليها غيرهم ممن يدافعون عن انتقال العذراء نفساً وجسداً خصوصاً وعندنا من الدلائل ما يثبت بان مؤلف هذه الرسالة قد يكون باسكاز رادبر وهو يُعدّ من لاهوتيي الجيل التاسع الاكثر رصانة وفي ايامنا من الاعظم قدراً وقد يكون لنا في إعذاره حجة عوائد عصره ورغبته في الاستعاذة بحمى ابي النقد المسيحي .

في هذه الرسالة جاء ما يلي : بما انه ليس على الله امر غير ممكن لا ننكر قيامة الطوباوية العذراء مريم ولو انه من الواجب علينا تحذّراً وبدافع رغبة روحية وطالما الايمان فينا مصون ان نقف امام رأي لا غير دون ان نحتم دون تبصر في موضوع ليس في جهله خطر .

هذا كلام رجل هو للعذراء مريم متعبد حر كامل وغايته ان يُحذّر ذوي التقوى القليلي الفطنة من المبالغة والعجلة .

هذه الرسالة المنحولة قد احدثت تأثيراً عظيماً .

لا نجهل بان في صلاة الساعة الاولى من الفرض عند اللاتين يُقرأ السنكسار (كتاب تقديسي اليوم) والسنكسار الاكثر قبولاً في الكنيسة اللاتينية وفي روما خصوصاً كان منذ الجيل التاسع سنكسار اوزوارد راهب من دير سان جرمان دي بري (٨٦٩ — ٨٧٧) وفيه بتاريخ ١٥ آب كان يُقرأ : ان جسد العذراء المقدس لا يوجد على الارض فاين يكون خفياً هيكل الروح القدس هذا المكرّم . قد فضلت الكنيسة برصانتها ان نجهل ذلك على ان تعلّمه مستندة الى كتاب غير قانوني لاغٍ .

لكن كان يسري بين ايدي المتعلمين كُتيب آخر باسم القديس اوغسطينوس

وعنوانه : وفاة ام الله وانتقالها الى الحياة الابدية : انه اذا كانت الكتب المقدسة لا تكلمنا بعد عن مريم منذ حلول الروح القدس يبقى للعقل ينيره الايمان وسائل اخرى . هذا ما يقوله المؤلف ثم يبحث منطقي مدقق يعرض ما نسميه براهين اللياقة اي الامومة الإلهية وسائر الامتيازات فهي تتطلب وتوجب امتياز القيامة المجيدة من انكرها اهان المخلص فانه ليس ممن يخالف نحو امه الوصية القائلة : اكرم اباك وامك .

هكذا قام التناضل بين رسالة هيروغوس وكتاب اوغسطينوس المنحولَين وقد تجمّع حول كل منها احزابه .

قد يكون في مقالة الاب جوجي الذي اخذنا عنه هذه النبذة شيء من التصنع فرأيه في ان كتاب اوغسطينوس هو جواب على رسالة هيروغوس ليس ثابتاً اما ما هو اكيد فان مسألة انتقال جسد العذراء هي موضوع بحث جدّي في القرنين التاسع والعاشر .

لم يفتأ المسيحيون يعتقدون بالانتقال ويقرؤون في بعض الكتب الغير القانونية حوادثه ولم يزل اللاهوتيون اجمالاً على تحذّر وتروّ .

قليلون منهم يصرّحون جهاراً بقيامة العذراء . منهم القديس بطرس دميانوس (١٠٧٢) وبطرس اسقف بواتيه (١٢٠٥) والعلماء . بالحق الكنسي هوغوكسيو وسيكار دو كريمون والقديس انطوان دي پادو وفكتوران هوغو وفكتوران غوتيه وفكتوران ريشارد . وهذا في تأويله كتاب اناشيد الاناشيد يقول : ليسكت الصديقون في ظلال مستنقعهم (والصديقيون هم ناكرو القيامة) فانك قد قمتِ .

اما القديس انسلموس وتلميذه ادمار وهما من المتمسكين بعقيدة الحبل بلا دنس والقديس برنردوس نفسه في خطبه الخمس في هذا العيد نراهم اقل جرأة .

وجب علمُ اللاهوتيين السكولاستيك وسلطتهم التعليمية ومنهم بالاخص القديس البرتوس الكبير والقديس بوناونتورا والقديس توما لاثبات حقيقة انتقال العذراء بجسدها اثباتاً نهائياً لا في عداد الحقائق الايمانية لكن فقط في عداد النتائج اللاهوتية الاكيدة .

منذ ذاك لم يبق بعد من يمانع او يجادل.

وصارت طقوس العيد بعد بعض التغييرات تتجه بكليتها الى تمجيد العذراء. مُهملة ذكر وفاتها الى يوم ابدل البابا بيوس الخامس (١٣٦٦—١٣٧٢)اوزوارد القديم بارونيوس فمحا من السنكسار الروماني التلميح المشؤوم.

وقد اجمع لاهوتيو القرن السادس عشر الكبار وهم كاجتان وملكيزد كانو وسوارز على اعتبار تأكد انتقال جسد العذراء الى السماء متهوّراً في معتقده واتخذوا لتوسيع هذه الحقيقة خطة كتاب اوغسطين المنحول ببراهينه العقلية اللاهوتية ومُقتضيات اللياقة المنطقية لدعم امتياز انتقال جسد العذراء.

وجواباً على كتاب « سانتوريا تور دي مندوير » دحض القديس كانيزيوس دحضاً مطوّلاً اعتراضاتهم وبيّن بطلان برهانهم المُستند الى سلطة الكنيسة التعليمية الذي استنتجوه من سنكسار اوزوار والرسالة المنحولة الى پولا ثم في هذه الفرصة وضع الريبة في صحة نسبتها الى القديس هيرونيموس.

كان لامتياز انتقال العذراء مقامه السامي في التعبد المسيحي فصار في التعاليم اللاهوتية حقيقة لا تُجادَل.

وهذا التعليم اللاهوتي المثبّت لحقيقة الحبل سيُسمعه يوماً بلغته العذبة الجذابة القديس فرنسوا دي سال في عدة مواعظ بمناسبة هذا العيد ثم سوف تتوسع فيه بلاغة العصر السابع عشر المجيد.

في الجيل السابع عشر عينه احد ملوك فرنسا حاذياً حذو القديس اسطفان ملك المجر اقدم على تكريس مملكته لمريم يوم عيد انتقال العذراء. سنة ١٦٣٧ تكريساً احتفالياً يُقام الى اليوم لذكراه في كل خورنيات فرنسا تطواف يُدعى تطواف نذر لويس الثالث عشر. وقد ثبّت قداسة البابا بيوس الثاني عشر تثبيتاً رسمياً الفحوى الدائم لهذا النذر اذ اعلن برسالة رسولية مؤرخة للثاني وعشرين من اذار سنة ١٩٢٢ سيدة الانتقال شفيعة اولى لفرنسا ثم سنة ١٩٣٧ منح فرنسا يوبيلاً مريمياً احتفاءً بالذكرى المئوية الثالثة السعيدة لهذا النذر.

لكن تقوى المسيحيين ما برح يحسّ بشيء ينقصه في تعبده للانتقال فانه كان يتوق الى تأكد اتمّ والى نعمة ايمان الهي: هذا مصدر ما دعوه الحركة الانتقالية.

بدأت هذه الحركة تعمل منذ الثلث الثاني من الجيل التاسع عشر ونمت وتوسعت خصوصاً بعد تحديد عقيدة الحبل بلا دنس سنة ١٨٥٤ فتأسست مجلات ونُظِّمت عرائض وقامت مؤسسات رهبانية تسمَّت بالانتقال وعُنيت بنشر التعبد له. نذكر منها: « اوغسطينيو الانتقال » (الآباء الانتقـاليون) مؤسسهم الاب عمانوئيل دالزون وهم اصحاب جريدة لا كروا الفرنسية ومشروع المنشورات الصالحة وتنظيم حجّ الاراضي المقدسة ولهم نشرة اصداء الشرق وتآليف اخرى عديدة عن الشرق. ثانياً: رهبانية « سيدات الانتقال » . ثالثاً: «اخوات الانتقال الصغيرات» جمعية مخصّصة بخدمة الفقراء في بيوتهم.

نلاحظ في آخر هذا المقال بأنا قد اخذناه عن كتاب الاب مارتين جوجي من الرهبان الانتقاليين كتاب « وفاة العذراء القديسة وانتقالها » وهو مؤلَّف عظيم باربعمئة وثلاثين صفحة مطبوع في مطبعة الفاتيكان وايضاً من مقالة له عن الانتقال في الموسوعة « ماري ».

اما العرائض العديدة التي قُدّمت الى الحبر الروماني لطلب تحديد عقيـدة الانتقال فقد جمعها وصنَّفها وبحثها بكتاب ضخم الابوان هنتريشت وموست.

بقي علينا ان نذكر آخر اعمال تهيئة تحديد عقيدة الانتقال فالاب الاقدس قد فعل ما كان قد فعله قبله البابا بيوس التاسع لتحديد عقيدة الحبل بلا دنس فانه بعث الى اخوته اساقفة العالم الكاثوليكي يسألهم رأيهم في الامر. اننا نجهل تفاصيل اجوبتهم فردياً لكننا لا نشكّ بانها كانت عموماً مطابقـة تاماً لرأي خليفة بطرس.

واليوم العالم المسيحي اجمع يبتهج مهلّلاً لانتصار امه على الموت بالقيامة وجلوسها في السماء عن يمين ابنها الحجيد ملكة السماوات والارض.

مريم على اقدام الصليب*

للشاعر رومانس المرنم

بقلم الاب نيقولاوس قادري ق. ب.

مقدمة

موضوع لطيف رقيق نظمه الشاعر الملهم رومانس المرنم لتنشده الكنيسة البيزنطية في حفلاتها الدينية وتمثله يوم الجمعة العظيمة كسر من اسرار الديانة المسيحية. استوحى موضوع النشيد من انجيل يوحنا حيث يقول: «وكانت واقفة عند صليب يسوع امه»[1]. ونهج فيه على غرار بعض المشاهد الشعرية من المسرحية الرائعة اليونانية «آلام المسيح» «Χριστὸς Πάσχων» للقديس الشاعر غريغوريوس النزينزي[2].

وهذا النشيد هو احدى مآسي الالام ولوحة بعيدة الرموز. بجميلة الالوان النفسية خصيبة الافكار دقيقة الشعور سكب فيها المصور الفنان روحه اللطيفة وايمانه الراسخ وفكره الثاقب فحلل بابياته الموسيقية العذبة الساحرة وتصاويره الخيالية الصافية حلل نفسية الأم الحزينة تتألم بخضوع امام المشهد الصارخ، امام خشبة الصليب يحمل ثمرة احشائها كعنقود مدلل من كرمة الحياة وقد دقق الشاعر رومانس في درس شخصية الوالدة المؤمنة كمال الايمان برسالة ابنها يسوع الاله الانسان.

---

* Pitra : *Analecta Sacra.* T. I, p. 101.
Giuseppe Cammelli : *Romano il Melode Inni.* Edizioni Testi Christiani, 1930, pp. 332 - 361.

١) يوحنا ١٩؛ ١-٢١

٢) مجموعة الاباء اليونان لمين . مجلد ٣٥

وهذا النشيد هو حوار متقل بالعمل المسرحي . هو حوار يدور بين الأم وابنها المسارع الى الصلب في فترة من الزمن تطوي الاجيال بأثرها الخالد .

تخيّل رومانس العذراء مريم تستوقف ابنها قبل صلبه وتناجي وحيدها على حدة وهو لا يزال بعد حيًا وتُسرّ اليه سرًا وبالسكون بما يخالج فكرهـا وشعورها من دقائق العواطف التي تساور نفس أم تتألم لالم وحيدها البكر[1] ثم يخاطب يسوع امه العذراء « المتبدمة من الحزن والاسى » ويشجعهـا لتثبت راسخة في ايمانها ، قوية في الاسها ومحنتها ، واثقة برجوعه اليها من وراء القبر ويحضها على ان تدع البكاء جانباً وان تطلب الغفران للبشرية[2] .

بهذه المناجاة الأليمة تفيض الأم بحبها الشديد لابنها الحبيب فتعرب له عن شدة شوقها المتقد في اعماق الفؤاد : انها تريد ان تتبعه الى الموت وتظهر رغبتها الشديدة ان تكون معه فتسأله ان كان مزمعاً ان يقوم ويعود اليها بعد القيامة[3] ثم تسمع بلهفة لكلام ابنها والهها يطلب منها ان تخفف من لوعتها وتكفكف دموعها وتنفض عنها الاسى لانه انما جاء الى الآلام طوعاً ليتمم ارادة من أرسله[4] .

وقد بدأ المرنم الشاعر مأساته هذه بنوع مسرحي رائع : « تلك النعجة مريم ابصرت حملها مسوقاً الى الذبح تبعته متهدّمة . »[5] وفي هذه المقطوعة الاولى نرى عرض الاشخاص والمكان ونشاهد مشهداً فريداً في تاريخ الانسانية صوّره الشاعر أمامنا وجسمه لنا بكل دقائقه وتقاطيعه حتى تخال انك تشاهد من جديد على بعد عدة قرون ما حدث على جبل الجلجلة منذ الفي سنة تقريباً . صوّر الشاعر أمًا تلاقي وحيدها يحمل صليبه ويذهب الى الموت « كحمل سيق الى الذبح ولم يفتح فاه[6] » فتصرخ باكية : اين تجري ، يا ابني ، لاي سبب

١) راجع المقطوعات ١-٣ ، ٧-٨ و١١ و١٥
٢) راجع المقطوعات ٤-٦ ، ٩-١٠ ، ١٢-١٤ ، ١٦
٣) مقطوعة ١١
٤) مقطوعة ١٤
٥) مقطوعة ١
٦) اشعيا ٥٣-٧

تروح الآن تسعى السعي الحثيث ؟ أعرس آخر في قانا انحث الآن الخطى الى هناك حتى تحول الماء خمراً ؟ »[١] . فتهم باللحاق به لا الى عرس جديد بل الى الموت معه :« أأتبعك يا ابني ؟ أم البث هنا ؟ » وتلبث منتظرة الجواب : « ايه كلمة ايها الكلمة ، لا تجز بي صامتاً ! »[٢] تسأل الأم الكئيبة ابنها جواباً يعزيها ويشددها في مصابها الاليم ولا تزال تحفظ في ذاكرتها الحسية اصوات الاطفال بالامس فتسمع هتافاتهم الماضية :« اوصنا ! مبارك ! » وتنظر الى الطرق فتراها بعد مفروشة بالسعف فتصرخ صرخة الأسى والانتفاض عندما تقابل بين امس واليوم فترى الأئمة يلقون ايديهم على ابنها ويسوقونه الى الصلب: « اواه ! اريد ان اعرف كيف يجبو ضيائي ، كيف يُسمر على الصليب ابني والهي ! »[٣] .

ففي مرارة نفسها ألم ومحنة وخوف كبير ولكنها في سورة مصابها تبقى خاضعة لارادة الله حين تعرف ان ابنها انما يتألم ليخلص البشرية :« انت وحدك تخلص الجميع ، انت وحدك تكثر عن الجميع انت يا ابني والهي ! »[٤] .

لقد غالى البعض من الآباء في تصوير نفسية مريم على اقدام الصليب وذهب البعض منهم الى الشك في ثبات ايمانها ولو برهة يسيرة وارجعوا هذا الضعف الى طبيعة الأم او الى حربة سمعان التي جازت في نفس العذراء وقت الآلام . وعرف رومانس هذه المحاولات الفلسفية فرفضها بشجاعة ولو كانت متحدرة من المعلمين الملافنة وتجاسر بجرأته الشعرية وقاوم التجربة ، فتقواه الشخصي الملائم لروح الشعب سدّد نظريته وافكاره في العذراء مريم وقومت تفكيره الخاص وغيرت اراءه بالملافنة فطرح شكوكهم جانباً وحمل عواطف الشعب واحسّ باحساساته الصادقة السليمة ولم يتورط في الارتياب والشك في ايمان مريم برسالة ابنها الالهي . فاللازمة « انت ابني والهي » هي فعل ايمان قوي لا يقبل شكاً في نفسية العذراء ، وروحها اللطيفة لا تقبل الارتياب وقد تبدد في كل صرخة من صرخات فؤادها « انت ابني والهي ! » .

١) مقطوعة ١
٢) مقطوعة ١
٣) مقطوعة ٣
٤) مقطوعة ٣

ولا يسعنا ان نبيّن عبقرية رومانس الشاعر ودقة شعوره وسعة تفكيره في حقيقة عجز عن فهم دقائقها كبار المعلمين والملافنة . فلم يرضَ بتفكيرهم بل تحرر وفكر بما أملاه عليه ايمانه وقلبه واذا به يخوض المعمعة ويخرج منها سالمًا منتصرًا يصوّر خوف العذراء الوالدة ولكنه لا يقبل ضعفاً في ايمانها ولا شكّاً ولا ارتياباً في رسالة ابنها يسوع الالهي.

يعمد الشاعر على وسيلة تنجيه من ورطة الملافنة فيعير يسوع اقوالاً يعزي بها امه ويشجعها بكل دالة ومحبة : انفضي الحزن ، يا أم ، انفضي الحزن فما يليق بك لانك تدعين مملوءة نعمة . »[1] اجل يدعو يسوع أمه الى الفرح والغبطة ويشرح لها ضرورة موته الطوعي لخلاص البشرية الساقطة . فتحس مريم بالخوف الشديد والألم القاسي ولكنها تبقى في كل النشيد قريبة من الانسانية التي تشعر وتتألم كما تتألم كل أم عندما ترى فلذة كبدها يعاني مرائر الآلام ويتجرع كأس الموت الاليم . ولكن ايمان مريم يصمد كاملاً راسخاً لا يتزعزع . فيخوف العذراء يتولد من شدة حبها : « غلبني الحب يا ابني ، غلبني الحب ، يقيناً لا اطيق ان اكون انا في داري وانت على خشبة . »[2]

مع ذلك يحسُّ القارئ بخضوع مريم لارادة ابنها فتعيره سمعها بكل انتباه وذلك بعد ان تكون قد « كفكفت الدموع من عيونها وهدأت فؤادها بما في امكانها . »[3] وتستفهم عن بعض الغامضات كانسان حكيم لا يريد ان يستسلم لجهله فتسأله : «انك شفيت اناساً عديدين بدون ألم وطهرت الابرص بلا وجع ، شئت فكان ما شئت . أقمت الاموات ولم يسطُ عليك موت ولم توضع في رمس . اذن فكيف تقول ان لم أتألم فآدم الشقي لا يُشفى ؟ »[4] ترجع مريم هذا الاستفهام الى ايمانها بقوة يسوع الالهية وارادته السامية وهي تعرف بأنه باستطاعته لو أراد ان يخلص البشرية بكلمة دون ألم : « مر ، يا مخلص ،

---

١) مقطوعة ٥

٢) مقطوعة ١٥

٣) مقطوعة ٨

٤) مقطوعة ٧ و٨

فيقوم آدم للحال ، فلك يخضع الجميع بما أنك مبدع الجميع . »[١] .

وحين يشتد ألمها يشتد ايضاً خوفها فتستجلي الامور كفافاً وتسأل ابنها عما يعقب الرمس : اذا تألمتَ ومت أفتعود اليَّ ؟ اني اخاف ، بني ، اخاف ان لا تعود عقيب الرمس . »[٢] وهذا الخوف يتبدد كالضباب عندما تسوقه الرياح فتسمع مريم من ابنها كلمات الثقة والارتياح :« تقي بقيناً ، يا أم ، انك قبل الجميع ستبصريني خارجاً من القبر . »[٣] .

واخيراً تسمع مريم من ابنها كلمات الوداع :« هي ارادة الآب » فتغلب لايمانها وحبها ويزول خوفها فتنشد من جديد انتصارها على الخوف : « غلبني الحب ، يا ابني ، غلبني الحب ! » ولا تطلب بعد ذاك الا ان ترافقه الى الموت بل الى الانتصار الخالد وقد آمنت بأن الحياة انما هي ابنها :« ما الحياة ؟ من هي ؟ انها ابني والهي ! »[٤]

ولهذا النشيد روعة جذابة ومظهر خلاب وصبغة حية تحيا من حياة المأساة الدينية اجل انه حوار رشيق جميل ولون من الوان النفس الفنية بالرقة والعطف والحنان والامومة المتألمة ومن جهة اخرى زي الهدوء والاطمئنان وروح التعزية . لقد مُثّل هذا الحوار الجدير بلتون او براسين لما فيه من عمق الدرس النفسي ورقة الحب الوالدي والاحترام البنوي مُثّل هذا النشيد مرتين في العام الماضي في بيروت ودمشق وقد أذهل الحاضرين ونال استحسان الجميع بتلك المسحة الشعرية الروائية وتلك العذوبة في العواطف وذلك السمو في النفسيات . واذا ما استثنينا المقدمة والمقطوعة الاخيرة التي هي صلاة فالنشيد كله ليس سوى حوار تتكلم فيه العذرا. الأم ويبادل يسوع أمه الكلام فيؤنسها ويشجعها ويعزيها في آلامها ومصابها .

وهذا الحوار الغني بالايقاع والانسجام الموسيقي المثقل بالوحي الخصيب

١) مقطوعة ٨
٢) مقطوعة ١١
٣) مقطوعة ١٣
٤) مقطوعة ١٥

والخيال الصافي يحمل شعورًا عميقاً وافكارًا سامية نجد ينبوعها في مأساة آلام المسيح « Χριστὸς Πάσχων » للشاعر غريغوريوس التريتزي نظمها هذا الشاعر على طريقة اريبيذس فكانت اول رواية دينية رائعة افتتحت المسرح في الديانة المسيحية. ومن بعد ظهور هذه المسرحية انتشرت المآسي والاسرار في الكنيسة باللغة الادبية واللغة الشعبية اليونانية وكان لمأساة «آلام المسيح» الأثر البعيد على الفن المسرحي في الشرق.

ان بيزنطية انصرفت الى المآسي الدينية اي الاسرار بخلاف ما ارتآه بعض الكتبة اذ نفوا عن بيزنطية المسيحية هذا الفن المسرحي[1]. لان الجو الذي عاش فيه شاعرنا رومانس كان جوًا مشبعاً بالمآسي. وقد عرف المأساة الكبيرة الكلاسيكية للشاعر غريغوريوس التريتزي الذي ارجع للشعر القديم المدرسي رونقه في روايته الدينية وهي رواية فخمة بوزنها ومظهرها وموضوعها، وضعها الشاعر غريغوريوس بالشعر اليوناني القديم المعروف بالكلاسيكي وعن هذه المأساة استقى رومانس بعض ابياته وموضوعات اناشيده وخصوصاً في نشيد الآلام ونشيد القيامة. وكثيرون اخرون تأثروا في هذه المأساة كما قالت العلامة فنيسيا كوتس: «ان تأثير المسرح الديني على الفن المسيحي في الشرق لمسألة يجب ان تسيطر (في الدروس الأدبية والفنية) لان وجود هذا المسرح هو اليوم فوق كل شبهة وشك[2]».

واغلب اناشيد رومانس هي من المآسي الدينية التي كانت تنشد وفي الوقت نفسه تمثل كما كان جارياً في كنيسة آجيا صوفيا في عهد رومانس وقد ازدادت هذه النزعة في الاجيال التالية وقد حفظت لنا الاجيال والكتب والحفلات الطقسية الشرقية لوناً خاصاً من الوان المسرحيات.

ومن هذه الحفلات نخص بالذكر زياح الشعانين وحفلة الغسل وصلوات الآلام وقراءة الاناجيل ورتبة جناز المسيح ورتبة هجمة عيد الفصح والباعوث وكلها بقايا من المآسي الدينية التي كانت قد ابتدأت في المسرح المدني خارج الكنيسة

١) راجع مجلة المسرة في سنتها ٣٣ نيسان سنة ١٩٤٧، صفحة ١٩٦.

٢) Cf. Venetia Cottas : *L'Influence du Drame « Christos Paschon » sur l'art chrétien d'Orient*. Paris, 1931, p.1.

ثم راجت واقتربت من قدس الاقداس حيث تباركت وانحفظت داخله الى ايامنا بينما ان «الاسرار» في الغرب ابتدأت في الكنائس ثم خرجت منها الى الساحات العمومية واضمحلت ولم يبق منها الا القليل[1] .

ونشيد رومانس هو من تلك المآسي الخالدة التي غابت الاجيال ووصلت الينا في رونقها وعذوبتها فهو في رقته وايجازه وحسن روائه ودقة تحليله النفسي من الاناشيد الخالدة التي غمرت البشرية بالنفحة السماوية والالهام الصافي . ذلك لأن رومانس على عمق تفكيره وبعد خياله وسعة تحليله لنفس الأم العذراء لا يزال في طليعة الشعراء الكبار . وقد تفتخر مدينة بيروت انها احتضنت هذا الشاعر بين جدران كنائسها وتعتز الكنيسة انها لا تزال تدخل الشاعر الى قدس اقداسها اذ انها تعرف قيمة الجمال فتضمه وتحتضنه بينما كان افلاطون يتوج الشاعر ثم بعد ذلك يبعده الى ما وراء الحدود .

1) Cf. Venetia Cottas : *Le Théâtre à Byzance*. Paris, 1931. p. 53.

مريم على أقدام الصليب

نشيد للشاعر رومانوس المرنم

مقدمة

هلم جميعاً نسبح
من لأجلنا صلب ،
ذاك أبصرته مريم [1]
على الخشبة فقالت :
« وان احتملت الصلب
فانت لم تزل
ابنى والهي ! »

مريم

تلك النعجة مريم
حين ابصرت حملها
مسوقاً الى الذبح [1]
تبعته متهدمة
بصحبة نسوة أخر
فهتفت هكذا :
الى اين ؟ يا ابني
لأي سبب تذهب
هكذا سريعاً سريعاً ؟ [4]

اعرس آخر في قانا [5]
ونحث الخطى الى هناك
لتحول الماء خمرا ؟
أأتبعك ، يا ابني
أو ألبث هنا ؟
اعطني كلمة ، يا كلمة ! [6]
لا تجزني صامتا !
يا من حفظني عذراء ،
يا ابني والهي !

---

١) يوحنا ١٩ — ٢٥ ٢) أشعيا ٥٣ — ٧ ٣) نيوتاوس ٤ — ٧ ٤) في هذه المقطوعة يتبع رومانس الشاعر غريغوريوس التريتري .Migne P. G. T. 38. Col. 173 Χριστὸς Πάσχων τραγῳδία. ٥) يوحنا ٢ — ١ ٦) يوحنا ١ — ١ .

مريم

٢ ما كنت أنتظر ، بني
ان اراك على هذه الحال ؟
وما كنت أعتقد أصلا
بأني انظر الائمة
تثور بهم نزوة الغضب
الى هذا الحد .
يرفعون الأيديَ بجورعليك[١]
بينما أطفالهم تصرخ لك :
« اوصنا ! مبارك ! »[٢]
وهذا الطريق
المفروش بالسَّعَف
يذكر الجميع
بمديح المجزمين لك
والان لأي سبب
يجترم هذا الاثم
أريد اواه اريد
ان أعرف كيف يخبو ضيائي،
كيف يسمر على الصليب
ابني والهي ؟

مريم

٣ أتسرع ، يا حشاشتي
الى الموت الجائر ،
وليس أحد يتألم معك ؟
فلا يصحبك بطرس
القائل لك :
لا انكرك ابدا
ولو ألجئتُ الى الموت ! »[٣]
اهملك توما
وقد هتف :« لنذهب
نحن ايضاً لنموت معك . »[٤]
وهكذا احباؤك الآخرون
واولادك المزمعون
ان يدينوا أسباط اسرائيل[٥]
أين هم الآن ؟ لا أحد منهم
بل انت وحدك ، بني
تموت عن الجميع[٦]
وتخلص الجميع
وتكفر عن الجميع
انت يا ابني والهي !

١) لوقا ٢٢ – ٥٢ ٢) متى ٢١ – ٨ ٣) متى ٢٦ – ٣٥ ٤) يوحنا ١١ – ١٦
٥) متى ١٩ – ٢٨ ٦) ٢ كور ٥ – ١٤

يسوع

٤ بهذا فاهت مريم
فكان أساها شديدا
وحزنها عميقا
وكانت تبكي ،
فالتفت اليها
المولودُ منها وهتف بها
لِمَ بكاؤكِ ، يا أمُّ ؟
لِمَ يشفك الحزن
كسائر النساء ؟
فكيف أخلص آدم
ان لم أتألم وامت ؟
او لم اسكن قبرا ؟
كيف اجذب الى الحياة
اولئك الذين في الجحيم ؟
لأنت تعلمين يقينا
أني سأصلب وأموت ،
اذن لِمَ بكاؤكِ ، يا أم ؟
ألا اهتفي بالاحرى :
بحب يقبلُ الألم
ابني والهي !

يسوع

دعي النوح يا أم ، دعيه :
فلا يليق بك العويل ،
لأنك تدعين
مملوءة نعمة.[1]
لا تحجبي
مجدك بالبكاء ،
ولا تقيسي نفسك
بالنسوة الجاهلات ،
ايتها العذراء الحكيمة !
انك داخل خبائي ،
فلا تحسبي نفسك
كانك خارج الخباء .
ألا نادي الذين
هم في الخباء عبيد لك ،
فكل يسرع
ويطيع لك ،
حين تقولين يا عفيفة :
اين هو
ابني والهي ؟

١) لوقا ١ — ٢٨

يسوع

٦ لا تعتقدي بأن
نهاري مر ،
فانا الحلاوة
لهذا الكفاح اتيت .
نزلت كالمن من السماء [١]
لا على سينا
بل في احشائك ، [٢]
في هذه الاحشاء تكونت
كما تنبأ داود [٣] من قديم
ألا اعلمي ، يا عفيفة ،
ان الجبل المسنم
انما هو انا انا الكلمة
صرت منك جسدا
وبهذا الجسد أتألم ، [٥]
وبه اموت
فلا تبكي ، يا أم !
بل قولي :
عن رضى يقبل الالام
ابني والهي !

مريم

٧ اجابت الأم ، بني ،
ان بارحت الدموع عيني
لازم الاضطراب قلبي
فلا يقوى
على الصمت لساني
لم أسمعك ، بني تقول :
ما من شفاء لآدم
اذا لم أتألم ؟
وقد شفيت كثيراً من الناس
بدون ألم .
طهرت الأبرص [٦]
بلا وجع ،
شئت فكان ما شئت
قومت المخلع [٧]
بلا مشقة ،
وبكلمتك ، ايها الصالح
حبوت الاعمى النظر [٨]
ولبثت بدون ألم
انت يا ابني والهي !

١) الخروج ١٦ – ٤ ٢) متى ١ – ١٨ ٣) مزمور ٥٨ – ١٦ ٤) يوحنا ١ – ١٤
٥) ١ بطرس ٤–١ ٦) متى ٨–١ ، لوقا ٥ – ١٢ ، مرقص ١ – ١٤ ٧) متى ٩ – ٢
٨) يوحنا ٩ – ٢ .

مريم

٨ أقمت الاموات
ولم ينلك من الموت أذى
ولا ضمك اليه رمس .
انت ، يا ابني وحياتي !
اذن كيف تقول :
« ان لم أتألم
فلا يشفى
آدم الشقي ! » ؟
مُر ، يا مخلص
فينهض آدم للحال ،
ويحمل سريره بشجاعة .
ولو ضم الحفير آدمَ
فكما أقمت بصوتك لعازر
تقيم آدم ايضاً من الحفير .
فلك يتعبد الكل
بما انك مبدع الكل
اذن لِمَ تخطو بسرعة ، بني
لا ! لا تسرع الى الذبح !
ولا تقتحم الموت !
يا ابني والهي !

يسوع

٩ أما علمتِ ، أيا أم ،
أما علمتِ ما قلته ؟
إرهفي ذهنكِ
واخبئي فيه الكلام
الذي ستسمعين ،
فكري في نفسك
فيما اقول :
« ان آدم المسكين
الذي تكلمتِ عنه
مريض لا بجسمه فحسب
انه مريض ، مريض بنفسه .»
برضاه غدا مريضا
فهو لم يسمع لي
وعرّض بنفسه للخطر . »
تُراك أدركت ما اقول ؟
لا تبكي ، يا أمّ !
بل رددي :
الا رفقاً بآدم ،
وعطفا على حواء ؛
يا ابني والهي !

١) يوحنا ١١ — ٢٨

يسوع

١٠ بسبب النهم
بسبب الفجع ،
غدا آدم سقيما ،
وانحدر الى اسفل الجحيم
فيبكي هناك
شقاء نفسه .
وحواء التعسة
التي علّمته العصيان [١]
تتأوه معه
وهي مثله سقيمة
تتأوه فتتعلم
ان تحفظ أمر الطبيب .
أفهمت اذن ؟
أوعيت كلامي ؟
لِمَ بكاؤك ، يا أم ؟
ألا اهتفي من جديد :
« ان غفرت لآدم
وان سامحت حواء
فأنت ابني والهي !

مريم

١١ حينما النعجة
البريئة من العيوب
سمعت هذا
قالت للحَمَل :
سيدي !
ولو تكلمت هذه المرة
لما أضمرتَ لي شرا
فاقول لك مرامي
واستوضحك كِفافا
كلَّ ما شاء ،
اذا تألمت ومت أفتعود اليَّ ؟
وان انت زرت آدم وحواء
أفأراك من جديد ؟ »
اني لأخاف ، يا ابني
اخاف ان لا تعود
عقيب الرمس
واذا افتش عن طلعتك
ابكي واصرخ
الا أين هو ؟
ابني والهي

١) تكوين ٣-٦

يسوع

١٢ عالم الاشياء جميعا
قبل حدوثها (١
حين سمع كل هذا
قال لمريم :
« ثقي يقينًا ، يا ام ،
انك قبل الجميع ستبصرينني
خارجاً من القبر ،
سآتي لاجلوَ لك
من أية الظلمات
نجيت آدم ،
وما المشقات
التي قاسيت من أجله
سوف أعلنها لاحباني
فأريهم الجروح في يدي (٢
وآنذاك تشاهدين ، يا أم ،
حواء وقد بعثت بعثا
كما في البدء
وتهتفين بفرح .
انت مخلص الاجداد
انت يا ابني والهي !

يسوع

١٣ اصبري قليلا ،
يا أم
فتشاهدي
كيف اني كطبيب
انفض الوشاح عني
واسرع الى حيث
يتوسد الاجداد
أفتش عن جروحهم
وأبيد بالحربة دمائهم (٣
وقساوتهم
آخذ الخلَّ (٤
وألثم جروحهم
واذ أجس قروحهم
بمسبر مساميري (٥
ألفهم بوشاحي
فيغدو صليبي جبارا
ولا ازال عليه
حتى تشيدي بحماس :
تحمل الالام طوعا
من هو ابني والهي !

١) سيراخ ٢٣-٢٩   ٢) يوحنا ٢٠-٢٧   ٣) يوحنا ١٩-٣٤   ٤) متى ٢٧-٤٨

يسوع

١٤ أنفضي الأسى ، يا أم
انفضيه عنك
سيري بغبطة
لأني لهذا أتيت
ولذا اسرع الآن
لأتم ارادة من أرسلني[1]
فمهمتي معلنة
منذ الابتداء
وما ساء أمام الرب
ولا امام الروح
ان أصير انسانا
وان أتألم
لاجل من كان ساقطا .
أسرعي ، يا عذراء
وبشري الجميع
بأنه بالالام
صرع عدوّ آدم
وأتى ظافرا
ابني والهي!

مريم

١٥ غلبني الحب ، يا ابني
غلبني الحب !
يقيناً لا أطيق
ان اكون في خدري ،
وانت على خشبة ،
انا في خباني ،
وانت في الخفير
الا دعني ارافقك
فرؤيتك عزاء !
وان كانت جراة
عند اتباع موسى
لا بد انهم
يثبون عليك
قصد قتلك
واثاراً له منك
لكنما موسى قال لاسرائيل[2]
ستشاهد الحياة
على خشبة
ما هي الحياة ؟ ما هي[3] ؟
انها ابني والهي !

١) يوحنا ٦–٣٨ ٢) سفر العدد ٣١–٨ ؛ يوحنا ٣ – ١٥ ٣) يوحنا ٢١–٢٥ و ١٦–٦

يسوع

١٦ ان أتيتِ برفقتي
فلا تولولي ، يا أم !
ولا تذهلي من جديد ،
اذا ما شاهدتِ
العناصر متزعزعة
لأن جسارة كهذه
ترجف الارض كلها
لقد عميت السماء [1]
فلن تفتح العيون ،
الى ان آمرها ثانية .
فالارض مع البحر
أسرعا في الانهزام
ومزق الهيكل ستره
حنقاً على من تجاسر .
وتزعزعت الجبال
واهتزت القبور ،
وعندما تبصرين هذا
اذا ذعرت ، يا ام
فاصرخي اليّ ، ارثِ لي
يا ابني والهي ! »

صلاة

١٧ يا ابن العذراء !
يا إله العذراء
وخالق العالم !
آلامك منتهى حكمتك
انت تعلم ما كنت
وما صرت اليه ،
اردت الألم
فاتيت متنازلا الينا
لتخلص الانسان .
انت حملت خطايانا
انت الحمل .[4]
انت بموتك أمتها .
خلصت الجميع ، يا مخلص ،
انت لا تنفكُّ انت
تألمت او لم تتألم !
انت هو انت
حياً كنت ام ميتا .
وانت اوحيت للعذراء
فصرخت اليك بدالة :
« انت هو ابني والهي ! »

١) متى ٣٢–٤٥ ٢) متى ٢٧ – ٥١ ٣) رومانيين ١١ – ٣٢ ٤) يوحنا ١ –

وجوه من الشرق

اللقاء الاخير

بقلم ميشال جايك

بمناسبة مرور سنتين على وفاة الخوري يوسف الحداد، ننشر عنه هذا المقال من احد احبائه – وما اكثرهم! – الذين تعرّفوا اليه عن كثب. والحداد هو صاحب كتاب «اللبنانية» و«النجوى» الذي يكاد يكون وحيدا في مكتبتنا العربية من نوعه لما فيه من رجوع وجلوس الى الطبيعة والاستمتاع بمظاهرها الخلابة. والطبيعة عند الحداد تبعث على الهدوء والراحة والرجاء فهي «كتاب الله» كما يقول. وللحداد روايات عديدة طبع منها «ارثور» و «ملك السجون». وله كتاب تاريخي قيم «المروءة» طبع منذ سنوات قلائل. فمتى تنشر مخطوطاته الباقية ليفيد الادب العربي من طلاوتها وغناها.

هل اناديك وفي الصوت بحة جوفا. لا تخترق حدود هذا الفضاء المخيم علينا؟

هل اناديك وحيثما تقطن الان «لم تنظره عين ولم تسمع به اذن ولم يخطر على قلب بشر؟»

عبثاً ندائي فانك من افقك العالي لا تسمع اصواتنا التي يخنقها التراب وتبددها الانسام الغوادي.

مضت سنتان على انطباقة عينيك الابدية، ولم يكن بعد من يخبر عنك الا بعض مقاطع من شعرك تتردد على الالسنة، اسدلوا الستار على مسرح ايامك فكانك لم تكن، وكأن الحياة لم تحلم بك يوماً، وكأن القبر يحط امانيك المجنحة وآخر اغنية انشدتها يا شاعراً كان في الارض ولم يكن للارض.

من ضجة الحياة الصاخبة الى ضجعة الموت،

من انشودة العمر والطيب الى انعقاد الشفاه،

من اليد الممدودة الى العيش الى اليد الملقاة في تعب على صدرك لا حراك فيها.

من المهد الى اللحد ،

ماذا رأيت وماذا تركت ؟

رأيت « ان الحياة هي حلم ، ومدتها بافراحها واتراحها كمدة المنام ،

وان يكن من معز فالجهاد بصبر وطلب وجه الله . »

وتركت قطعات من روحك على ورقات فانية نحني عليها فتستترف من كل مقلة دمعةً جاز عنها الشقاء في محاجرنا .

❖

ذهبتَ ولم المس من كفيك آخر خفقة ، لتسير في جسمي آخر خفقة من جسدك ، فاحملك معي طول ايامي .

ذهبتَ ولم احدد اليك طرفي لينطبع في عينك المغمضتين رسمي ، وتأخذني معك الى غربة القبر فاسليك .

احاول ان اتذكرك وابعث من غبار الايام صورتك الوضاحة .

احاول ان أحيي ما رسب في اعماق نفسي منك .

وحينما مررتُ على اثارك مجتهدًا في ان استلّ لونًا لمحياك وجدت السطور بين يديّ فقيرةً ، عديمة الالوان ، واذا بحقيقة رسمك تجفل من امامي .

❖

لم يبقَ لي الا ان اخطط ملامحك من خلال لقائنا الاخير :

كان ذلك في اواخر شهر آب عام ١٩٤٨ . جئتك ماشيًا كأني احج الى ارض اقداس ، ولفح الهجير يحرقني . فالتقيت بك في ذلك الوادي ، حين كنت على صخرة موحشة بعيدًا عن المساكن ، غارقًا في صمت ملهم وتأمل خاشع . وعلى الجبال البعيدة رعاة ينشدون في القصب الحان التسبيح والغبطة . هناك رأيتك وقد استراحت عصاك بين رجليك مستندةً الى الركبتين اللتين هدأتا رؤوس الكثيرين من البشر ، وقد غرق رأسك في قبعة من صوف ، وبان خلالها عينان غائرتان في وقبٍ سحيق .

فشعرتُ كأنك في غيبوبة انحطمت فيها حواجز الذات وتساقطت الحدود

الترابية رويدًا رويدًا فرحتَ سارحًا وراء نفسك التوّاقة الى الجمال في شوق اصمّ وشهوة طاهرة خرساء تحملك على جناحيها الى غير دنيانا...

على تلك الصخرة شاهدتك ووقفت ورفيقي نتأملك من بعيد ونستعرض بغير الكلام مراحل ايامك ، ما اجلاها جلسة كانت صورةً لحياتك . كنت دائمًا على صخرة ثابتًا في معتقدك لا تتزاح عنه ، ثابتًا في ادبك الذي شئته تعبيرًا صادقًا عن وجهة القلب الحقيقية ؛ على صخرة بعيدًا عن اوحال الارض واقذارها . على صخرة وكالنسر الذي يبني عشه على انفها ، بنيت حياتك وجعلت الصخرة الاساس. وحين عصفت الزوبعة وهطلت المياه الجارفة ما خشيت السقوط او الميلان . ومن على صخرتك نظرت الى الحياة فزهدت بها . رأيتك هناك وقد اغمضتَ عينَي روحك عن الارض لكي لا تشارك بنيها بشهواتهم ولا تقاسمهم نزعاتهم ، ورأيتُ السنين تمر على عينَي جسدك فتطمس النور وتغوّر النظر ولكنك ما برحت تبصر الان الضوء الحقيقي الذي يهجع مشعًا في كل قرارة كل نفس لا تخشى ان تتطلع الى ذاتها عاريةً من المساحيق التي ما اكثر ما تخفي بها حقيقة الكيان الانساني .

نظرت الى الحياة من على صخرتك فوجدتها :

دنيا اغرّ من السراب نعيمها وامرّ طعماً من عصير العلقمِ

يسعى اللئيم بها رغيدًا عيشه والحر يمشي فوق وكر الارقمِ

وهكذا اصبحت لديك جميع المناهج متساوية فكلها اباطيل وغرور فاعتصمت بثوبك الاسود تتخفى فيه عن عيون الشر المنفتحة على كل مخلوق . وظن الآخرون ان ثوبك ضيّق عليك وأرغمت حريتك ، لكن الحرية كنت تستمدّها من ذلك الذي تجندت في سبيل خدمته ، ذلك هو الحق الذي يحرر الذين يعرفونه .

عرفت ان الحياة لا تبقى لاحد فما هي الا ريشة في مهب الليالي العاصفات وعصافة بالية يعبث بها الزمان المتحول . فنشأ من ذلك قلق في نفسك والنفوس الكبيرة هي ابدًا قلقة مضطربة فرحت تبني وجودك على اساس مكين ، على صخرة .

فما اجمل جلستك امامي .

وقفت ورفيقي نتأملك وكنتَ وحدك تسبح في كون غير هذا وانت تلك النفس الجوابة التي تبحث عن حبيب ازلي اضاعته في هذا العالم .

يا صاحب الجفون البيضاء المكتحلة بغبار السنين ، الملونة باضواء علوية تشع في ليل الناس ولا يبصرونها ، يا صاحب الشعر الاشعث الهازئ بطلاسم الناس ، رأيتك على صخرتك موحشاً وكم كنت تجلس هكذا ساعات متواصلات دون حركة ولا اختلاجة في عرق ظاهرة ، ويظنك المارّون مضطجعاً بينما انت في يقظة تسخر من عيوننا المنفتحة على ارض الزوال .

وحدك الان كما كنت في كل حياتك . لم تأبه لخداع صديق ولبطلان علاقة فسرت على الدرب اعزل تحمل في جنانك صفاء البكارة الاولى . وحدك لانك كنت من تلك النفوس التي تعلو كل ما حولها . وحدك والنبوغ وحدةٌ ووحشةٌ وانفراد . . .

لحيتك المتدلية البيضاء يعبث النسيم الآتي من صوب البحر بشعراتها تزينك ، في ذلك الوقار ، شيخاً من شيوخ الاساطير القديمة صوّره احد الشعراء من بلاد الاغريق . ولا عجب فاشعارك كاشعار القدماء تسير على كل لسان ، يرويها القرويون في اعالي جبالنا وقلّ ألّا يكون على لسان فلاح او راعٍ كلمة من تلك التي عطّرت بها جرود بلادنا . وما اقلّ الذين يفهمونها ، ولكنهم كلهم يشعرون ، دون ان يفهموا ، بان هنالك وحدةً داخلية بين الحياة التي كنت تعيشها والاثار التي تركتها . وقد لا يذكر تاريخ الادب بين سطوره الا بعض لمحات عن جمال بيانك وشدة اسره ، ولكن الذين عرفوك سوف يذكرون خصوصاً جمال نفسك وشدة الحفاظ على عقيدتك . ان مـا تركت من الاثار قليل جداً بالنسبة مما كان لديك من مواهب ، وبالنسبة ممّا كنته انت .

هذه البقعة بكاملها المتدة الان امامي انت غذيتها حين كنت تعصر روحك فتخلق في صفوة اشعارك الكلمة الصافية وتجمع النبرة الحنون . وكنت تلقي على هذه الاكمات التي تفترشها الشمس جمالاً فضفاضاً فتجمل الارض بعد مرورك عليها انقى والصخرة اطرى وانعم ملمساً . . .

كنت جالساً امامي ولم يبقَ بينك وبيني غير خطوات قلائل : انت مل عيني ولا تشعر بقربي منك . ثم دنوت منك وحييتك ولمست يدك وقبلتها وضممتني بحنان الى صدرك كالطفل الى صدر ام مشتاقة ، فاحسست بانفاسك تخترق جسمي وتدور في عظامي كأنها جمرة مطهّرة كتلك التي لمست شفتي اشعيا النبي .

وجلست قربك اسمعك وتسمعني واشعر بطفولتك واخجل امام طفولتك من ذاتي . ا كنت تقول لي لم يكن بالعجب ولكنه كان كل شيء . والكلمة التي تروح تنثر من شفتيك تحمل معها اثر نقاوة نفسية ولذلك يستقبلها الطفل الثاوي فينا فيرقص من بهجة وحبور .

قلت لك : « لماذا تعتزل الناس ؟ » فاجبتني : « اخشى ان اعكر على الناس راحتهم لانني شيخ والشيوخ يعدهم الناس عالةً وثقلاً . » فاعجب لتلك اليقظة الروحية التي كانت ميراثك من الطبيعة ولتلك النفس الرقيقة التي تحت وقر السنين حفظت صفاء يحاكي صفاء الاطفال ونعومةً كانت دهشاً للرجال .

وتحت صروف قاسية تطحن القلب طحناً بقيت كما انت ، ذلك الطفل الجامع يديه يصلي بحرارة مسعورة . أرهقتك آلام عديدة ، وبتّ ليالي طويلة على تخزات الوجع يتآكل عظمك المكسور وما كان ذلك الا ليزيدك اقتراباً من الانسان ومن الله .

وعندما قلتَ :

« قد صار القلب كمنقودٍ ملقىً في معصرة الدهر »

أردفتَ من عميق نفسك القديسة :

« عذّب يا ربي العبد هنا وهناك تعطّف بالاجر »

كل الذين قرأوا « اللبنانية » قالوا عنك انك دماغ جبار ومخيلة واسعة تصوّر حالة البائسين اللبنانيين ايام الحرب الكونية الاولى باصدق مما تصور ريشة فنان مبدع .

وكل الذين اطّلعوا على روايتيك المطبوعتين « ارثور » و « ملك السجون » رأوا فيك مصوّرًا ماهرًا لنشزات النفس البشرية على حقيقتها . وكل الذين قلّبوا صفحات « المروءة » عرفوا كيف تجمع التاريخ بالادب وتسمو بهما معًا .

وقيل عنك انك اديبٌ ومفكر وشاعر وانا اعرف انك كنت كاهنًا قبل كل ذلك . وما كان الكاهن فيك ليسيء الى الاديب والمفكر والشاعر بل جمّل وكمّل . كاهن يذيب لياليه طعامًا للجائعين الى غذاء غير التراب الفاني . كاهن يحرق حتى الذوبان عمره في خدمة من أولم وابتُلي ويحنو على من ذاله الادقاع . عرف انه للخدمة والعطاء الذي لا يطلب ردودًا واسترجاعًا ، وحينما قال له احدهم : ان الكاهن اليوم يتبع الدرهم أجاب : « نحن نخدم الله وهذه غايتنا الاولى وما الفلس الا عرَض يأتي . فليمنع الناس الفلس عنا فلن يمنعنا ذلك عن خدمتهم والسير امامهم على الطريق الصاعد الى جلجلة الحياة . »

وقلبك كان تلك الجلجلة التي كم سمّر عليها الناس الصلبان وقلبك كان نوافذ مشرّعة على الافاق الرحبة لا تنغلق بوجه بائس من ذوي الحرمان ، وروحك كانت كُوًى تتطلع منها أعين هي سكنى الحنان والانعطاف ...

واقتربت منك فاستندتَ الى كتفي ووقفت تنظر الى البعيد ولا تبصر بعينيك الحسيتين ولكن امام مقلة الروح ارجاء عريضة المدى وافاق رحيبة تراها ولا اراها انا الواقف عن يمينك .

ووقفتَ تعيد عليّ مقاطع من ڤرجيل شيخ الشعراء كما كنتَ تسيه وترتعش خافقًا باجمعك عندما تلفظ :

« O terque quaterque beati . . . »

واحس انك تحيا الان امامي واراك بعين الخيال ممتدًا كشجرة باسقة قديمة الاماليد تتفيأ ظلالها نبتةٌ فتيّةٌ كانت انا . ايّة حياة تهدر في ذلك الوجه الذي خدّدت الليالي بياضه ! واي تهدّج في تلك النبرة الحائرة التي تجرّحني ! شعرت كأنها آتية من بلدٍ بعيد فيها شيء من عالم اللانهاية ، شيء من تتمة الاله الذي كنت تحمله كل صباحٍ بين يديك وكل آنٍ في قلبك .

ومشيت خطوتين ثم قلتَ لي : « قفْ » وأعدتَ شيئاً من تصيدتك : « القبر » ، وكان في صوتك رنّة جزع يخالطه رجاء اكيد ، وغمرة حزن فيها من عميق الامل شهوةٌ للبقاء غير مخذولة :

« قف هنا ، قد كفى تحثّ الرحيلا فالى اين انت تبغي الوصولا ؟
قد وصلنا فألقِ حملك وامسح من مسير الطريق عنك الوحولا
هوذا القبر منتهى السير فاهدأ نتحدثْ عن الحياة قليلا... »

ومن اعمــاق ذلك الوادي الاخضر المرتعش تحت هينمات النسيم الحييّ ، الغارق في دعة الغفوة المطمئنة، قرب اختلاجات الدوالي الشاديات وقفت متطلعاً الى لا شيء. وقد شاعت على وجنتيك صفرةٌ وشحوب وتنهدتَ تنهيدةً عميقةً ذابت شعراً :

« من الاعماق يا عذرا صرخت اليكِ لبّيني
وها أنذا على قدميك ابكي فاستجيبيني...
فيا طوبى لمن سُترتْ خطاياه ، فغطّيني
بسترٍ منك يا عذراء في الدارين يحميني... »

شيخ في الثالثة والثمانين : انت تبكي امــام العذراء. وتطلب ان تختفي بذيلها . إيه تلك الدموع التي افلتت من مقلتيك في اواخر آب. أما لقيتها اليوم يا ابي حلقاتٍ مشعشعاتٍ نوراً في اكليل كان على الارض من شوك فاصبح هناك عندك من لآلئ سعادةٍ باقية .

رافقتك في فتراتٍ من العمر هــاربات فعرفت منك حبّ كل شيء. في الارض واحترام الحشرة الذليلة والغرسة المضعوفة كاحترام الانسان لان خالقها ترك فيها اثراً من حبه حين جبلتها يداه ، ومسحةً من جمــاله حينما رأى ان إبداعها كان حسناً .

هــكذا كنت تكتب « النجوى » . تستوحي الطبيعة التي احببت فجاء كتابك قطعة روح منك ومنها ، فلن يفهم كتــابك الا الذي تعرّف اليك عن كثب .

أحببتَ كل شيء، فلم تشعر بالغربة بعد ان اعتزلت الناس وجلست الى الاشيا، تحدثك وتحدثها، واكاد اسمع نغمة الطيور العذارى وخفق اجنحة ابكار الفضاء متهللةً في استقبالك . تسير الى الحقل وتتمنى الطعام والشراب وترود تحت اشجار الزيتون وفي ظلال الكروم كأني بك تستكشف اصبع الله الممتدة الى الاكوان تحفر في تخاريب الصخور تماثيل الحب التي لا يبصرها الا الذين أوتوا روحاً شفافةً كروحك . وكأني بك في ذلك الوادي تنشد اليد التي سوف تستدل بها في سيرك على طريق الابدية . وتنهد الى ظل كل شجرة وتتحدث الى كل زهرة وصخرة وتهمس في مسمع كل طائر نغماً لم يسقط في مسمع انسان .

عذاب الشيخوخة هو الشعور بالوحدة والعزلة فكأن الوجود انهزم في نظر الشيخ والاشيا، تعرت من معانيها والجمال اصبح مبتوراً . قد يريع هذا العذاب ولكنه لا يريع نفسك الغنيّة التي لها من جمالها وروحانيتها قدرة على خلق عوالم جديدة تهزأ بتقاليس عوالم الواقع المنحلة .

وشيخوختك انت صبوةٌ تزداد كل يوم الى اللقاء الاقصى مع الله ، هي جمرة شوقٍ مشتعلة محبوسة في عظامك كتلك التي حبست في عظام ارميا فجهده إمساكها .

حقيقةً انك لم تقل كلمتك الكبرى . لقد بقيتَ على شفتيك لهيباً مستعراً تحاول ان تهمسها فتعجز عن ذلك لان ما تحمل في قلبك لن يُحمل الى الناس الا بجهد وعياء : في قلبك الحب الذي لا يُذاع . وستنقرض البشرية ويبقى الحب كلمةً في فم الانسان يحس بها كالانامل تتغلغل في خلايا وجدانه ويعجز عن النطق بها ، يفهمها ولا يستطيع ان يُفهمها .

وكدت ادرك شيئاً من محاولتك البوح بكلمة حياتك الكبرى حينما كنتَ تنهض صباحاً وقد أرقت الليل كله تهذ بترانيم التوله صوب الحق الاول فترتّم مذيباً صوتك مع اصوات الخلائق : «الهي لك الحمد ، الهي لك الشكران !..»

من لم يلمس تلك اليد المتداعية الانامل ويصغي الى نبرة ذلك الصوت الذي يترك في قرارة النفس شيئاً من نبرات نبيٍّ قديم فقد فاته الاستماع الى كلمتك الكبرى

قد لفظت شيئاً منها حينما كان يرنّ صوتك في حنــايا كنيسة مهجورة ، صوتك المتقطع الذي اكسبه الزمان روعة القدم . كنتَ وحدك مع الملك تبثه لواعج الفراق المستطيل والعمر المتمرد . ايّ دخيل كنته انا اذاك اعكّر على الحبيبَين صفوة اللقاء ! واشعر عندئذ بان كل مــا كان حولك يتهدم وكأنك تتهادى وتتطــاول بعيداً وتقترب في الاعالي ملتحفاً بكدس متلبّد من غمائم مشتعلة الاطراف . ويكاد رجع كلماتك وتراتيلك يكون قطعاً ملموسة من روح زاخرة نبّاضة . . .

كان ذلك في اواخر آب ، يوم التقينا المرة الاخيرة ، وهكذا تحدثنا ثم وقفنا ثم مشينا ووقع عصاك على حصباء الوادي كأنه انتفاضة قلب يحتضر او دقات مسامير في تابوت . ووصلنا اخيراً الى السنديانة قرب « مار روحانا » ، قرب القبر الفارغ المنتظر :

« قد وصلنا فألقِ حملك وامسح من غبار الطريق عنك الوحولا ! »

وهناك تودّعنا وخلف كلمات الوداع كان قلب يتقطع ، هو قلبي . وتركتني لتلج جوف امنا الارض بعد جولتك العابرة في وجدان الدهر . لقد انتهى كل شيء . ووُضعت فوق القبر حجارةٌ ضخمة ونبتت اليوم اعشابٌ بريّة دائمة الاخضرار .

واستفاقت الطيور في « الوطا » حيرى فلم تسمع وقــع اقدامك وتمتمات صلواتك . واشجار « الزيتون » اشتهت ان تظلّلك يا من كنت فيئاً للنفوس التعبة . والسنديانة الهرمة قرب الكنيسة استيقظت ذات صبــاح فابصرت مكانك فارغاً وعصاك ملقاةً على الارض تحلم بلقاء لن يأتي ، وتتذكر لمس الاصابع التي غُيّبت في التراب . فلسوف يتعتعها النسيم الاتي من الوادي في آونة الهجير ولا اذن تصغي لالتقاط موسيقاها ، ولا قلب ينبض مع اختلاجات وريقاتها — والكنيسة استندت الى ضريحك ثكلى تصعد الصلوات محرورة لاهبة .

زرت قبرك بعد سنة فاحسست بأنك حاضر الروح هناك وشعرت بالروعة

الجائمة عليه . وكانت العصافير تغني والرعاة على الروابي بين قطعانهم ينشدون في القصب فينصت الوادي من الحنين . وافتكرت طويلاً بحياتنا الهاربة من ايدينا كأنها ظلٌ في ميلان ، او هجعةٌ في ليل . ولكننا غداً نستفيق في جوار ربك حيث انفتحت عيناك على الجمال وانفتح قلبك على الحب المبدع الكائنات .

نحن هنا في خيمة منصوبة لليلة عابرة ، وغداً حين يطلع الصباح ويغنى العمر ننهض لنتابع رحلتنا نحو مبيت الشروق ، وزادنا هو الرجاء ، ورجاؤنا هو الدليل . . .

الأخبار العالمية

اخبار العالم الكاثوليكي

اختتام السنة المقدسة ١٩٤٩ — ١٩٥٠

احتفل قداسة البابا بيوس الثاني عشر بافتتاح الباب المقدس للسنة اليوبيلية في كنيسة القديس بطرس العظمى في روما صباح السبت في الرابع والعشرين من كانون الاول ١٩٤٩ وفي صباح الاحد في الرابع والعشرين من الشهر عينه ١٩٥٠ قام بحفلات اختتامها فأغلق الباب المقدس حسب الرتبة المألوفة بوضع القراميد الثلاث المذهبة على عتبة الباب ومدّ الملاط عليها بمنسجة ذهبية – ثم ليلة الميلاد بعد اقامة قداس نصف الليل في كنيسة الفاتيكان وقداس الفجر والصباح في معبده الخاص وقّع براءة عنوانها « بالسنة المكرسة »[1] بها يشرك العالم كله بنعم اليوبيل لسنة ١٩٥١.

سوف يبقى الباب المقدس مغلقاً خمساً وعشرين سنة الى يوبيل سنة ١٩٧٥.

— كان اقبال الزوار الى روما « المترومين » في مدة اليوبيل عظيماً جداً فقد أربى عددهم على الثلاثة ملايين ويرى بعضهم انه قد بلغ الاربعة ملايين. أمّ المترومّون عاصمة الكثلكة من كافة اقطار المسكونة من شرقها ومن مغربها من ايطاليا وفرنسا والمانيا وانكلترا وبلجكا وارلندا والنمسا واسبانيا والبرتوغال وسويسرا وهولاندا واسكنديناويا وكندا والولايات المتحدة واميركا الجنوبية والشرق الادنى والصين والهند واليابان وافريقيا

— مما لفت بنوع خصوصي انظار المترومين إقدام اربعمئة من اعضاء مجلس الاعيان ومجلس النواب الايطاليين وفيهم السيد غاسبري رئيس الوزارة على القيام باعمال اليوبيل جهاراً. ثم لما اتموها تشرفوا بمقابلة الاب الاقدس في كنيسة القديس بطرس العظمى حيث وجّه اليهم خطاباً.

— ماذا كانت السنة المقدسة : على هذا السؤال عندنا خير جواب في خطاب الثاء الاب

1) « Per annum sacrum ».

الاقدس على الهيئة الدبلوماسية بعد قبول تهانيها رسمياً بمناسبة السنة الجديدة اذ قال : «كان اليوبيل اولاً ما يليق بان يكون اي سنة صلاة وتوبة لكنه قد ظهر ايضاً كرمز للسلم » ثم قال بان هذه السنة اضحت كمجاهرة الشعوب قاطبةً بتمسكها بالسلم فقد تبادرت الى روما جماعات عديدة متباينة الاجناس واللغات والاوطان فاشتركت معاً في حفلات اليوبيل واعياده بائتلاف تام وفرح لا يشوبه حقد ولا تنافر وفوق رؤوسها تخفق رايات بلادها المختلفة متكاتفة متلاصقة وهكذا « لا تزال ارض دولة الفاتيكان هذه حصناً للسلم والمصالحة ».

اهم حوادث السنة المقدسة

اعلان عقيدة انتقال العذراء بالجسد الى السماء

يوم الاربعاء من شهر تشرين الثاني في ساحة القديس بطرس امام تسعة وثلاثين كردينالاً وستة بطاركة ومئة وتسعين رئيس اساقفة وثلاثمئة وتسعة وثمانين اسقفاً وحشد وافر من الكهنة والرهبان وجمع عظيم من المسيحيين بلغ عددهم نحو نصف مليون اعلن خليفة المسيح على الارض البابا بيوس الثاني عشر حقيقة انتقال العذراء بالجسد الى السماء عقيدة من عقائد الديانة المسيحية يجب على كل من المؤمنين التمسك والاعتراف بها .

الكنيسة المضطهدة

بخصوص اضطهاد المسيحيين في البلاد الشيوعية نشر اساقفة سويسرا رسالة عامة قُرئت في الكنائس بتاريخ ١٧ ايلول ١٩٥٠ ونقلت عنها صحف عديدة ثم اعلنها الراديو الفاتيكاني في اذاعاته . نأخذ منها ما يأتي :

اوكرانيا : مات فيها قتلاً اكثر من ٦٠٠ ‎٣ كاهن وحُلّت ثلاث رهبانيات للرجال وست للنساء وأُغلقت ست اكليريكيات ومئة مدرسة والف معبد كبير وصغير .

استونيا ولتونيا وليتوانيا : فيها قُتل او سُجن نحو الف كاهن وراهب .

بولونيا : قُتل او أُرسل الى المعسكرات نحو الف كاهن – وتقول المجلة الرومانية « اكليزيا » بتاريخ ٤ كانون الاول بان عدد المسجونين اليوم من الكهنة الكاثوليك هو ٠٠٠ ‎٢ من اصل ٠٠٠ ‎٧

تشيكوسلوفاكيا: اضمحلت جميع المنشآت والمدارس والنشرات الكاثوليكية والقي في السجن اكثر من ٣٠٠ كاهن وسيادة المطران بيران لا يزال مسجوناً في داره .

هنغاريا: في حزيران الماضي أرسل الى المعسكرات نحو الف راهب وراهبة وقبل ذلك كان نحو ٥٣٨ من الكهنة الملايين ضحية القتل او السجن او النفي . وقد قتل الجيش الاحمر احد المطارنة السيد ابور من اجل تدخله في الدفاع عن شرف الضعفاء وعفتهم . ولا تخفى على عارف شناعة المعاملة التي قاساها الكردينال مندزنتي والحكم عليه بالسجن المؤبد . ثم قد أضطرّ الى المنفى نحو ٨٠ كاهناً .

رومانيا: قتل فيها اكثر من ٧٠٠ كاهن والقي الباقون في السجن .

بلغاريا: حجرت الحكومة على جميع المنشآت الاكليريكية وسجنت او نفت نحو ١٢٠ كاهناً .

يوغوسلافيا: قيل ان الشرطة السياسية قد سجنت او نفت ١٧٣٦ كاهناً وقد اعدمت دون محاكمة ١٩٦ وبعد محاكمة اجمالية ٣٢ . وقد حكمت على سيادة المطران ستبناك بالسجن لست عشرة سنة .

البانيا: ألقي في السجن ٧١٥ كاهناً وجميع الاساقفة لكن من هؤلاء أعدم اثنان

اخبار اخرى

لا بد من الالماع الى الزيارة التي قام بها للفاتيكان في شهر كانون الثاني ١٩٥٠ عزام باشا امين اسرار الجامعة العربية وما صرح به عقب زيارته لجريدة « تمبو » الايطالية ما يلي : « . . . كان لا بدّ لي وانا في روما من ان اشعر برغبة تقديم احتراماتي لرئيس الدين المسيحي فانه من اجل رسالته العمومية في المسكونة يُعتبر حق ومن العرب(!) نفهم الدافع الاعلى عن القيم الروحية السامية التي منها تستوحي ايضاً ديانتنا كما والدين المسيحي » .

— في مساء خميس اليوم الحادي والشرين من كانون الاول ١٩٥٠ تُوفي الكردينال فون بريسنك مطران برلين . فلم يبق اليوم لالمانيا الا كردينالان هما نيافة السيد فون فولهابر والسيد فرنكس . وقد اضحى عدد الكرادلة ٥١ منهم ١٨ ايطاليون و٣٣ من بلدان اخرى مختلفة . اما عدد الكرادلة رسمياً فهو سبعون .

اخبار عالمية

الحرب في كوريا

بدأت هذه الحرب في ٢٥ حزيران بهجوم شيوعيي شمال كوريا على الكوريين الجنوبيين . عقب ذلك في ١٦ ايلول ارسال ٦٠ الف مقاتل من جيوش الامم المتحدة الى مساعدة هؤلاء وملاحقتهم الظافرة التي بلغت في ٢١ تشرين الثاني نهر يالو وهو خط الحدود بين كوريا الشمالية ومنشوريا .

حينئذ تحركت الجيوش الصينية وهبّت الى معاضدة الشيوعيين فاجتازت الحدود الشمالية وقامت منهم في ٢٨ من الشهر عينه بهجوم عنيف على جيوش الحلفاء واضطرتهم على التقهقر السريع ثم تقدمت حتى بلغت ساؤول واحتلتها في ٣ كانون الثاني . وكان اذ ذاك عدد المقاتلين الشماليين حسب تقدير ماك ارثر نحو ٩٥٠٠٠٠ منهم صينيون ٣٠٠٠٠٠ وكوريون محاربون ٢٠٠٠٠٠ واحتياطيون ٤٠٠٠٠٠

لم يحفل الحلفاء ولا سيما الاميركيون لهذه المفاجأة ولم يفكروا قط جدّياً بالانسحاب بل انهم اخذوا يعزّزون جيوشهم اكثر فأكثر وصمدوا غير هيّابين للعدو . ثم بدأت بين الاعداء حركات شديدة معاكسة من مدّ وجزر من تقدم وتأخر ومن الغريب عند العدو انه بعد ان يظهر قوياً مصمماً على ملاحقة انتصاراته نراه بغتة يتراجع الى الوراء متسارعاً كمن يريد الغلبة فاذا توصّل اليها تخوّف منها واندحر منها مذعوراً .

ثلاث عشرة دولة من الامم المتحدة تحارب الآن في كوريا وهي : الولايات المتحدة وكندا وانكلترا وفرنسا وبلجيكا وهولندا واليونان وتركيا وزيلاندا الجديدة واستراليا والفيلبين وسيام .

الميثاق الاتلنطي

وُضع هذا الميثاق للدفاع المشترك ضد كل عدوان آتٍ من الشرق . فوُقّع اولاً في وشنطن في ٤ نيسان ١٩٤٩ ثم في ١٩ كانون الاول ١٩٥٠ اتفق موقّعوه على تكميله بجعله اداة فعّالة للمحافظة على سلامة اوروبا وتوطيد السلم في العالم فدعموه بجيش مشترك قوي عُيّن له الجنرال ايزنهاور قائداً اعلى . وقد عاد هذا القائد في ٢٧ كانون الثاني الى اميركا بعد ان زار بواحد وعشرين يوماً العواصم الآتية : باريس وبروكسل ولاهاي وكوبنهاك واوسلو ولندن ولشبونه وروما ولوكسبورج وفرنكفور وريكجافك واوتاوا .

بمساعدة خصوصية من الولايات المتحدة اخذت دول غرب اوروبا تزيد اكثر فاكثر في انتاجها الحربي لتكون متهيئة للمدافعة عن بلادها عند الحاجة فانها لا تزال تعتبر موقف روسيا السوفياتية خطرًا عظيمًا على سلامتها.

– هوذا تخمين اميركي لعدد جنود المعسكرين الشرقي والغربي :

اولًا : الولايات المتحدة : مليونان وثلاثمئة الف – انكلترا : سبعمئة وتسعة وعشرون الفًا – فرنسا : سبعمئة واثنان وعشرون الفًا – ايطاليا : ثلاثمئة وسبعة آلاف – بلجيكا : مئة الف وألفان – هولندا : مئة واربعة عشر الفًا – البرتوغال : ثلاثة وسبعون الفًا – كندا : واحد وستون الفًا – الدانمرك : تسعة وعشرون الفًا – النروج : خمسة وعشرون الفًا – الكسمبورج : الفان – اسبانيا : ثلاثمئة وخمسون الفًا – يوغوسلافيا : ثلاثمئة وثلاثون الفًا .

(المجموع : ٥٢٤٤٠٠٠)

ثانيًا : الاتحاد السوفياني : اربعة ملايين – رومانيا : مئتان وخمسة وسبعون الفًا – پولونيا : مئتا الف – تشيكوسلوفاكيا : مئة واربعون الفًا – بلغاريا : مئة وتسعون الفًا – هنغاريا : ستون الفًا – المانيا الشرقية : خمسون الفًا – البانيا : خمسون الفًا .

(المجموع ٤٩٦٥٠٠٠)

بين المانيا الغربية وروسيا السوفياتية

ارسلت حكومة المانيا الغربية بعثة رسمية الى لايك سوكس لتقدم الى مكتب منظمة الامم المتحدة مذكرة تشكّ بخصوص مصير اكثر من مليون من الالمان لم يزالوا الى الآن مبعدين عن اوطانهم سجناء في الاتحاد السوفياتي .

تستند هذه المذكرة في مطالبتها الى ان قيادة الجيش السوفياتي الاعلى كانت قد صرّحت هي نفسها في ٤ ايار ١٩٤٥ بان عدد الاسرى الالمان هو ثلاثة ملايين ومئة وثمانون الفًا . وقد اعيد منهم الى بلادهم من ذلك الحين مليون وثمانون الفًا وتسعمئة وستون فبقي اذن في الاتحاد السوفياتي ما ينيف على المليون لا يُعرف عنهم شيء الى الآن .

التابلاين

في بدء كانون الاول ١٩٥٠ فُتح في الشرق الادنى اكبر مجرى للزيوت يمتد من ابي قايق على ساحل البحر الفارسي الى صيدا على ساحل البحر المتوسط تزيد مسافته على الفين وسبعمئة كيلومتر وهو يجتاز البلاد السعودية والعراقية والسورية واللبنانية ويخص شركة الزيوت العربية الاميركية » واسمه « التابلاين ».

المحافظة على القبر المقدس

في منتصف كانون الثاني قدم ممثلو الدول في القدس اعتراضاً الى الحكومة الاردنية لاقامتها نفسها محافظة على القبر المقدس .

في مصر

في ١٥ كانون الثاني قام طلاب القاهرة بتظاهرات لمطالبة انكلترا بسحب جنودها فسقط جرحى منهم نحو ستين – وفي ٢٠ منه انتقلت فرقة انكليزية من المانيا الى مصر لدعم حماية ترعة السويس .

في فرنسا

حلت الحكومة الفرنسية ثلاث منظمات شيوعية متعلقة بالاتحاد النقابي العالمي .

الى المشتركين الكرام

تطلب ادارة المشرق الى مشتركيها الكرام الذين لم يسددوا بعد بدل اشتراكهم عن السنتين ١٩٥٠ و ١٩٥١ ان يتفضلوا بالدفع.

تواصل المشرق سيرها بجزم راجية ان تصادف عند مشتركيها صدىً طيباً ومؤازرة خالصة.

وان كان هناك مانع عن مواصلة الاشتراك، فالرجاء اعلام الادارة بذلك باعادة الجزء الاول من السنة ١٩٥١.

تصدر السنة ١٩٥٠ للمشرق في اواخر هذا الشهر آذار وهي تحتوي «تاريخ الازمنة» للبطريرك اسطفان الدويهي.